AL-HADAF
الهدف
كل الحقيقة للجماهير
فلسطينية عربية وطنية ديمقراطية بهوية يسارية

غسان كنفاني

ما زلنا نقف على أرضك الثابتة

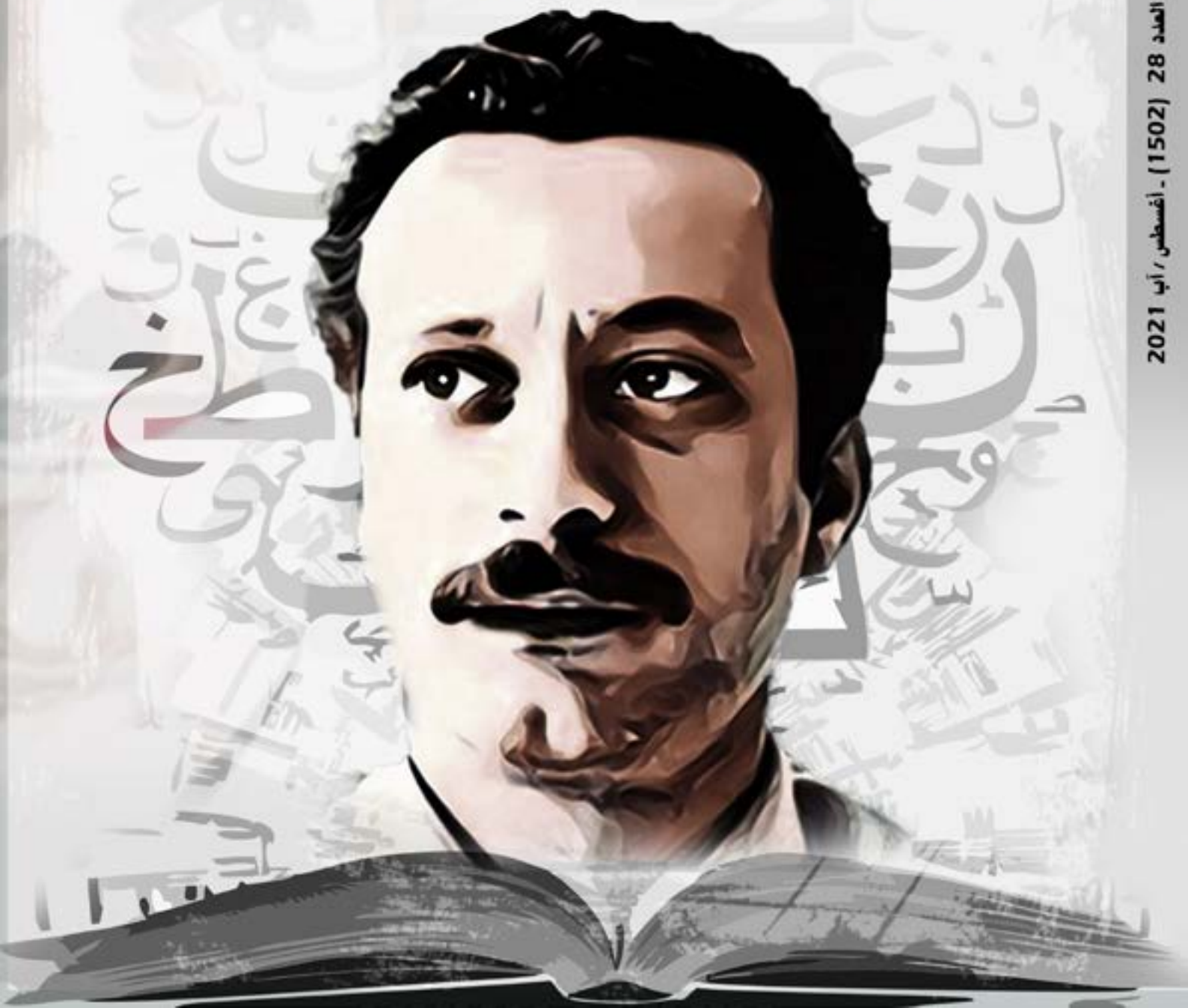

الهدف - فلسطين - العدد 28 (1502) - أغسطس / آب 2021

الهدف
AL-HADAF

34 عاماً على
اغتيال المناضل والفنان

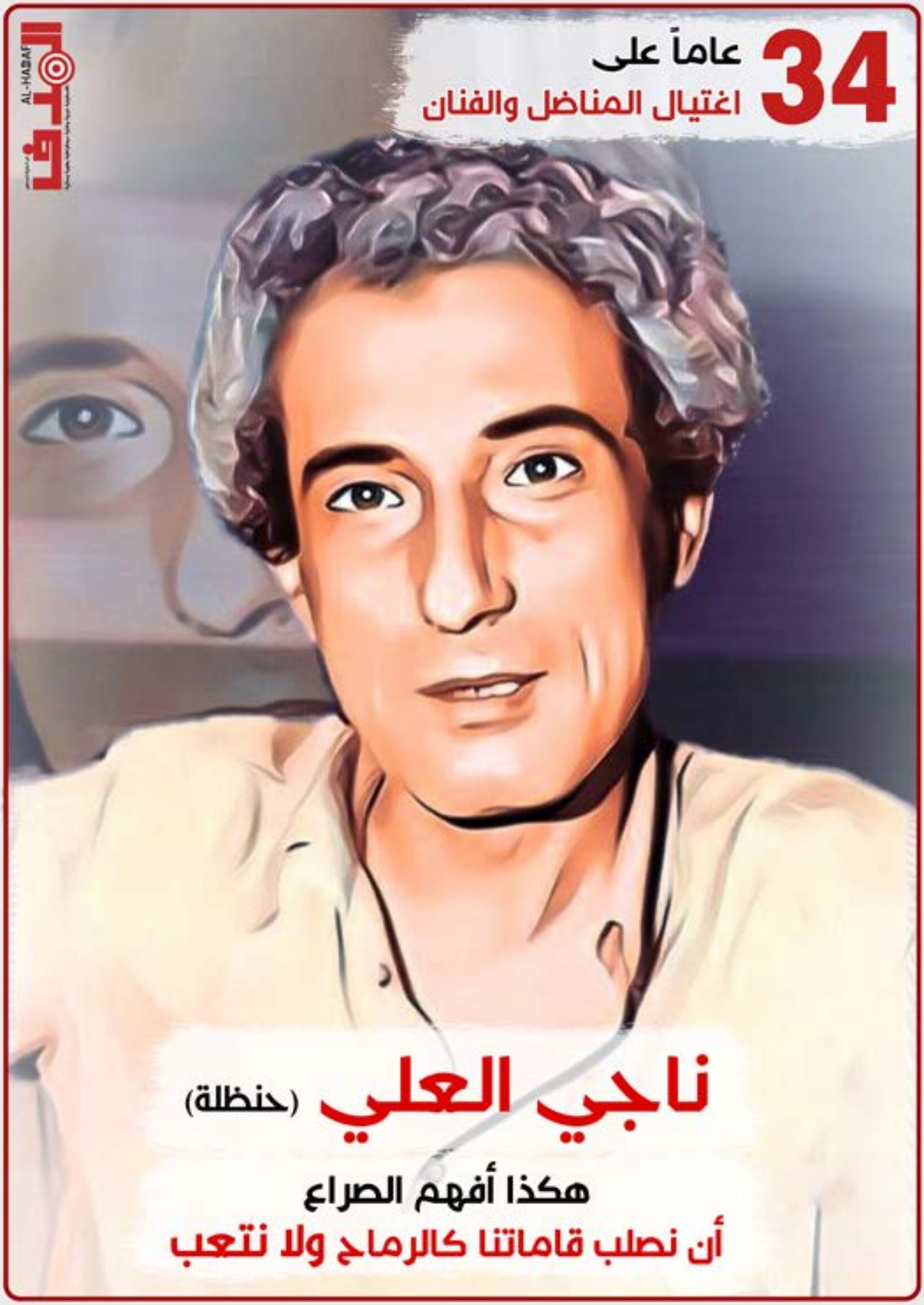

ناجي العلي (حنظلة)

هكذا أفهم الصراع
أن نصلب قاماتنا كالرماح ولا نتعب

الافتتاحية

غسّان كنفاني السّياسيّ/ الروائيّ: المشروع المكتمل مبكرًا

كل الحقيقة للجماهير

عادةً، ما تُطرحُ تساؤلاتٌ، عن أيّهما أهمُّ في شخصيّةِ غسّان كنفاني؛ هل الرّوائيُّ والأديبُ فيها أم السّياسيّ؟!

في أحايينَ عديدةٍ، يكون تغييبُ السّياسيّ في شخصيّةِ غسان؛ بسببِ التّركيزِ على إنتاجِه الإبداعيّ: الرّوائيّ والقصصيّ، وفي أحايينَ أخرى، يتم تغييبُه، عن قصدٍ؛ بفعلِ وضوحِ مواقفِه السّياسيّةِ وثباتِها، التي لا يريدون استحضارَها، التي عبّر عنها في كتاباتِه السّياسيّةِ والصحفيّةِ، ومواقفِه وتصريحاتِه المعلنةِ من قضايا الصّراعِ الرئيسيّة، التي لا تزالُ لها مصداقيّةٌ عاليّةٌ حتّى يومنا هذا، وهي تتناقضُ مع المناخِ الذي كان يعملُ على فرضه وتكريسه من تراجع واستسلامٍ وهزيمةٍ.

ببساطة شديدة، بالإمكانِ الإجابةُ على السؤالِ أعلاه، بأنّ كنفاني السّياسيّ هو الذي أعطى مصداقيّةً لكنفاني الأديبِ والمثقّف، حيث إنّ تجربةَ غسّان في ميدانِ السّياسة، والأدوارَ التي لعبها في حركةِ القوميّين العرب، والجبهةِ الشعبيّةِ لتحريرِ فلسطين، هي التي ساهمت في تشكيلِ تجربتِه الإبداعيّة.

ومع ذلك، من الإنصافِ التأكيدُ على أنّ المكانةَ التي وصلها غسان في مجالاتِ السّياسةِ والإعلامِ والأدبِ؛ لم تكن لتتحقّق لولا سعيه المتواصل لامتلاك المعرفة والثّقافة التي مكّنتْهُ من وعيِ الواقع بكلِّ تعقيداته، بما في ذلك الواقعُ الذي تولّدَ عن النّكبة، وأسبابُ وقوعِها بتشابكاتِها المحليّةِ والإقليميّةِ والدوليّة، ومن وعيٍ لطبيعةِ المشروعِ الصّهيونيّ بتجسيداتِه على أرض فلسطين؛ باعتبارِه مشروعًا استعماريًّا إجلائيًّا نقيضًا للشّعبِ الفلسطينيّ وللامةِ العربية؛ وجودًا ومصالحَ. وهذا الوعيُ، هو الذي ذهب بغسانَ نحوَ الانتماء لحركةٍ قوميّةٍ (حركةِ القوميّين العرب)، ثم للجبهةِ الشعبيّة، ومكّنه من المساهمةِ في رسم سياساتِها، وصياغةِ بعضِ أهمّ وثائقِها، والتعبيرِ عن مواقفِها إعلاميًّا، كجزءٍ من دورِه السياسيّ المباشرِ في العمليّةِ الكفاحيّةِ الأشمل، التي خاضتْها الجبهةُ والثّورةُ الفلسطينيّةُ بشكلٍ عامٍ. لقد كان غسّان مقاتلًا في كلِّ المجالات، حيث قدّم النّموذجَ النقيضَ لذلك المثقّفِ الذي يرى أنّ الابتعادَ عن السّياسة؛ يتيحُ له الإبداعَ في الأدب!

في سياقِ عمليّةِ الوعي التي سعى لها غسّان، اهتمّ كثيرًا بقراءةِ التّاريخ، والتّجربةِ النضاليّةِ للشّعبِ الفلسطينيّ، وتجاربِ حركاتِ التحرّرِ الوطنيّ في العالم، ومنها استلهمَ وأنتجَ العديدَ من الدّراساتِ السياسيّةِ والأدبيّة:

أولا: ففي دراستِه عن ثورة 1936، ركّزَ على البعدِ القياديّ للثّورة، التي كانت تقليديّةً وجاهلة، وعديمةَ الكفاءة، وتمتلكُ وعيًا مزيّفًا، وأسهمت في إهدارِ عواملِ القوّة، وكذلك لم تكن هذه القيادةُ تقاتلُ بالفعل، لهذا أسهمت في إجهاضِ الثّورة، حيث يقولُ غسّان: «قيادةٌ لا تقاوم، كيفَ يمكنُ لها أن تقود».

ثانيًا: سبقَ غسّان بإصداره دراسات أدبِ المقاومة في فلسطينَ المحتلّة، والأدبَ المقاومَ تحتَ الاحتلال (48 – 1968) وتغطيتَه أخبارَ الـ1948، في تأكيدٍ على وَحْدَةِ الشّعبِ الفلسطينيّ وهُويّته، ومقاومةِ المحاولاتِ التي كانت تعمل على تكريس الفصلِ وسلخِ الشّعبِ في الـ48 عن جذوره، حيث قاده وعيُهُ لإدراكِ أهميّةِ الوجودِ الفلسطيني في الـ48، وأهميّةِ تظهيرِ إنتاجِهم الثقافيّ والأدبيّ، كانعكاسٍ لنضالاتِهم وانتمائِهم الوطنيّ، بعد أنْ كان يُنظرُ لهم بريبةٍ وتشكيكٍ في الانتماء.

ثالثًا: وعيُ طبيعةِ الصّراعِ، وطبيعةِ المشروعِ الصهيونيّ وتحالفاتِه، قاد غسّان إلى وعيه بأهميّةِ تحشيدِ القوى لمواجهتِه على الصّعيدِ الوطنيّ والقوميّ والأمميّ، من خلالِ استراتيجيّةٍ وطنيّةٍ وبرنامجٍ واضحٍ يتمسّك بالحقوق، وجبهةٍ وطنيّةٍ تديرُ عملَها بالاستناد إليه، ووحدةِ الجماهيرِ والبنادقِ في مواجهةِ العدو، ومجابهةِ المظاهرِ والمسلكيّاتِ الخاطئةِ والسلبيّةِ في التغولِ على الجماهير... وأهميّةِ ربطِ كلِّ ذلك بالوعي، فهو القائل: «إنّ السلاحَ يمكن أن يكونَ كومةَ حديدٍ لا قيمة لها، ما لم يلازمْها الوعيُ والإرادة، وتحديدُ الهدفِ الصّحيح». وقوميًّا؛ أكّدَ البعدَ القوميَّ للقضيّةِ الفلسطينيّة، وضرورةَ نسجِ علاقاتٍ خاصّة، مع حركاتِ التحرّرِ العربيّة، وشدّدَ على هانوي العرب، تيمّنًا بالثّورةِ الفيتناميّة. وأمميًّا: دعا إلى إقامةِ علاقاتٍ واسعةٍ معَ الأحزابِ والقوى الأمميّةِ والثوريّة، وأدّى دورًا بارزًا على هذا الصّعيد.

رابعًا: في دراستِه المقاومةِ ومعضلاتِها؛ أكّدَ أنّ التنظيمَ جسرٌ يربط النظريّةَ بالممارسة، وإن لم يكنْ كذلك ينتهي إلى تجمّعٍ عصبويٍّ معزول، وأنّ إهمالَ المسألةِ التنظيميّةِ يقودُ إلى نتائجَ باهظةِ الثّمن؛ وطنيًّا ومجتمعيًّا، وأنّ التنظيمَ الثوريَّ حين لا يكونُ وليدَ نظريّةٍ ثوريّةٍ ينتهي إلى صيغةٍ تآمريّة، مع تأكيدِه أنّ النظريّةَ ليست معتقدًا جامدًا بقدرِ ما هي دليلُ عمل ■

في هذا العدد

شؤون فلسطينية..

الافتتاحية: غسان كنفاني المشروع المكتمل مبكرا..... 3

وسام رفيدي: الاندماج البنيوي بين حركة فتح والسلطة 6

محمد أبو شريفة: المشهد الفلسطيني بين المطرقة والسندان..... 8

عليان عليان: الانتفاضاتُ الفلسطينيةُ بينَ التّضحيةِ والحصاد.....10

حسن شاهين: نقاش حول النظام السياسي الفلسطيني.....14

خاص (الهدف): خطاب الاستسلام.....15

خاص (الهدف): «بيتا» عن سؤال الجدوى.....15

خاص (الهدف): أداة الحصار والقتل: آلية الإعمار.....16

محمد أبو ناموس: لقاء سادة القوم/ جدار الصوت.....17

شؤون عربية..

رضي الموسوي: الخلافات البينية في مجلس التعاون الخليجي.....18

جمال واكيم: اعتذار سعد.....20

خاص (الهدف): القضايا المسلوبة: تونس.....22

علي بو خلاف: الجزائر بعد الانتخابات التشريعية..... 23

شؤون العدو..

أحمد مصطفى جابر: بيغاسوس يضرب من جديد..... 24

أكرم عطا الله: سخرية السياسة في إسرائيل..... 27

شؤون دولية..

سامح اسماعيل: الدور الأمريكي وتوازنات السياسة.....28

خاص (الهدف): الشعبية تدين محاولات زعزعة الاستقرار في كوبا.....29

مقابلة مع القيادي البيروني نييلز أرياس: حاوره إسحق أبو الوليد....30

إسحق أبو الوليد: أمريكا اللاتينية 32

محمد صوان: تحديات التوجهات التركية الجديدة.....34

خاص (الهدف): سد النهضة: الصراع باسم التنمية (تقرير).....36

المشرف العام
كايد الغول

رئيس التحرير
د. وسام الفقعاوي

مدير التحرير
سامي يوسف

تحرير وتنفيذ
أحمد مصطفى جابر

المدقق اللغوي
أيوب جمال الشنباري

يسمح بالنقل وإعادة النشر
بشرط الإشارة إلى المصدر .

عناوين بوابة الهدف

غزة- بجوار مستشفى الشفاء-
نهاية شارع الثورة

الهاتف
082836472

البريد الإلكتروني
info@hadfnews.ps

تصدر عن دائرة الإعلام المركزي
في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

AL-HADAF
الهدف
فلسطينية عربية ديمقراطية بهوية يسارية
الهدف - فلسطين العدد 28(1502) آب/أغسطس 2021

الأغلفة:
«نضال أبومايلة»

المقالات المنشورة لا تتطابق مع وجهة نظر الهدف بالضرورة

الهدف الثقافي..

الملف:

في الذكرى الـ٤٩ لاستشهاد غسان كنفاني:

ما زلنا نقف على أرضك الثابتة..

الافتتاحية: عن النقد والتطور.. 37
عابد الزريعي: البعد الشعبي في أدب غسان كنفاني.............38
مروان عبد العال: غسان كنفاني: أدب لزوم ما يلزم.......................40
أحمد الخميسي: غسان كنفاني: زهرة الشعب المقاتل...................43
أحمد بدير: قاسم حول: هكذا عشت مع غسان......................44
عبد الرزاق دحنون: سأحدثكم عن غسان كنفاني.....................46
موسى مراغة: أعمال غسان وتجلياتها السينمائية......................48
هاني حبيب: عائد إلى حيفا/ خارج النص..............................53
عبد الرحمن بسيسو: في الأدب الفلسطيني..............................54
طلال عوكل: غسان القدوة والنموذج/ في الهدف..................57
نهلة راحيل: التمثيل الأدبي للصهيونية ودوره في الاستيطان......58
وليد عبد الرحيم: سينما فلسطينية - سينما «إسرائيلية».................60
محمود قرني: حديث عن شعر الحرب..................................62
حاتم استانبولي: أم سعد تصبح على غسان كنفاني...................64
جواد العقاد: غسان كنفاني ودق جدران الوعي........................66

كلمة

يصدرُ هذا العددُ في مناسبتينِ حزينتين، الأولى: الذكرى التّاسعةُ والأربعون لاستشهاد غسان كنفاني؛ اغتيالا بتفجير سيارتهِ في الحازميّة في بيروت، على يَد عملاءِ المخابرات الصهيونيّة «الموساد» ليُقضى خالدًا أبَدًا، مع ابنة شقيقته الشّهيدة الشابّة، لميس نجم، التي كانت تَرافقُ خالَها في ذَلكَ الصباح الدّامي.

والذكرى الحزيَنةُ الثّانيةُ، هي مرورُ 34 عامًا علىاستشهاد الفنّان الكبير، الرسّام والمناضل، ناجي العلي؛ اغتيالا جبانًا فيَ لندن، علىَ يد عميل مزدوج « كما أُشيع « في قضيّةٍ ظلّت غامضة، وغيرَ محلولةٍ حتى اليوم في دوائر اسكوتلاند يارد.

وبهاتين المناسَبتين؛ فإنَّ «الهدف» تقفُ باحترامَ وإجلال؛ لذكرى رجلينِ ارتبطت بهما وَبشجاعتهما بشكل كليَ؛ أحدهما مؤسّسُها، والآخَرُ صارَ قدوةً ونجمَ سهيلِ لكلِ الفلسطينيّينَ بعد أنِ اكتشفهُ الأوّلُ وقدَّمَهُ للجمهور.

نوجّهُ تحيّةً لناجي العلي؛ حنظلةِ الأزمنة كلِّها، الفدائيِّ العابر للأيديولوجياَ، الذي لا يعرفُ فكرةً سوى الوطن وفقرائه؛ منحازًا إلى «من هم تحت» بكلمَاته الخَاصّة، عبرَ الغلافين الثاني والثالث. وكالعادة نفردُ ملفًا ثقافيًّا خاصًّا في ذكرى غسانَ؛ القائد والمعلّم والدّرس، حيث تناولنا جوانبَ متعدّدَةً من فكر غسّان وأدبه وموضوعاتٍ أخرى في صُلبِ كفاحه وكتاباَته.

في الأقسامِ المعتَادَة؛ تواصلُ الهدفُ تغطياتها للشؤون الفلسطينيّة والعربيّة والدوليّة، وما يَتعلّقُ بشؤون العدوِّ الصّهيونيّ؛ أسهمَ فيها كتّابٌ فلسَطينيون وعربٌ من فلسطينَ، ولبنان، والجزائر، والأردنّ، وبريطانيا، وفنزويلا، ومصر، وتونس، والبحرين، وسوريّة، ولبنان.

مقابلةُ هذا العدد مع الرفيق نييلز رويتون أرياس؛ القياديِّ البيرونيِّ البارز، وزعيم الحركة الشعبيّة البيروانيّة في فنزويلاَ. والرفيَقُ «نييلز» أسيرُ حرب سَابقًا لدى نظام فوجيموريّ الإرهابيّ. تأتي أهميّةُ المقابلة في ظلّ التّطوّرات الأخيرة، ونجاح مرشّح اليسار الرفيق «كاستيوو» بمنصبِ الرئيسَ في البَيرو.

الاندماج البنيوي بين حركة فتح والسلطة

محاولات عقيمة لأزمة لا فكاك منها

وسام رفيدي- أستاذُ علمِ الاجتماعِ السياسيِّ في جامعة بيت لحم/ فلسطين

بماذا كان يفكّرُ مَنْ قرّرَ من حركةِ فتح وضعَ (لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه) على رايةِ فتح التاريخية؟ قطعًا لم يفكر ببعض العلمانيين والمسيحيين الملتحقين أو المحسوبين على حركة فتح، الذين لَن يرضيَهم هذا التطوّرُ الديني. ربّما كان يتمثّل تجربة صدام حسين الذي فعل الشيءَ ذاته قبل سقوطِ نظامه، ولكن مَنْ قلّده من حركة فتح لم ينتبه إلى أنّ إبداعَ صدام ذلك لم ينفعه، فالتمسّح بالخطابِ الديني، وهو البعثيُّ العلمانيّ المفترض، لم يمنع نظامَهُ من السقوطِ خلال 48 ساعةٍ، ولا حشدَ الشعب العراقي للدفاع عنه، بل تُرك لمصيرِه المأساويّ وحيدًا. ربما كان يفكّر في منافسةِ حماس على الاستنادِ للشرعيّةِ الدينيّة، وتلكَ المنافسة غدت موضة سياسيّة في العالم العربيّ اليوم، حتّى لبعضِ اليساريّين. ومَنْ يتابع خطابَ حركة فتح، بكلِّ تلاوين هذا الخطاب، منذ تأسيسِ حركة حماس يلحظ نزوعَها (فتح) لتضمينِ خطابها رموزًا وشعاراتٍ وصياغاتٍ دينيّة متنوّعة.

مرّةً أخرى، فَقَدَ مَنْ فكّر بذلك الصوابَ لأسبابٍ عديدة، أوّلُها: أنّ القاعدةَ الجماهيريّةَ الواسعةَ لحركةِ حماس ليست كلّها ملتفّةً حولَ حماس بسببِ الشرعيّةِ الدينيّةِ المدعاة، فحزبُ التحرير وحركةُ الجهاد لديهما أيضًا تلك (الشرعية)، ولكنها بالذات بسببِ الموقف المقاوِم للحركة، والجماهير، كدرس تاريخيٍّ موثوق، لم تلتحق يومًا بركبِ حزبٍ أو فصيلٍ بفعلِ أيديولوجيّته، دينيّةً كانت أمْ ماركسيّةً أو قوميّة، بل بسببِ حملِ السلاح ونهجِ المقاومة، فالأيديولوجيةُ شأنُ المثقفين وواضعي البرامج وراسمي السياسات، لا شأن الجماهير. وتجربةُ الجبهة الشعبيّة في قطاع غزّة منذ 67-72 وكذا تجربتها في الضفّة في ثمانينات القرن الماضي، أحد تلك الدروس وليسَ كلها.

وعليه، فإنّ وضع (لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه) على رايةِ فتح ليس أكثرَ من تخبّطٍ يعكس أزمةَ الحركة، تلك الأزمةُ التي وصلت ذروتَها بفعلِ متغيّرات ثلاث، وليس بسببِ تلك المتغيّراتِ حصرًا: أوّلُها، معركةُ سيف القدس ومعركةُ الأقصى، التي كانت فتح غائبةً عنها تمامًا لدرجة هتاف جماهير القدس ضدَّ رأس الحركة الأول في تحشّداتهم. ثانيها، فضيحةُ اللقاحاتَ مع الكيان الصهيوني، التي أظهرتَ حجمَ الدونيّةِ والوضاعة التي تعاملت بها حكومةُ الكيانِ مع جهاز السلطة وبموافقة الثاني ورضاه. ثالثها، اغتيالُ الناشط الجذري في موقفه نزار بنات بكلّ بربريّةٍ ووحشيّة. وما زاد الطينُ بلّةً معطيانٌ إضافيّان: الأوّلُ أنّ لا انفكاكَ بين (الطرفين) السلطة وفتح في المسؤوليّة، فإن يتحمّل الأوّل مسؤوليةً ما، يعني أن يتحمّلها الثاني والعكس صحيح، فهما من حيث البنيّةُ طرفٌ واحد لا طرفان. أما المعطى الثاني، فهو أن سلوكَ السلطة بأجهزتها، وحركة فتح بقاعدتها المحتشدة في الشارع، وتصريحات قادتها، وضعت نفسَها في موضع بدت فيه وكأنّها تدافع عن اغتيال بنات، أو بالحدّ الأدنى تقلّل من فظاعةِ الحدث وتسعى للفلفتِه. فالقمعُ الدمويّ لأيِّ

العودة إلى الفهرس

صوت احتجاجيٍّ على جريمة الاغتيال، وتحشيد قاعدة فتح لقمع المحتجّين في الشارع، وإطلاق تهديدات علنيّة من قادة فتحاويّين ضدَّ المحتجّين والمعارضين، وأخيرًا عدم اتّخاذ أيّ إجراء مقنع وعلنيٍّ ورسميٍّ حتى اللحظة ضدَّ مرتكبي الجريمة من عناصرَ وضبّاط ومسؤولين، بل رفضُ تحمّل المستوى السياسيّ في السلطة لمسؤوليته، ويحاولون لفلفة الموضوع، وكأننا بهم يقولون: عفا الله عمّا مضى، كلّ ذلك يؤشر لما ذهبنا إليه.

كل ذلك يؤكّد حقيقةَ المأزق التناقضيّ الذي تعيشه السلطة وحركة فتح معًا، الذي يتجلّى بتصرفات رعناءَ سواءً في الممارسة أو في الخطاب. ويكفي بالإشارة لتصريحات العالول والرجوب التهديديّة الموتورة، ولتجنيد الشبيبة الفتحاويّة لضرب المعارضين وسحلهم، من رجال ونساء وشخصيّات ورموز ونشطاء وطنيّين، عند دوار الساعة في رام الله، أمامَ الشرطة وفي ظلّ مراقبتهم، فتلك المظاهر المرفوضة تعكس حقيقةَ التصرّف المأزوم الذي يندفع بغوغائيّة وبتحشيد موتور ضدّ أي صوت حرٍّ ووطني في الشارع، علمًا أن بعضَ الرموز الفتحاويّة بلغت حدًّا من الموتوريّة في تصريحاتها وكتاباتها يتجاوز كثيرًا ما قاله الرجوب والعالول. ومن الأمانة بمكان الإشارة لمواقف فرديّة مسؤولة من كادرات وقيادات فتحاوية، قالت كلمتها بكلّ شجاعة في اغتيال بنات وفي القمع البربريّ للمحتجّين منهم معين الطاهر وإيهاب بسيسو.

مع ذلك كلّه، لا أرى أنّ الأزمةَ الحاليّةَ أزمةُ السلطة حصرًا، أو أزمةُ حركة فتح حصرًا، بل أزمةُ نظام سياسيٍّ بنته حركةُ فتح واندغمت فيه بكلّ قوّتها، وللأسباب التالية:

أولاً: لا مجال مطلقًا، بتقديري، للانفكاك بين حركة فتح والسلطة في رام الله، كما هو الحال في غزّة أيضًا. فالسلطة تنبني وَفْقَ نظام الزبائنيّة، الذي نجح بتكوين قاعدة اجتماعيّة له عبرَ التوظيف والمحسوبيّة والارتزاق؛ نتيجةَ فقدانه أيةَ شرعية، سواءً أكانت شرعيّةً ثوريّةً كانت أيّام الثورة، أم انتخابيّةً قانونيّة. فعوّضا عن بناء النظام على قاعدة الشرعيّة الانتخابيّة القانونيّة، ونتيجةَ تهتّك شرعيّته الثوريّة السابقة وانتهائها، فهو بأمسّ الحاجة لنظام الزبائنية، وهذا ما خلق ذلك الاندغام بين حركة فتح وجهاز السلطة، فالحركة وفّرت القاعدة للسلطة بتوظيف عشرات الآلاف، يعيلون مئات الآلاف، في مؤسّسات السلطة، ثمّ، فالفائدة مزدوجة: السلطة وفّرت قاعدتها الزبائنية (شرعية ما مدعاة) وفتح وفرت التوظيف والراتب لعشرات الآلاف وربطتهم بمشروع أوسلو. لذلك فالاندغامُ بين السلطة وفتح بنيوي لا فكاك منه إلا بانتهاء أحد الطرفين، وذلك مستحيلٌ في الزمن المنظور. وعليه لا قيمة عملية بتقديري لشعارات من نوع إنهاء الارتباط بين السلطة وحركة فتح، مع اقتناعي أنها تقال فقط في مدّة الأزمات لا أكثر، للتنصّل، غير الأخلاقي على أية حال، من سلوك الأجهزة الأمنية أو من رائحة الفساد المزكمة للأنوف أو من أية فضيحة مباغتة.

ثانيًا: في تجنّد حركة فتح للدفاع عن السلطة وأجهزتها الأمنية، ومظاهر التجنّد وتجلياتها هذه، كانت كأنها تقول: اتّهامُ السلطة اتّهامٌ لفتح. اتّهامُ الأجهزة الأمنية اتهامٌ لفتح. إذن، فاتّهامُ السلطة باغتيال بنات اتّهامٌ لفتح. من حيث التداخل البنيوي بين الطرفين، فما يقولونه صحيح: فاتهام السلطة اتهام لفتح فعلا، فالأجهزة الأمنية، مَنْ على رأسها وضباطها وعناصرها بأغلبيتهم الساحقة فتحاويون، وبمواقعَ رسميّة في التنظيم، وعندما تقرّر حركةُ فتح حشدَ الشبيبة الفتحاوية، لمعاونة عناصر الأجهزة في قمع اعتصام دوار الساعة، وبمراقبة جهاز رسمي: الشرطة، فحينها يكون الاتّهام للسلطة اتّهام لفتح.

من الطبيعي أن تتصرّفَ فتح وَفْقَ هذا المنوال لتلك الأسباب بالذات، يضاف إليها حقيقة أن تأكيد فتح عبر خطابها من قبل قياديين أن فتح مستهدفة؛ بهدف السيطرة على الضفة من قبل حماس، رغم ما يثيره هذا الهاجس/التحليل من السخرية، فإنه يؤكد حقيقةَ الأزمة بأن فتح تسعى لتحشيد طاقات قاعدتها وجماهيرها باختراع (عدو) هو حماس في الضفة، في رغبة، غير معلنة، لحرف الموضوع عن اغتيال بنات؛ لأنّ الاتّهام باغتيالِه يطالها كسلطة.

القاصي والداني، والعارف للواقع السياسي في الضفة، ولو بمستوى الصفوف الدراسيّة التمهيديّة، يدرك أن (التخوّف) من حماس في الضفة هو محضُ فزاعة مقصودة لسببين اثنين مهميّن: الأوّل، أنّ حماس لا تملك القدرةَ على فعل هذا، بافتراض أنها ترغب، والسبب يعود لتعرّضها للقمع المزدوج عبر سنين وسنين من قبَل الجهتين: الكيان الصهيونيّ وسلطة أوسلو، وثانيهما، أن الكيانَ الصهيوني لن يسمحَ مطلقًا بذلك، وخلالَ ساعات سيقتحم الضفة الغربية إن تهدّد وجود الدجاجة التي تبيض ذهبًا/تنسيقًا أمنيًّا، أي سلطة أوسلو.

وفي عملية الحرف هذه عن قضيّة نزار باختراع (عدو) لفتح تخدم تمامًا الرغبة في طمس ملف نزار بنات لا أكثر.

وبعد، المبعوث الأمريكي للمنطقة، عمرو، وصف السلطة بأنّها غابةٌ جافّة، وهي كذلك فعلا، ومن حقّه أن يخاف عليها هو والصهاينة، فهي دجاجتُهم التي تبيض ذهبًا، ولكن يقيني لا يريد أي فلسطيني حرق تلك الغابة إلا إذا تمتع بقدر وافر من الموتورية، فحرقُها يعني أن نارًا تلتهم الأخضر واليابس، وتلقي نحو 180 ألف موظف يعيلون أكثر من 700 ألف نسمة في الشارع، فضلا عن أنه سيحرف التناقض الأساسي مع الصهاينة. ولكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن ما بعد سيف القدس واغتيال نزار بنات يجب أن يكونَ كما قبله، فالهياكلُ والبُنَى والمؤسساتُ والشعاراتُ والسياسات الوطنيّةُ كلّها، ينبغي أن يعادَ النظر فيها. هذا ما قاله الجميعُ بعد سيف القدس وهذا ما يتأكّد بعد جريمة اغتيال بنات وأزمة السلطة■

المشهد الفلسطيني
بين مطرقةِ الاحتواء وسندانِ استمرارِ المعركة

محمد أبو شريفة– كاتبٌ سياسيٌّ فلسطيني/ سوريا

اعتقدت قيادةُ السلطة الفلسطينية بعد خسارة ترامب للانتخابات الرئاسيّة الأميركية، وصعود نجم بايدن وما يحمله من سياسات تجاه المنطقة أنها ستستثمرُ السنوات العجاف التي عاشتها مع الإدارة السابقة، حيث أعطت الإدارةُ الأميركية مؤشراتٍ على عودة الدفء لهذه العلاقة.

أهمُّ هذه المؤشرات: وقفُ تجميد المساعدات المالية للسلطة ووكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين «أونروا»، وعودة عمل ممثلية منظمة التحرير في واشنطن، وكذلك فتح القنصلية الأميركية في شرقي القدس. كل تلك المؤشرات دفعت السلطةُ في رام الله إلى الاسترخاء مع الخارج والاستقواء مع الداخل، وبدلَ أن تتكيف السلطة مع هذه المتغيرات قامت بأفعال ارتكاسية عبرَ إلغاء الانتخابات المقررةً، تحت حججٍ غيرِ مقنعة. وبالمقابل حاولت استثمارَ معركة سيف القدس لصالحها عبرَ الضغط على غزة من خلال بوابةَ الإعمار، وأضافت ندبةً جديدةً في جبينها بعد أن أقدمت أجهزةُ أمن السلطة على اعتقال الناشط السياسي نزار بنات بشكل غير قانوني، ووفاته الفورية جرّاءَ ما تعرضَ له من تعذيب. وما تلاها من أحداث جعلت السلطةَ تحشرُ نفسَها في الزاوية، فهي الآن تقاتل على جبهات كثيرة، ولكن عينها على الإدارة الاميركية التي بدأت تصدر منها إشاراتٌ غير مطمئنة، فالإدارة الديمقراطية في البيت الأبيض تضغط على السلطة وأجهزتها في سبيل فتح مساحة للحريات في الضفة الغربية، ولكنْ هذه الحريات متاحةٌ لمنظمات المجتمع المدني، وهذا المؤشرُ الأخيرَ للسلطة ظهر بوضوح بزيارة عمرو هادي مساعد وزير الخارجيّة الأميركي لفلسطين حين اجتمع بعشرات من نشطاء المجتمع المدني من مدن الضفة وقراها كافةً، قبل لقاءِ أيِ مسؤولٍ فلسطيني.

وسياسيًّا، يُفهم هذا الأمر على أن الإدارة الأميركية تضع الملفَ الفلسطيني ضمنَ خياراتٍ عدة، وتقدم له مقارباتٍ مختلفةً عنْ وجهة نظر السلطة، فلمْ تتحدثْ حتى الآن على عودة المفاوضات بين السلطة و(إسرائيل). وفي المقابل، بنت السلطةُ توازناتها الاقتصاديةَ والسياسيةَ على أملِ أن تُفتح لها الأبوابُ في واشنطن ولهذا « كعادتها « السلطةُ حين تدخل في مأزق تعلن حالةَ الإفلاس. ويبدو أن هذا الإعلانَ لن يفيدَها اليوم في شيء، خصوصًا في ظل هذه المواجهة المفتوحة مع الإدارة الأميركية الجديدة لأكثرَ من سبب، أهمُّها: أنّ إدارةَ بايدن لا تستهدف السلطةَ الفلسطينيةَ كمؤسسات، ولكن على ما يبدو، أنّ عينَها على محمود عباس، وتلوّح بأن ثمةَ سيناريوهات في الأفق، لإزاحة الرئيس الفلسطينيِّ قبل البَدْء في أيّ مشروع تسووي. ومن الأرجح أنّ الإدارةَ الأميركيةَ باتت تعتقد

العودة إلى الفهرس

أن الرئيس الفلسطيني قد أصبح عقبةً ولا بد من التغيير، ولكنّ الناظرَ للمسرح الفلسطيني يرى بوضوح أن إدارةَ جوَ بايدن لم تصل حتى هذه اللحظة إلى مستوًى محدّد في كيفيّة التغيير، لكنها على ما يبدو قد وصلت إلى مرحلة اتّخاذ القرار. وكأنّ خريفَ محمود عباس قد اقترب، والأيامُ والأشهرُ القادمتان ستظهران بوضوح، وسيتم اختبارُ نوايا الإدارة الأميركية الجديدة، والتي تستخدم دبلوماسية الصمت القاتلة، وذلك بعد أن أغرقوا المسرحَ الفلسطيني بجملة من التناقضات الضخمة، وعزلوه عن محيطه العربي.

في حين أنّ المشهدَ السياسي الفلسطيني برمّته غيرُ قادرٍ على إعادة التوازن؛ لأنّ الثقلَ السياسيَّ في غزةَ عاجزٌ عن اختراق هذا الحصار السياسي، فحركةُ حماس « وبكل ما تملكه من زخم سياسي وعلاقات مع الفصائل الأخرى » غيرُ قادرة على الإمساك بزمام المبادرة، ولاحظنا أنّ الحديثَ عنَ الحوارات الفلسطينيّة والمصالحات والانتخابات قد غابت مفرداتُها من أجندة السياسيين الفلسطينيين؛ لأنه بكل بساطة قد رفع الغطاءُ الإقليمي عن هذا الملف، وكل بلد في المنطقة يهرول إلى الإدارة الأميركية منفردًا؛ ليقرأ من دفترها ما تريد، والبعضُ منهم قدّم أوراقَ اعتماد تطبيع العلاقات مع (إسرائيل) وأعطى انطباعًا بأنّ القضيّة الفلسطينيّة انتهت، وأنّ الصراعَ العربي الإسرائيلي بلغ نهايته.

وضمنَ سياق تفاعلات المشهد الفلسطيني، توقّع عديدٌ المراقبينَ بولادة واقع جديد بعد معركة سيف القدس التي أرست مفاهيمَ جديدةً في تاريخ الصراع والمواجهة مع المحتلّ الإسرائيلي. وممّا لا شكَّ فيه أنّ المفاهيمَ الجديدةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها وقد آنَ الأوانُ لكي نفهمَ هذه الحقيقةَ قبلَ فوات الأوان.

إنّ الوضعَ الفلسطيني برمّته يمرُّ اليوم بمرحلة مخاض قاسية، فمنذ ولادة أوسلو عامَ 1993 ونحن نعيش حالةَ الانتكاس الوطني، إلى أن جاءتنا معركةُ سيف القدس فجأةً؛ فأخذت تجرفُ أمامها معظمَ ما ألفناهُ ونشأنا عليه من حقبة التسوية، ولكن تفاجأنا بتراجع الحراكَ السياسي الفلسطيني وانحساره بعد سيف القدس، في الوقت الذي كنّا ننتظرُ فيه من القياداتَ الفلسطينيّة في السلطة وحركة حماس أنّ يساعدوا الشعبَ والمقاومةَ في تجاوز أزمة المخاض هذه، لكننا وجدناهم على العكس من ذلك، يحاولون أن يقفوا في طريق تحقيق الإنجازات الوطنية، واختزال الانتصار ونتائج المعركة في البحث عن المصالح الفئوية الحزبية، ومحاولة مصادرة القرار الفلسطيني، والتفرّد بمستقبل شعبنا ومصيره.

وفي هذه الأثناء، نرى أن الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة تهدف من شنّ حروبها العدوانيّة المستمرة إلى كسر إرادة شعبنا، وفرض سياسة العصا والجزرة مع المقاومة الفلسطينيّة في غزة، المتمثلة في حماس؛ إذ تحاول احتواءها وتطويعها والدفعَ بها نحو تكريس الانقسام الفلسطيني، وتشجيعها عبرَ وسطاءَ إلى إقامة كيان سياسي موازٍ في قطاع غزة، بغية التعامل معها والقبول بها بمعزل عن القيادة الفلسطينيّة في رام الله. وفي الوقت ذاته تهدد القطاعَ بعودة العدوان والقتال المروع حال لم تقبل حماس بإملاءاتها وخضوعها لتسوية إقليميّة بشروط إسرائيلية. لذلكَ فالخيارُ الملزم أمام طرفي الانقسام هو تعزيزُ الوفاق الوطني، وعدمُ تجاهل مخاطر الانقسام والتفرّد بقرار الشعبَ الفلسطيني، والعمل بجديّة على تحقيق وحدة وطنيّة فلسطينيّة، من خلال مشروع وبرنامج وطنيين موحدين يعيدان الاعتبارَ الى منظمة التحرير الفلسطينية، وتفعيلَ مؤسساتها، وتعزيزَ الجهود من أجل إنجاح المصالحة الفلسطينية وإنهاء الانقسام، مع الحذر من محاولات خطف الانتصار عبرَ الزجّ به في دوامة عناوينَ إشكالية بين الأطراف المعنيّة لفرض اشتراطاتٍ جديدة ، وأنَ أيّة إجراءات أو مجرّد التفكير من بعض القوى أو الجهات لتشكيل مرجعيّة بديلة عن منظمة التحرير الفلسطينيّة، والاستئثار باللقاءات الثنائيّة دون القوى الأخرى، هو طعنةٌ في خاصرة القضية، وستكون له تداعياتٌ خطيرة على الشعب الفلسطيني. لذلك يجب بناءَ استراتيجيّة وطنيّة شاملة تعكس التطورات السياسيّة والعسكريّة، وتلبي الطموحات الفلسطينيّة.

إنّ الواقعَ الحالي الذي رسمت ملامحَهُ معركة سيف القدس يعدّ بمثابة فرصة تاريخيّة للقيادة الفلسطينيّة، ولعمومِ القياداتِ والشعوب العربيّة لخلقِ معادلة جديدة للمواجهة ودعم المقاومة الفلسطينية، لأنّ وقفَ إطلاق النارِ القائم لا يعدو كونَهُ بدايةً لإعادة رحى المعركة من جديد بين الفلسطينيين وكيان الاحتلال، كما أن تدخل إدارة بايدن هو لإدارة الصراع ليس إلا، حتى لا يخرج عن السيطرة، وحكومة اليمين الإسرائيليّة الجديدة لا تمتلك نوايا تسوية بقدر أنّها تريدُ تثبيتَ حالة الصراع مع المحيط انطلاقًا من مرجعيّة أيديولوجيّة عنصريّة، فما تحقّق من مكاسبَ في معركة سيف القدس يجب ألا يذهبَ هباءً منثورًا في كواليس الخلافات السياسيّة■

الانتفاضات الفلسطينية بين التضحيةِ والحصاد:

(انتفاضة الحجارة قبرت باتفاقيات أوسلو وانتفاضة الأقصى ذبحت بخارطةِ الطريق والهبات الشعبية أجهضت بالتنسيق الأمني)

عليان عليان – باحث وكاتب سياسي/ الأردن

المتتبّعُ لتاريخِ النضالِ الفلسطيني منذُ نكسةِ عام 7691؛ يسجّلُ ملاحظتين رئيسيتين، أوّلها: أنّ منظمةَ التّحرير لم تتمَكّنْ من تحقيقٍ أهدافِها، سوَاءً تلك الواردةُ في الميثاقِ أو الواردةُ في البرنَامجِ السياسي الذي اصطَلح علَى تسميتهِ بالمرحلي، ما دفع حكيمُ الثورةِ الدكتور جورج حبَش إلى إنشاءٍ مركز دراسات متخصّص في دمشق، للاجابة على العديدِ من الأسئلة، وعلى رأسِها سؤالٌ مركزَي: لماذاً لم تتمكّنْ منظمةُ التّحريرِ من تحقيقِ أهدافِها الوطنيّةِ في السياقينِ التكتيكيّ والاستراتيجي؟

أما الملاحظةُ الثانية: فتتمثلُ بحجم التضحياتِ التي قدمها الشعبُ الفلسطينيَ في مسيرةِ الثورةِ الفلسطينيّة، على صعيدِ الشهداءِ والأسرى، وعمليات التنكيلِ والاستيطانِ والقهر الاقتصادَي، إذَ إنّ أبسطَ الإحصاءَات، تكشف حقيقةَ أنّ الشعبَ الفلسطيني على صعيدِ التّضحيات ارتباطًا بعددِ السكّان، يتَصدّرُ المشهدَ الكفاحيّ علَى الصعيدِ العالميّ ضدَّ الصهيونيّةِ والإمبرياليّةَ، إذا أخذنا في الحسبان موضوعَ الأسرى الفلسطينيينِ كمؤشر؛ إذ دخل المعتقلاتِ الصهيونيّة منذ عام 1967 ما يزيدُ عن مليون مواطنٍ فلسطيني.

وفي إطار معالجة مخرجاتِ الانتفاضات الفلسطينيّة قياسًا بالتضحَياتِ الجسامَ التي قدمها شعبُنا من أجلَ التحرير والحريةِ والاستقلال، نكتَشفُ أنّ الإنجازاَت التي تحقّقت رغمَ أهميتها لم ترقَ لمسَتوى التضحيات، ارتباطًا بعاملٍ مركزي ألا وهو أن القيادةَ المتنفّذةً في منظمةِ التحرير لم تكن بمستوى تضحيات شَعبِنا الفلسطيني، وأنّ هذهِ التضحياَتِ لمَ يجر تثميرها، بل علىَ العكس جرى ضربُها في الصميم عبرَ التنازلاتَ في إطار مشاريع التسويةِ ذاتِ الطابع التَصفويّ للقضيةِ الفلسطينيّة.

وفي هَذه المقالة نتوقفَ بشكل رئيسي أمامِ انتَفاضتيْ الحجارةِ والأقصى، وبشكل ملخّصٍ أمامَ بقيّةِ الهبّاتِ الشعبيَّة.

انتفاضةُ الحجارة (١٩٨٧– ١٩٩٣)

شرارةُ هذه الانتَفاضة التي أدهشت العالمَ تمثّلت بقيام سائقِ شاحنة إسرائيلي بدهس مجَموعةٍ مَن العمّالً الفلسطينيّين على حاجزً إيريز (بيت حانون) في ديسمبر (كانون أول) 1987 حيث انطلقت من مخيّم جباليا في قطاع غزة، بتاريخ 9 ديسمبر 1987 لتمتدّ بعد ذلك إلى جميع المدنِ والقرى والمخيّماتِ في الضفّةِ الغربيّةِ وقطاعِ غزة.

لكنّ الأسبابَ الحقيقيّةَ للانتفاضة، تمثلت في رفض الشعب الفلسطيني للاحتلال والاستيَطان ورفَضه لإجراءاتِ ضمِّ القَدس، وللإجراءاتِ القَمعية من قتلِ وإبعادِ وزجِّ الآلاف مَن أبناء الشعب الفلَسطينيً وبناته في المعَتقلات، ولإجراءاتَ التضييقَ الاقتصادي، بعد وصولِ التَناقضِ والصراعِ مع العدو في

العودة إلى الفهرس

تلك الفترة إلى ذروته «نقطة التأزيم»، يضاف إلى ذلك أنّ الشعبَ الفلسطيني في الداخل وقواه الوطنية سعت إلى تخليص منظمة التحرير من مأزقها بعد خروج فصائلها من بيروت، إثرَ العدوان الصهيوني على لبنان عامَ 1982.

وقد شكّلت فصائل منظمة التحرير الفلسطينية قيادةً موحدةً للانتفاضة، من شخصيات وطنيّة؛ لبرمجة فعالياتها الكفاحية، من مظاهرات وإضرابات وعصيان مدني، وأيام غضب تخللها إلقاءُ الحجارة وقنابل المولوتوف على جنود العدو وقطعان المستوطنين، وتوحّد الشعبُ الفلسطيني حول نهجها وأهدافها؛ إذ انخرط فيها أبناءُ التشعب الفلسطيني من مختلف فئاته الاجتماعية، وتميّزت بشموليّتها الجغرافيّة والديمغرافيّة والطبقيّة.

وحدّدت القيادة الموحّدة أهدافاً عدّةً للانتفاضة، أبرزها: دحر الاحتلال وحق تقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينية، إلى جانب أهداف عديدة أخرى، مثل تفكيك المستوطنات، وعودة اللاجئين الفلسطينيين دون قيد أو شرط، وتقوية الاقتصاد الفلسطيني؛ تمهيداً لفك تبعيّته للاقتصاد الإسرائيلي وتحرير الأسرى الفلسطينيين.

لقد حقّقت انتفاضةُ الحجارة إنجازاتٍ هائلةً على الصعيدين الميداني والسياسي نذكر منها ما يلي:

1- ضربت هذه الانتفاضة معنويات جيش الاحتلال في الصميم، بعد أن تم جرُّهُ من قبل أطفال الانتفاضة إلى حواري المدن والقرى وأزقّتها في معارك لا تتوقف بين كرٍّ وفرّ، على مدى ست سنوات. وقد ضاق العدو ذرعاً بالانتفاضة بعد أن فشلت إجراءاتُهُ القمعيّةُ كافةً في وقفها، وأهمُّها: سياسةُ تكسير العظام التي اتبعها رئيسُ وزراء الكيان الصهيوني آنذاك «إسحق رابين» الذي أعلن إفلاسَهُ آنذاك بقوله: «فليبلع غزّة البحرُ».

2- حقّقت وحدةً ميدانيّة غيرَ مسبوقة بين أبناء الشعب الفلسطيني وفصائلهُ وقواه الاجتماعية في إطار الانتظام بفعاليات نضاليّة جرت برمجتُها من قبل القيادة الموحّدة للانتفاضة.

3- حققتَ أكبرَ عزلة دوليّة للكيان الصهيوني، وأكبرَ التفاف شعبي عربي ودولي عالمي حول أهدافها منذ نكبة 1948.

لقد كان من المقدّرِ أن تنجزَ الانتفاضةُ غيرُ المسبوقة منذ نكبة عام 1948، الأهدافَ سالفةَ الذكر، والتي سبق أن أشارَ إليها الدكتور حبش: «بأنها نقلت الحقوق الوطنية الفلسطينية من دائرة الإمكانية التاريخية إلى حيّز الإمكانية الواقعية» (1).

لكنّ هذه الانتفاضةَ لم تحقق أيًّا من الأهداف سالفة الذكر، جرّاء (أولاً) لهاث القيادة المتنفذة وراء هدف رئيسي، ألا وهو أن تقبلَ الإدارةُ الأمريكية الحوارَ معها، حيث قدمت كلَّ التنازلات المطلوبة عبرَ المبادرة السياسية وعبرَ وثيقة ستوكهولم وغيرهما، من أجل تحقيق هذا الهدف، ضاربةً عرضَ الحائطَ بتضحيات شعبنا، حيث بلغ عددُ الشهداء 1,162 شهيدًا، بينهم نحو 241 طفلاً، وأصيب خلالها نحو 90 ألف جريح، واعتقل ما يزيدُ عن 60 ألف فلسطيني، فضلاً عن نسف 1228 منزلاً، واقتلاع 140 ألف شجرة من الحقول والمزارع الفلسطينية (2).

وثانيًا: جرّاءَ توقيع هذه القيادة اتّفاقات أوسلو 1993 التي وضعت حدًّا للانتفاضة وشكلت عنوانًا رئيسيًّا؛ لتصفيّة القضيّة الفلسطينيّة.

المبادرةُ السياسيُّة الفلسطينيّة – التفافٌ على الانتفاضة وأهدافها

ماذا حصل قبل إقرار المبادَرة السياسية المنبثقة عن دورة المجلس الوطني رقم (19) في تشرين الثاني (نوفمبر) 1988؟ ماذا حصل بعد إقرار المبادرة السياسية في الدورة نفسها التي استندتَ في الجوهر إلى الاعتراف بالقرار 242 مضافًا إليه عبارة تقرير المصير، وتحفّظ الجبهة الشعبيّة على هذا القرار.

عشيّةَ انعقاد الدورة (19) للمجلس الوطني الفلسطيني في نهاية شهر سبتمبر (أيلول) 1988، طلب رئيسُ اللجنة التنفيذية ياسر عرفات استشارةَ من عدد من المفكرين الفلسطينيين والعرب وهم محمد حسنين هيكل وإدوارد سعيد وأحمد بهاء الدين الذين التقوا في جنيف، وأوصوا بما يلي (3):

1- كان المطلوبُ من منظمة التحرير، الآن – وهو صحيح – أن تتعاملَ مباشرةً وعلانيّة مع إسرائيل، على أساس الاعتراف بها، فإن الأساسَ الذي يمكن اعتمادُهُ هو قرارُ التقسيم الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، تحت رقم 181، والخاص بإقامة دولتين في فلسطين: دولةٍ يهودية ودولةٍ عربيّة...

وهكذا فإن الاعترافَ المطلوبَ من المنظمة بإسرائيل الآن، يستحسن أن يجريَ تحت مظلة قرارِ التقسيم قبل أيّ مبدإٍ دوليٍّ آخرَ.

2- إنّ مطالبة المنظمة بالاعتراف بالقرار (242) تزيد غير مطلوب، فهذا القرارُ لا يشير إلى قضيّة فلسطين، أو حقوق الشعب الفلسطيني؛ لأنه صدر بعد حربَ 1967 لإزالة آثار العدوان على دول عربيّة بذاتها هي مصر وسورية والأردن.

3- وترتيبًا على الاعتراف بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 181، لسنة 1947، فإنّ منظمة التحرير يمكن لها إعلانُ دولة فلسطينيّة مستقلّة، تعترف بها الدول العربية كما تعترف بها بعضُ الدول الصديقة، وتكون هذه الدولة هي التي تتولى بنفسها وبصفتها مسؤوليّة التفاوض، من أجل حلٍ نهائيٍّ للقضية الفلسطينية.

وقد حمل هؤلاء – المفكرون – هذه الاقتراحات إلى رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة «ياسر عرفات» الذي تباحث معهم بشأنها، قبل أن يكشف عن موقفه من ضرورة الاعتراف بالقرار 242، وطلب منهم أن يقنعوا الدكتور جورج حبش بالمقترحات المطروحة، وبهذا الصدد يقول الكاتب والمفكر محمد حسنين هيكل: «وقبل عقد الاجتماع العام للقيادة الفلسطينية لوضعها في صورة هذه الاقتراحات، طلب عدد من قادة «فتح» إلى «بهاء» و «هيكل» أن يساعدا بكل استطاعتهما على تليين موقف «الدكتور جورج حبش»... وكان ظن قادة «فتح» أنه إذا مشى «الحكيم» (وهو اللقب الذي كان ينادى به جورج حبش) معهم على الخط الجديد، فلن يكون في مقدور أحد أن يزايد عليهم؛ لأنّ «الحكيم» معروفٌ بصلابته، وهو الوحيدُ خارج «فتح» الذي يملك نصيبًا لا يستهان به من الشرعية والاحترام العام بين الفصائل ووسط الجماهير».

وبهذا الصدد يقول هيكل بشأن لقائه مع الدكتور جورج حبش (4): «وفي لقاء مع الدكتور جورج حبش كان «الحكيم» مهمومًا بما يجري في الاتحاد السوفياتي، والتغييرات المخيفة التي تحدث فيه تحت حكم «جورباتشوف»، وكان رأي «الحكيم» أنّ ضعفَ هيبة الاتّحاد السوفياتي سوف يكشف كلَّ الحركات الثوريّة في العالم، ثمّ، فإن «الحكيم» بتحليلاته الخاصة كان على استعداد لأن يكونَ أكثرَ مرونة في

الحركة، طالما أن الثوابت الفلسطينية - على حد تعبيره - قائمة».
وقد كشفت وثائق وزارة الخارجيّة الأمريكيّة، وكذلك مذكرات «جورج شولتز» - وزير الخارجية الأمريكية آنذاك - بأن «ياسر عرفات» كان طوال شهر سبتمبر (أيلول) 1988م على اتّصال بالإدارة الأمريكيّة، عن طريق «وليام كوانت» الذي عمل مستشارًا في مجلس الأمن القومي، وأبدى استعدادَه للموافقة على الشروط الأمريكية الثلاثة كافةً، وهي الاعترافُ بالقرار 242، ونبذُ الإرهاب والاعترافُ بحقّ إسرائيل بالوجود، كل ذلك مقابل أن تقبل الإدارة الأمريكيّة بالحوار مع منظمة التحرير وليس مقابل الحصول على دولة فلسطينية.
وبعد تمرير المبادرة السياسية الفلسطينية في الدورة (19) للمجلس الوطني الفلسطيني، التقى وفدٌ من منظمة التحرير في ستوكهولم برئاسة خالد الحسن، بوساطة وزير خارجية السويد «ستيف أندرسون» مع وفد من كبار القيادات الصهيونية في تشرين الثاني (نوفمبر) 1988، جرى الاتفاق على نصٍّ مشترك لخطاب عرفات المرتقب في الجمعية العامة للأمم المتحدة يتضمّن ما يلي: «الدعوة لعقد مؤتمر دولي، وأن المجلس الوطني الفلسطيني يقبل بوجود إسرائيل بما هي دولة في المنطقة، ويرفض الإرهاب ويندد به في جميع أشكاله» (5).
ليتلوه بعد ذلك لقاءٌ عرفات مع الوفد ذاته، أكّد خلاله الموافقةَ على الشروط الأمريكية كافةً من جديد، وهي: أن قيادة المنظمة على استعداد للتفاوض مع إسرائيل، في إطار مؤتمرٍ دولي لتسوية شاملة للصراع العربي - الإسرائيلي، على أساس قراري الأمم المتحدة 242 و338 إنها تتعهد أن تعيشَ في سلام مع إسرائيل ومع كل جيرانها، وأنّ تحترمَ حقّهم في العيش بسلام ضمنَ حدود آمنة معترف بها/ إنها تدين أعمال العنف الفردي والجماعي وإرهاب الدولة في كل صورها ولن تلجأ إلى شيء من ذلك (6).
وبعد ذلك ألقى خطابه في جنيف في 13 ديسمبر (كانون أول) 1988، مستعرضًا المبادرةَ الفلسطينيّة، وعقد مؤتمرًا صحفيًّا بعد ذلك بناءً على طلب الخارجية الأمريكية لتظهير التنازلات الفلسطينية، ليسافر بعدها إلى باريس ويلتقي الرئيسَ الفرنسي ميتران معلنًا إلغاءَ الميثاق الوطني مستخدمًا المفردة الفرنسية (كادوك).
وقد أغرت هذه التنازلاتُ الفلسطينية كلًّا من شامير ومبارك؛ ليطرحا مبادرتين تتجاهلا منظمة التحرير الفلسطينية، وتطرحا الحكم الذاتي كسقف لحلّ القضية الفلسطينية، ولتتلوهما مبادرةُ وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر التي أكدت هي الأخرى على سقف الحكم الذاتي وتجاهل منظمة التحرير.

انتفاضةُ الأقصى (٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠- ٢٠٠٥)

حصلت هذه الانتفاضةُ إثرَ قيام شارون مع عددٍ من حرّاسه باقتحام المسجد الأقصى والتجول في ساحاته، معلنًا أنّ الحرمَ القدسي سيبقى منطقة إسرائيلية، مما أثار استفزاز المصلين الفلسطينيين، فاندلعت المواجهاتُ بين المصليين وجنود الاحتلال في ساحات المسجد الأقصى فسقط 7 شهداء وجُرح 250 وأُصيب 13 جندي إسرائيلي وكانت هذه بداية أعمال الانتفاضة.
وجاءت عمليةُ اقتحام المسجد الأقصى، بعد فشل مفاوضات كامب ديفيد بين عرفات ورئيس الوزراء الصهيوني آنذاك يهودا باراك، التي طرح فيها تقسيم الأقصى بين الكيان الصهيوني والسلطة الفلسطينية، بحيث يكون للكيان الصهيوني السيادة تحت الأرض وللسلطة السيادة فوق الأرض، الأمر الذي رفضه أبو عمار.
وإذا كان اقتحام شارون للمسجد الأقصى قد شكّل شرارة الانتفاضة، فإن سببَها الجوهري يعود إلى سخط الشارع الفلسطيني على اتفاقيات أوسلو، وتوظيفها من قبل العدو لتصفية الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، بعد أنْ مضى عامَ 1999 دون الإعلان عن الدولة الفلسطينية، وبعد أن أصبحت قضايا الحل النهائي (اللاجئين والقدس والمستوطنات وغيرها) التي لم يتمّ إسنادُها بقرارات الشرعية الدولية ذات الصلة، وراءَ ظهرِ الكيان الصهيوني.
لقد حققت انتفاضة الأقصى إنجازات هائلةً بجمعها بين الشكل الجماهيري للمقاومة، والمقاومة المسلحة، مع ضرورة الإشارة هنا إلى أن العدو الإسرائيلي هو من استخدم النارَ بشكل مفرط ضدّ الجماهير الفلسطينية، ما دفع المقاومة لاستخدام السلاح لحماية الجماهير المنتفضة... وأبرز إنجازاتها:
1- حققت أكبرَ عزلة للكيان الصهيوني على الصعيد الدولي منذ قيامه عام 1948، وحصول أوسع تضامن شعبي عالمي مع القضية الفلسطينية ومع الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني.
2- حقّقت أكبرَ التفاف شعبي عربي حول القضية الفلسطينية، باعتبارها القضية المركزية للأمة العربية، من خلال كمٍّ مهولٍ من المظاهرات في مختلف العواصم والمدن العربية لدرجة أنّ دولًا لم تعرف المظاهرات في تاريخها مثل دول الخليج خرجت فيها مظاهراتٌ داعمة لانتفاضة الأقصى، وهو ما أحرج الأنظمة العربية التي عقدت بعد ما يقرب من شهر على اندلاع الانتفاضة القمة العربية الطارئة في القاهرة، وخرجت ببيان لم تصل فيه إلى مستوى آمال الشارع العربي، وإن كان فيه دعم وإعطاء صبغة شرعية أعمق لانتفاضة الأقصى.
3- حققت أكبر التفاف شعبي في الدول الإسلامية حول القضية الفلسطينية، إذ عمت عواصمَ هذه الدول مظاهراتٌ صاخبة داعمة لانتفاضة الأقصى وأهدافها، ما أحرج حكام هذه الدول ودفعها لعقد مؤتمر الدوحة الإسلامي، والخروج ببيان داعم نسبياً للانتفاضة وأهدافها، ومنتقداً موقف الإدارة الأمريكية المتسامح مع القمع الإسرائيلي.
4- نجحت في خلق توازن نسبي للردع وجر العدو إلى ما جرى الاصطلاح عليه «بالتوتر المنخفض»، حيث قُتل خلال سنواتها الخمس 1069 جنديًّا إسرائيليًّا ومستوطنًا وأصيب 4500 آخرين، في حين ارتقى خلالها 4412 شهيداً وأصيب أكثر من 50 ألف مواطن فلسطيني.
5- نزوحٌ مهولٌ للمستوطنين من الضفة الغربية والقدس للمناطق الأكثر أمنًا في مدن الساحل.
6- هجرةٌ مضادةٌ لليهود من الكيان الصهيوني إلى الخارج، وتوقف الهجرة اليهودية بشكل شبه كامل من الخارج إلى (إسرائيل).
7-انعدامُ الأمن في الشارع الإسرائيلي بسبب تصاعد العمليات الاستشهاديّة وتحطيم مقولة الجيش الذي لا يُقهر في معركة مخيم جنين، الذي قتل فيها 58 جندي إسرائيلي وجرح 142 وقتل فيها قائد وحدة الهبوط المظلي الإسرائيلي (الكوماندوز)، والعملية العسكرية الأولى

العودة إلى الفهرس

من نوعها في تاريخ الصراع مع العدو الصهيوني، والتي تمثلت باغتيال وزير السياحة الإسرائيلي (رحبعام زئيفي) من قبل فدائيين من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ردًا على اغتيال الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين «أبو علي مصطفى».

8- إلحاق خسائر اقتصادية كبيرة بالكيان الصهيوني، خاصة في قطاع السياحة وضرب اقتصاد المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية.

9- طرح على قيادات الكيان الصهيوني بمختلف مستوياته ووسائل إعلامه ولأول مرة «سؤال شرعية الوجود» (7).

خطة خارطة الطريق تجهض انتفاضة الأقصى

هذه الانتفاضة بإنجازاتها ومفاعيلها، لم تحقق الهدف المركزي منها ممثلًا بدحر الاحتلال، وإلغاء الاستيطان، وإفشال تهويد القدس، إذ جرى التآمر عليها وإجهاضها (أولا) بخطة خارطة الطريق 2002 وبتفاهمات ميتشيل – تينيت مع قيادة السلطة الفلسطينية عام 2003، إذ أنه بموجب خطة الطريق، تعهدت قيادة السلطة بوقف العنف مقابل أن يتوقف العدو الصهيوني عن بناء المستوطنات في إطار خطة تقود إلى قيام دولة فلسطينية عام 2005 (8).

ثانيًا: وبتوقيع رئيس السلطة الفلسطينية في فبراير 2005 اتفاق الهدنة في قمة شرم الشيخ مع رئيس وزراء الكيان الصهيوني أرئيل شارون، والذي على إثره عملت أجهزة الأمن على وقف الانتفاضة بشكليها: الجماهيري والمسلح.

لقد التزمت السلطة منذ تلك الفترة بوقف المقاومة وتجريد الفصائل من السلاح، واللجوء إلى التنسيق الأمني مع الاحتلال، في حين لم يلتزم العدو بوقف الاستيطان، ولم تقف الأمور عند هذا الحد، إذ أنه في ضوء تفاهمات تينيت- مدير المخابرات الأمريكي- وجورج ميتشيل - عضو مجلس الشيوخ الأمريكي- مع السلطة تم إعادة هيكلة الأجهزة الأمنية الفلسطينية من قبل الجنرال الأمريكي «كيت دايتون» وفق عقيدة جديدة تخدم أمن الاحتلال وليس أمن الشعب الفلسطيني، حيث تم تشكيل كتائب قمع متخصصة جرى تدريبها في أريحا وفي الأردن من قبل مدربين أمريكيين

الهبّات الشعبيّة الفلسطينية

ورغم إعلان رئيس السلطة الواضح والصريح «بأنه لن يسمح باندلاع انتفاضة جديدة وأن التنسيق الأمني مقدس» لم يتوقف الشعب الفلسطيني عن مفاجأة العدو والسلطة معًا بهبّات جماهيريّة جديدة على النحو التالي:

1- هبة الدعس (الدهس) والسكاكين في تشرين أول عام 2015 التي عملت قيادة السلطة على إجهاضها، وفي الذاكرة قيام الأجهزة الأمنية بالتصدي لعمليات المقاومة والتفتيش في حقائب الطلبة لمصادرة السكاكين، وإعلان مدير مخابرات السلطة الفلسطينية آنذاك عن تمكّن جهازه من إفشال ما يزيد عن 200 عملية فدائية قبل وقوعها (9).

2- هبة القدس عام 2017 التي تمكن أبناء شعبنا في القدس وعموم فلسطين من إفشال البوابات الإلكترونية، وكاميرات المراقبة عند مداخل المسجد الأقصى التي كانت تستهدف في المحصّلة السيطرة على الحرم القدسي.

3- هبّة باب الرحمة المقدسية في فبراير (شباط) 2019 رفضًا لإغلاق باب الرحمة من قبل قوات الاحتلال، الذي تمكّن المنتفضون بتاريخ 22-2-2019 من فتحه لأوّل مرّة وأداء الصلاة فيه منذ أن أغلقته سلطات الاحتلال عام 2003.

لكن هذه الهبات لم يجر تطويرها، جرّاء إجهاض السلطة لبعضها عبر نهج التنسيق الأمني، فضلًا أن قيادات فصائل المقاومة لم تقم بما هو مطلوب لتطويرها، وتهيئة المستلزمات الضرورية لتحويلها إلى انتفاضات شاملة.

هبّة القدس الرمضانيّة ومعركة سيف القدس التاريخية

وأخيرًا وليس آخرًا، جاءت هبة القدس الرمضانية منذ مطلع مايو (أيار) 2021 التي شارك فيها بشكل نوعي أبناء شعبنا في مناطق عام 1948، ردًا على خطط تهجير الفلسطينيين من حي الشيخ جراح ومن سلوان، وردًا على مسيرة الأعلام الصهيونية، والتي جرى إسنادها بمعركة سيف القدس التاريخية؛ لتخلق واقعًا جديدًا جرّاء هزيمة الكيان الصهيون أمنيًا وعسكريًا وسياسيًا وإعلاميًا.

وهبّة القدس مقترنة بمعركة سيف القدس، تعاملت معها قيادة السلطة من منظور مختلف، إذ أنها بدلًا من أن تبني على مخرجاتهما لصالح المشروع الوطني الفلسطيني، راحت تعيد الاعتبار لخيار المفاوضات الأوسلوي البائس بدعم من الإدارة الأمريكية، ومن الرجعيات العربية، ولم تكتف بذلك بل دخلت في منافسة مع سلطات الاحتلال في اعتقال فعاليات الهبة الشعبية والزج بها في المعتقلات، ووصلت الأمور بأجهزتها الأمنية لأن تفتك بالمتظاهرين من رجال ونساء قمعًا وسحلًا بالشوارع، الذين تظاهروا ولا يزالون يتظاهرون احتجاجًا على جريمة اغتيال الناشط الوطني المعارض نزار بنات بطريقة بشعة وغير مسبوقة ■

المصادر:

1- عليان عليان: دراسة بعنوان تطورات الانتفاضة وآفاقها، جريدة صوت الشعب الأردنية، 8 تموز (يوليو) 1990.

2- إحصائيات الانتفاضة الفلسطينية الأولى (بتسلم) نسخة محفوظة 4 يونيو 2011 على موقع واي باك مشين/الأسرى للدراسات: في ذكرى انتفاضة الحجارة، مركز الأخبار أمان -نسخة محفوظة 12 نوفمبر 2017 على موقع واي باك مشين (ويكيبيديا).

3- محمد حسنين هيكل: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل (سلام الأوهام) أوسلو ما قبلها وما بعدها، دار الشروق، القاهرة، ط 9، 2010، ص 209-210.

4- هيكل: مصدر سابق، ص 210.

5- . جريدة السفير اللبنانية: 22- 12- 1988، ص 12.

6- هيكل: مصدر سابق، ص 211.

7- كلمة الكاتب والباحث عليان عليان في «مهرجان الوفاء لفلسطين من النهر إلى البحر وعاصمتها القدس» في جمعية مناهضة الصهيونية والعنصرية» بتاريخ 6-1-2018.

8- انظر خطة خارطة الطريق الصادرة عن اللجنة الرباعية الدولية عام 2002 -مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، 7 مايو 2003.

9- محاضرة الكاتب والباحث عليان عليان في الذكرى (15) لاستشهاد أبو علي مصطفى وبمناسبة دخول الانتفاضة الثالثة شهرها الثاني عشر (2016) في قاعة الرشيد بمجمع النقابات المهنية/ انتفاضة السكاكين **Euronews** 27-10-2017

نقاش حول النظامِ السياسيّ الفلسطينيّ

حسن شاهين- باحثٌ وكاتبٌ فلسطينيٌّ/ مصر

على مدار العشرين سنةً الماضية، ظلّ موضوعُ «النظام السياسي الفلسطيني» أساسًا في النقاش السياسيّ الفلسطيني، وجزءًا من مبادرات سياسيّةٍ ومشاريعَ تدعو إلى إصلاحَ أو تجديدٍ أو حتّى تغيير. وكل ذلك منطلِقٌ من مسلمة أن هناك نظامًا سياسيًّا فلسطينيًّا شاملًا للشعبِ الفلسطيني، وهذه مسلّمةٌ ستحاول السّطورُ القادمة فحصَها.

عادةً ما يلتبس مفهومُ النظام السياسي عند عامة الناس، وحتى لدى كثيرٍ من السياسيّين والمثقّفين، فينظرونَ له كتعبيرٍ عن المؤسساتِ الحكوميّةِ وغيرِ الحكوميّةِ في المجتمعِ. في الواقعِ إنّ مفهومَ النّظامِ السياسيّ أوسعُ وأكثرُ تعقيدًا من ذلك، ولا يمكن اختزالُهُ بتشكيلاتٍ وهياكلَ مؤسّساتيّة، فهو يعبّرُ عنَ علاقاتِ التفاعلِ والتأثيرِ متعدّدةِ الاتجاهاتِ، في ما بينَ المؤسساتِ والأفرادِ السياسيّين. فبحسب المدخل الاتّصاليّ لـ"كارل دويتش": النّظامُ السياسيّ هو نظامٌ اتّصالي ينظم سلوكَ الأفرادِ الذين يعتبرون الوحدةَ السياسيّةَ هي الأولى في المجتمع، بينما نظر "ماكس فيبر" للنّظامِ السياسيّ إلى أنّه احتكارُ ممارسةِ القوّةِ الشرعيّةِ، وذهب "روبرت أ. دال" إلى أنَ النظامَ السياسيّ هو علاقاتُ النفوذِ والقوّةِ والتحكّمِ الفاعلة في مجتمعٍ ما، وكذلكَ بينَ المجتمعاتِ على الصّعيدِ الدولي، بَدْءًا من الأسرةِ التي عدَّها أصغرَ نظامٍ سياسيّ وصولًا إلى النّظامِ الدوليّ القائمِ. وليكونَ الفردُ أو الجماعةُ جزءًا من نظامٍ سياسيّ معيّنٍ لا بدّ أن يتأثّرَ ويشاركَ في علاقاتِ النّفوذِ والتحكّمِ والقوّةِ لهذا النّظامِ، ولا يكفي أن تربطَهُ صلةُ دمٍ أو هُويّةٌ أو جنسيّةٌ بأفرادِ النّظامِ.

وَفْقَ محاولةِ التأصيلِ السريعة أعلاه لمفهومِ النّظامِ السياسي، نجد بوضوحٍ أن تأثّرَ الأفراد بعلاقات النفوذ والتحكّم والقوّة نفسها شرطٌ أساسيٌّ لاعتبارهمَ جزءًا من النّظام أو المنظومة السياسيّة الواحدة، وإن اعتبرنا ذلك شرطًا معياريًّا في رسم حدود النّظام السياسيّ، نستطيعُ أن نتبيّنَ حقيقةَ الحالة السياسيّة الفلسطينيّة، وهل هناك نظامٌ سياسيٌّ فلسطينيٌّ شامل، يؤثر ويتأثر به معظمُ أفراد الشعب الفلسطيني داخل فلسطين وخارجَها أم لا؟

قد يتساءل البعضُ ما أهميةُ مثل هذا النقاش النظريّ؟ وما جدوى النظرِ في النّظامَ أو النظم السياسيّة الفلسطينيّة والبحث فيما إذا كان الأفرادُ والتجمّعاتُ الفلسطينيّة يربطها نظامٌ سياسيٌّ واحد؟ ماذا يفيد مثل هذا البحثِ في إحداث أيّ تغيير؟

في الواقع، يمكن فهمُ النفور من النقاش النظريّ من قبل المتحمّسين للعمل، وأولئك الذين ضاقوا ذرعًا بالسياسة والكلام السياسي، ويرون أنه لا يؤخر ولا يقدم، لكنّ النقاش النظري مهمٌّ جدًا لفهم حقيقة الموقف الذي نواجهه، ومراقبة حركة المعطيات المؤثرة بالبيئة حولَنا، واختبار أدواتنا وصلاحيّتها. فلا بدّ قبل الشروع بالعمل أن نعرف الأرضَ التي نقف عليها، هل هي صلبةٌ يمكن الانطلاقُ منها لتحقيق الأهداف، أم رخوةٌ آيلةٌ للانهيار في أي لحظة؟ كذلك بالنسبة للأهداف، هل هي قابلةٌ للتحقيق أم لا؟ وفي كلتا الحالتين يجب البحثُ عن إجابةٍ لسؤال ما العمل؟ أيضًا تمحيصُ الخطابِ السياسي، هل هو واقعيٌّ مرتبطٌ بمهامِ عمل محدّدة وواضحة، يعرضها للجمهورَ ويحثّه على الانخراط بها ودعمها؟ أم هو بروباغندا، أو خطابٌ شعبويٌّ لتخدير الناس وتضليلِهم، أو مجردُ خطابِ أمنيات؟

على كلّ حال، إنّ تهميشَ النقاش النظريّ في السياسة الفلسطينية؛ يعكس سيطرةَ الراهن على فعل كياناتها، وغيابَ الماضي والمستقبل عن عقلها، ما يعني غياب التفكير العلمي والفكر السياسي.

بعد هذا الاستطراد حولَ أهميّة النقاش النظري نعود إلى الفكرة الأساس؛ هل هناك نظامٌ سياسيٌّ فلسطينيٌّ يتّصل بالشعب الفلسطينيّ كلِّه اليوم؟ وإن وجد، فما طبيعتُه؟ وما أهمية تعريفه؟

إنّ الواقعَ الذي فرضته النكبةُ على الشعب الفلسطيني، جعل وجودَ نظام سياسيٍّ بالمعنى المتعارف عليه أمرًا غيرَ ممكن، إلا أنّ وجودَ منظمة التحرير، وانطلاقَ فصائلِ العمل الوطني الفلسطيني ونشاطَها في كلّ أماكنِ وجود الشعب الفلسطيني؛ شكّل حالةً أشبهَ بالنّظام السياسي، أو شبهَ نظام سياسيٍّ إن صحّ التعبير، تفاعل معها قسمٌ كبيرٌ من الشعب الفلسطيني رغمَ خضوعه لنظمٍ سياسيةٍ مختلفةٍ في الوقت ذاته، داخلَ فلسطينَ المحتلّة، وفي بلدان اللجوء. هذه الحالة كانت الشكلَ الأرقى من بين أشكال مقاومة الشعب الفلسطيني لعملية نفيه التي أطلقتها النكبة؛ لأنّها عبّرت عن مستوًى متطوّر من التنظيم السياسي، والتعبئة الشعبيّة الماديّة والمعنويّة، الطوعيّة في معظمِ الأحيان.

لا شكّ أنّ مسارَ أوسلو وما أفضى إليه قوّض تلك الحالةَ لما يشبه نظامًا سياسيًّا فلسطينيًّا شاملًا، مع إفراغِ منظمة التحرير من مضمونها، وتركّز عملِ جميع الفصائل المؤثرة في الداخل الفلسطينيّ المحتلّ عامَ 67، فأصبح النّظامُ السياسيّ الفلسطيني مصطلحًا يعني الحالة في

الضفة وغزة حصرًا.

المشكلة تكمن في أنّ القيادةَ المهيمنةَ على المنظمة، الحالية والسابقة، كذلك منافستها الأبرز و"شريكتها" في الانقسام، حركة حماس؛ لا تريان في هذا الوضع مشكلةً، فقد عزّزتاه على مرِّ السنين بالممارسة العمليّة السياسيّة. وحتى توافقهما نظريًّا على تفعيل منظمة التحرير ودخول حماس إليها، كان هروبًا من مهمّة توحيد النظام السياسي في غزّة والضفة إلى مظلّة خارجيّة، صلاحياتها محدودةٌ وتأثيرُها ضعيفٌ، تُظهر شكليًّا أنْ هناك وحدةً للمؤسسة الفلسطينية، بالضبط كالدور الذي كان يفترض أن يلعبه المجلسُ التشريعي للسلطة الفلسطينية لو جرت الانتخابات.

عودةً للنقطة المحورية، من السهل إطلاقُ خطابٍ أماني، يتحدث عن ضرورة إصلاح النظام السياسي الفلسطيني أو تغييره أو تجديده، لكنّ المطلوبَ من القوى والمجموعات والأفراد الذين ما زالوا متمسّكينَ بقضيّة فلسطين، كما هي، أن يصارحوا الجمهورَ الفلسطينيَّ بالحقيقة؛ لا وجودَ لنظام سياسيٍّ فلسطينيٍّ شامل للشعب الفلسطيني اليوم، هناك فقط نظامٌ مأزومٌ وممزّقٌ لجزء من الشعب في غزة والضفة، والطرفان اللذان يتقاسمان مؤسساته الرسميّة، يستخدمان مسألة إعادة ترتيب منظمة التحرير للتغطية على عدم جديتهما في إنهاء الانقسام. حتى لو نُفّذت مقررات الحوار الوطني الخاصة بالمنظمة فلن تعود هذه الأخيرة -في ظلّ توافق فتح وحماس أو تنافرهما- وطنًا معنويًّا للشعب الفلسطيني، وعمودًا للنظام السياسيّ الفلسطينيّ الشامل.

هذه المصارحةُ والمكاشفةُ التي يجب أن يقوم بها هؤلاء الذين يرفضون المصيرَ الذي تقود فتح وحماس القضيةَ الفلسطينية إليه، بتشجيع وتمويل من النظام الدولي، مباشرةً أو عبرَ أدواته في المنطقة، تستدعي منهم أن يبادروا إلى تشكيل تحالف ديموقراطي وطنيٍّ واسع، يمكن أن يُحدث تغييرًا ملموسًا في الموازين، ويضغط لإعادة الاعتبار لمنظمة التحرير كمؤسسة صاحبة دور وفعل وتمثيل حقيقي، وربما يمكن أن يشكّل نواةً لمشروع نظام بديل، إن تعذّر إنقاذ المنظمة، وهذه مناقشة أخرى■

خطاب الاستسلام: فشلنا وهزمنا وسنستمر

خاص «الهدف»

وصلات المديح التي يكيلها مسؤول فلسطيني لمواقف جو بايدن، كما استعداده للانخراط في مفاوضات مع العدو الصهيوني، في ذات الحوار الذي يؤكد فيه أن لا سلطة لسلطته، هو تعبير آخر عن طبيعة المسار السياسي المطروح للفلسطينيين من قبل هؤلاء الموجودين دون تفويض أو انتخاب أو اختيار من الشعب الفلسطيني في موضع من يتحدث باسمه، بل ويحدد مسارات السياسة الفلسطينية.

التوجه للتفاوض مع العدو الصهيوني بعد عشرات التصريحات حول إخفاق المفاوضات في تحقيق شيء للفلسطينيين ودورها في هدر حقوقهم، يعني القول لشعب فلسطين بأن الطريق المطروح هو مواصلة استلاب حقوقه وتقديم غطاء فلسطيني رسمي للاعتداءات والجرائم المستمرة ضده، وإذ تفضح هذه التصريحات المتتابعة من هذا الفريق السياسي والأمني شيء، فإنها تؤكد استعداده للدفاع المستميت عن منظومة مصالحه واستمراره في الإمساك بخناق المؤسسات الفلسطينية ومصادرة قرارها، وتثبيت هذا الوضع من خلال القمع الأمني الوحشي، وخدمة التنسيق الأمني مع الاحتلال.

واهم من يظن أن شعب فلسطين قدم تضحياته عبر مسيرة النضال الطويل ليصل إلى هذا الوضع، أو أنه سيستكين و يستسلم أمام القمع، فما تظهره الجماهير الفلسطينية في نضالها اليومي ضد الاحتلال على امتداد الأرض الفلسطينية، يؤكد أن هذا الشعب ليس في مرحلة أفول نضالي، تمكن هؤلاء من تصفية القضية والحقوق، واكتساب مصالحهم على حساب عموم الفلسطينيين، وإنما في مرحلة نهوض نضالي، وتصاعد ملموس واتساع لنماذجه النضالية الناجحة، يحتاج بالتأكيد وينقصه الكثير على مستوى الترجمة والتعبير السياسي، ولكنه أبدًا ليس على خط الاستسلام أو المهادنة مع عدوه.

إن استعادة سلطة شعب فلسطين على سياسته وساسته وقراره الوطني، لا يمكن فصلها أولًا عن توطين الفعل السياسي وإخراجه من حيز الخضوع والارتهان للعدو والأطراف الخارجية المهيمنة، وكذلك وبنفس الدرجة من الأهمية بناء التمثيل الوطني الفلسطيني في مختلف المؤسسات الوطنية وفي مقدمتها منظمة التحرير الفلسطينية، من خلال الانتخابات التي شكل تعطيلها تعبير إضافي عن حالة التفرد والهيمنة القسرية على مصير الفلسطينيين. إن باب استعادة الوحدة الوطنية الفلسطينية مفتوح، حافظت عليه التضحيات المشتركة لأبناء شعبنا في ميادين المواجهة، فيما تصر على اغلاقه هذه الشريحة المتغولة على شعبنا ومؤسساته وحقوقه، وهو ما يخدم العدو وهجمته المتصاعدة على شعبنا.

لقد بلور الشعب الفلسطيني بالفعل الاستراتيجية الوطنية لمواجهة الاحتلال، والبرنامج الوطني المشترك؛ خلال معركته الأخيرة وعبر جولات المواجهة المستمرة مع الاحتلال، ولكن واجب القوى السياسية ودورها هو التقاطها والتعبير عنها، ونسجها كبرنامج سياسي للفعل الوطني الفلسطيني التحرري، الذي يجب أن تكرس كامل طاقات المؤسسات الفلسطينية لدعمه وخدمته■

بيتا: عن سؤال الجدوى

خاص «الهدف»

لم يخل المجتمع الدولي نقطة استيطانيّة في أرض فلسطين أو يزيح الاستيطان عن متر مربع، رغم ذلك لا زالت كثرة من النخب الفلسطينيّة تراهن على موقف المجتمع الدولي، وتحاول إخضاع النضال الفلسطيني لمعايير ترضي القوى الدوليّة على أمل أن يتكفّل ذلك بإقناع هذه القوى باتخاذ موقفٍ مؤيّدٍ للقضية الفلسطينيّة.

لا تجهل القوى الدوليّة شيء عن فلسطين وأهلها، حتى نفترض أنّها بحاجة لمزيد من الايضاح حول أحقيّة الفلسطينيين في الحياة، ولكن هذه القوى هي من دعمت إنشاء المشروع الصهيوني وسلّحته وموّلته لما يزيد عن قرن، ولا داعي لضخ مزيد من الأوهام المشينة لهذه النخب، لاعتبارات أساسيّة أبرزها أنّ هذا الشعب يدرك حقّا ما ينفعه، وغالبًا ما يحاول ممارسته، فيما تقاطعه هذه المداخلات على نحو غالبًا وقح.

مناورة العدو الانسحابيّة أمام المقاومة الشعبيّة في قرية بيتا وجبل صبيح، رغم أنّ حقيقتها لا تعني الانسحاب النهائي من البؤرة الاستيطانيّة، تؤكّد أنّ علينا فهم حقيقتنا وحقيقة عدونا بشكلٍ أفضل.

لا ينقص شعب فلسطين مزيد من الحق، أو مزيد من القوة، ولكن تشغيل قوته وتنظيم قواه وفعله في المواجهة مع الاحتلال، ففي كل مواجهة يتحقّق فيها استكمال لهذه العوامل ولو جزئيًا وفي بؤرة صغيرة، يتحقق إنجاز لافت ويسجل شعبنا نقطة تقدّم على العدو، بل واللافت أنّ العدو بات يسارع للقيام بالانسحاب ولو مؤقتا في العديد من المواجهات التي تتوفّر فيها هذه العوامل للفلسطينيين، أي أنّه كلما اتضح وجود فعل فلسطيني منظم مؤمن بقوته ويحظى بمحيط داعم سارع العدو لتجنب المواجهة المباشرة، والبحث عن معالجات تفكك هذه الحالة بدلا من مواجهتها.

لعل ما سبق يتعلّق بالأمل، والرهان على القوة الذاتيّة، ولكن الجانب السلبي والمخيف من هذه الصورة، أن مساعي العدو لتفكيك الحالات الفلسطينيّة الناجحة والفاعلة كثيرًا والتي سجلت نجاحات، إمّا من خلال استخدام العدو لأدوات فلسطينيّة وعربيّة، أو بفعل طبيعة الحالة السياسيّة الفلسطينيّة وعجزها المقيم وفشلها المتراكم.

لا يمكن لأي عاقل أن يتخيّل أنّ شعبًا يقدّم مثل هذه التضحيات ويعجز العدو أمامه في الكثير من مواطن المواجهة، يعجز عن إنتاج حالة سياسيّة أفضل من تلك القائمة، تمكنه من استعادة سيطرته على مؤسّساته الوطنيّة وقراره الوطني■

أداة الحصار والقتل: آلية الإعمار

خاص «الهدف»

القرار الأخير لوزير جيش العدو بشأن منظومة حصار قطاع غزة، والذي قدمه إعلام العدو باعتباره تطوير لـ«آلية الاعمار»، لا يشكل استثناءً في سياق سياسات جيشه وحكومته تجاه غزة، ولكن تمثيل لهذه السياسات؛ أدوات قتل متعددة المسميات والأشكال.

فمنذ عدوان العام 2014 جاء تصميم «آلية سيري» كأداة لتحويل عملية اعمار قطاع غزة لاستثمار في الدمار الذي أحدثه العدوان العسكري المباشر؛ فالهيمنة والرقابة التي فرضتها آلية سيري بتواطؤ من الأسرة الدولية؛ سمحت للعدو بابتزاز القطاع وأهله باحتياجاتهم الإنسانية، وشكلت منظومة لإدامة تشرد وعذابات آلاف من الفلسطينيين، واستنزاف اقتصاد القطاع وتشديد الحصار على أهله. لا اختلاف في سياسة العدو ومن يغطيه دوليًا، ولكن ما يفترض أن يختلف هو الموقف والسلوك الفلسطيني والعربي، حيث خرجت فلسطين وشعبها من معركة وجهت فيها ضربات موجعة للعدو، وقدمت فيها الكثير من المؤشرات الواضحة عن قدرة هذا الشعب على النهوض بدوره التاريخي في المواجهة مع العدو الصهيوني، وكذلك صناعته لمعادلات جديدة على امتداد الخارطة الفلسطينية. هذا الوضع الفلسطيني؛ مؤهل لإعلاء الإرادة الفلسطينية وإنتاج موقف وطني جامع يكسر هذا الحصار ويفكك حلقاته، من خلال تفعيل حلقات العمل العربي والفلسطيني؛ موقف واستراتيجية وطنية ترى كسر الحصار جزء أساسي من المواجهة الشاملة مع العدو الصهيوني.

إن فرض الحصار العربي والعزلة الدولية، على العدو الصهيوني وفك الحصار عن الشعب الفلسطيني وقواه ومقاومته، ليس ضرورة فلسطينية فحسب ولكن مرتكز أساسي لاستعادة المناعة العربية ولو بحدها الأدنى، وما دون ذلك ما هو إلا تسليم بهيمنة العدو الصهيوني والاستعماري على المنطقة العربية، وتهديد مقومات وجود هذه الأمة وأمنها القومي ومستقبل شعوبها.

إنّ إعمار قطاع غزة يجب فهمه كجزء من فعل الشعب الفلسطيني المقاوم ضد العدو الصهيوني، يتم بإرادة وطنية فلسطينية وموقف عربي حاسم وواضح، يعبر عنه الموقف العربي المشارك في الإعمار وكسر الحصار، والذي لا يجب أن يكتفي بإدانة هذا الحصار أو الإشارة له كموضع للتنديد. فسنوات الحصار الطويلة، وأثرها المميت على الشعب الفلسطيني الباسل الصامد في غزة، ستبقى وصمة عار وجريمة نكراء مخجلة للإنسانية بأسرها؛ ارتكبها العدو الصهيوني ولا زال بدعم دولي، وما وضع الحد لهذه الجريمة إلا أدنى الواجب الإنساني كما الوطني والعربي، كما أن محاكمة مجرمي الحرب الصهاينة ضرورة لا يمكن فصلها عن هذا السعي لأجل مستقبل إنساني تهزم فيه الوحشية والعنصرية والاستبداد والاستعمار والقتل■

العودة إلى الفهرس

لقاءُ سادةِ القوم

د. محمد أبو ناموس – كاتب في الأدب الساخر

بدعوة من أعور الدجال، وهامل الرجال، كما يصفه أهلُهُ وربعُهُ ومعارفُهُ، الذي نصّب نفسَهُ الناطقَ باسمٍ من شتّتهَم الإرهَابُ والغزَاةُ والعابرونِ في الزمنِ العابر، وتواطؤُ ممالك الصحاري والرمال، الذين يعلّقون على مشجبِ الكفاحِ والتحرير كلَّ خيباتهمِ بالتنكيل بشعوبهم المغلوبة على أمرها، مع تخاذُلِ من يتكسبون باسمِهَم ويجوبون أنحاءَ المعمورةِ سَياحةً وسفرًا وتسوّقًا بحجةِ الوطن ووحدةِ مكوناته.

لبى الدعوةَ الأطرشُ والأعمى يمتشق كلاهما سيفَهُ الخشبي مهددًا، مرعدًا، مزبدًا، متوعِدًا الآخرَ، ومستعرضًا قوتَهُ، ومعددًا إنجازاتِه، مطالبًا كل من يشاهدُهُ ويسمعُهُ أن يصطفَّ إلى جانبِهِ، ويهتفَ بحياتِهِ ويدافعَ عنه في السرّاءِ والضرّاء.

اجتمعِ الأخوةُ الأعداءُ وتناوبوا على الحديث، وقد ترك كلٌّ منهم أحدَ صبيانه؛ ليزيدَ من سيولةِ التصريحاتِ، ويغدقَ المديحَ على سيّدِه، ويشتمَ ويقدحَ بالأطرافِ الأخرى مغررًا بالحاشيةِ والمتابعين.

في محميّةِ الأطرش خرج فقراؤها منددين به مطالبين بتأمينِ العمل، ولقِمة العيش. وهتِفوا بدنا نعمل... بدنا ناكل... بدنا نعيش ... ابعدوا عنا المساعدَ والشاويش، لكّن لسوءِ حظهَم كان الأطرشُ يشاهدهم، لكنه لا يسمعهم ولا يدري ماذا يريدون، فوقف على المنصة؛ ليخطبَ في المَحتشِدين معتقدًا أنهم مؤيدوه. وفي زحمة الصراخِ والصياحِ سُمِع صوتُ الناطقِ باسمه يخطبُ ويقولِ: إنّ سماحتَهُ يفخرُ ويعتزُّ بكم، ولسانُهُ عاجزٌ عن التعبير عمّا يجول فيِ خاطرِه، وإنه يبَشركمَ أن المستقبل يبتسم لكم، ويفتح أحضانَهُ مرحبًا بكم؛ ليعليَ من مكانتكم لتوليهِ شؤونِ كلَ الوطنِ وشجونِه، فهو الوحيدُ القادرُ على حمايتِكم من عبثِ الأعمى ومن يدورُ في فلكِه.

أما الأعمى فكان يقفُ في المكان المخصّص له في محميته، يحيط به مريدوه وأتباعُه، وكان يُمسك به اثنان من صبيانه يمشون الهوينى حتَى يصلوا به إلى حيث يلقي خطابَه، كما اعتاد، كان يلوّح للناس ويحيّيهم، ويوزّع الابتَسامات في كل الاتجاهات، كأنّه يراهم. ولم ينسَ التلويحَ بالعصا، وهو يخاطبهم ويقول لهم: أيّهَا الأحبِاء، إنني أرى في وجوهكم حماسة الولاء والتأييد، وفيِ زنودكم وسواعدكم القوة والقدرة على البطش بمن يناصبني العداءَ أو يضمرُ لي الشرَّ، أو تسوّل له نفَسُهُ منافستَي على قيادة سفينتكم نحوَ برِّ الأمان، فإرادتُكم القويّة، وعزيمتُكم الصلبةُ، تشهد لها خطواتُكم الثابتة، وقاماتُكمَ المنتصبة. إنّ اللّه قد أعزني بوقوفكم معي، واصطفافكم خلفي، كما أنه يحبكم، ورحمكم بأنّ بعث بي سيّدًا لكم؛ لأقودْ مسيرتَكم المظفرةَ نحو النصر، فأنا هبةُ السماء لكم، أحمد اللّه أنه لم يغضبْ عليكم ويبعث لكم - كما بعث لأشقائكم الأطرش الذي ينكّل بهم.

الأعور: باسمكم جميعًا أعلنُ افتتاحي اجتماعَنا الوحدويّ، راجيًّا ومتمنيًّا عليكم أن تتحلّوا بالحكمة والمَوعظة الحسنة والنوايا الصادقة، لتحقيق ما اجتمعِنا من أجله، وكلّي ثقةٌ أنكم عندَ حسن ظَنِّ رعيّتِكمَ بكم. وَبعد التوكّلِ على اللّه، أعطَي المجال لخيرِ من قادَ وترأسَ الاجتماعاتِ أخوكم الأحول.

الأحول: -بعد أن تلفّتَ يمينًا وشمالًا وحملقَ في الباب، لكنّه في الحقيقة كان يتأمّلُ ويعاينُ المجتمعين -: كم أنا سعيدٌ بترأسِ هذا الاجتماعِ المهمِّ الذي سنخرجُ منه موحّدينَ متفقَين على الصغيرةِ قبل الكبيرة.

الأطرش: بصوته الحادِّ كأنه الرعدُ الذي ينمّ عن عدم قدرته على الكلام. كان الزبدُ يتطاير من بين شفتيه كرذاذ المطر فيَ الصباحِ الباكر، يتساقط على رؤوسَ المجتمعين ووجوههم، وكان يضرب بقبضة يده على الطاولَة، فخرج صوتُ الناطق باسمه وقال على لسانَ الأطرش: لن أتهاونَ مع من يعترضني أو يعَصينَي أوٍ يشكّك بسلطتي وسلطاني؛ لأنّها مستمدةٌ من السماء. فكل من يحرّض أو يشوّه تعاليمَ السماء لا بدّ من دقّ عنقِهِ، وإنْ أراد الأعمى النجاةَ والخيرَ للبلادِ والعباد، عليه أن يسارعَ بمبايعتي قبل أن تضيعَ الفرصةُ عليه

الأعمى: إنّ عيونَنا تتبادلُ المحبّةَ والاحترامَ وهي خيرُ شاهد ودليل على ما أقول. فكما أسمعكم بأذاني، أشاهدكم بعيوني وأحرسكم برموشي، فمن لا تراه العينُ يبغضُهُ القلب، ويصيحُ في موضع العدو الذي لا يستحقّ إلا العصا، فأنا أحقّ بالولاية من الأطرش؛ لأنني أسمع جيدًا وأتحدّث بلباقةٍ واقتدار، وأراكم ببصيرتي. فعلى الأطرش أن يستريحَ ويُريح.

الأعور: اتقوا اللّه بأنفسكم وأهلكم الذين يناشدونكم توحيدَ الصفوف. ليتكم تسمعون ما يتناقلُهُ الناسُ عنكم ويتحدثون به ويتندرونَ عليكم، حيث يقول بعضهم بحلول عيد الأضحى المبارك، تسري شائعة تقول: إنّ سادة القوم يردّدون قصّة سيّدنا إبراهيمَ مع ابنه إسماعيل كيف كان يودّ أن يضحيَ به، فاستسلم لأمر أبيه حتى افتدته السماء. فكل ما يخشاه الناسُ أن سَادةَ القوم ينوون التضحيةَ بهم، ويدعون اللّه أن يفتديَهم كما افتدى سيّدَنا إسماعيل.

الخلافات البينية تنهش في جسد مجلس التعاون الخليجي

رضي الموسوي – كاتب صحفي/ البحرين

بعد مضيّ ثمانية أشهر على اندلاع الحربِ العراقيّة الإيرانيّة، تم الإعلانُ في العاصمةِ الإماراتيّة أبو ظبي عن تأسيس مجلس التّعاونِ لدولِ الخليجِ العربيّة، وذلك في الخامسِ والعشرين من مايو/ أيار1981، كردِ فعل أمنيّ وسياسيّ على ما كانت المنطقةُ تمور به من عدمِ استقرار واحتمالات امتدادِ شظايا الحربِ إلى العواصم الخليجيّة، وقد حدث ذلك فعلاً بعدَ سنوات عدّة من نشوبِ الحربِ التي دامت ثمانيَ سنوات عجاف، أكلت الأخضرَ واليابسَ وكلّفتْ الدولتينِ المتحاربتينِ مئاتِ ملياراتِ الدولاراتِ ومئاتِ آلافِ الضحايا.

امتدّت شظايا الحربِ الى أكثرَ من عاصمة خليجيّة بما فيها محاولةُ اغتيالِ أمير الكويت الأسبق المرحوم الشيخ جابر الأحمد الصباح. في البيانِ الختامي للقمّة التأسيسيّة لمجلسِ التعاون الخليجي تمّ التأكيدُ فيه على أنّ «أمنَ المنطقةِ واستقرارَها إنّما هو مسؤولية شعوبِها ودولها، وأنّ هذا المجلسَ إنّما يعبّر عن إرادة هذه الدول وحقّها في الدفاع عن أمنها وصيانةَ استقلالها». لكنّ المواطنَ الخليجي لمَ يُسمح له بممارسة مسؤوليّة سياسيّة، ولم يشارك في صناعة قراراتِ الحربِ والسلم والتوجّهات الاقتصاديّة، واقتصرَ الأمرُ على صدور قرارات فوقيّة من قبل حكومات الدول. التمثيلُ المتمثّل في وجود السلطاتِ التشريعيّة (البرلمانات) التي تشرّع القوانين، وتقرُّ السياساتِ العامةَ الداخليّةَ والخارجيّة، وتراقب أداءَ الحكومات على مختلف الأصعدة، بما فيها كيفيّةُ معالجةَ الخلافات البينيّة التي تعصف بهذا الصرحِ منذ اللحظةِ الأولى لتشكيله.

تعود الخلافاتُ الخليجيّةُ إلى عقود طويلة، وسببُ غالبها يكمنُ في النّزاعِ على الحدود، خصوصًا تلك التي تمّ اكتشافُ النّفط في محيطها، وكذلك النّزاعُ على السيادة على بعض المناطق التي تعود تاريخيًّا لسيطرة هذه الأسرةِ الحاكمة أو تلك، مما تسبّبَ في نشوبِ اشتباكات محدودة بين بعضِ دولِ مجلس التعاون الخليجي، حيثُ تتباينُ الرؤى إزاءَ مسألة التشاركيّة في إنتاجِ حقول النّفط المشتركة، وقد أدى في العديدِ من الحالاتِ إلى إغلاقِ تلك الحقولِ لمُدَدٍ ليستَ قصيرة.

في ظلّ هذه الإشكالات، ونظرًا لعدم قدرة دول الخليج على معالجة خلافاتها الحدوديّةَ داخل الأسرة الخليجيّةِ الواحدة (كما يحلو لحكومات ترديد هذه المقولة) وذهاب البعض إلى المحاكم الدوليّة؛ زاد الشرخُ وبدأت الخلافاتُ في التفاقم، حتى جاء الاجتياحُ العراقيّ لدولةِ الكويت صيف 1990، الذي لم يكنِ الإنتاجُ النفطيّ المشترك (حقل الرميلة) بعيدًا عن أسبابه، وقد كلّف البلدين، العراقِ والكويت، ومعها دولُ مجلس التعاونَ الخليجي مئات المليارات من الدولارات، وتسبب في انتشارَ الحضور العسكريّ الأمريكيّ وتوسّعه على وجه الخصوص في كل دول مجلس التعاون. كما زادت موازناتُ التسلّح والأمن على حساب القطاعات الحيويّة والخدمات الرئيسيّة، مثل: التّعليم، والصحّة، والمرافق العامّة، والاقتصاد الذي لم يخرجْ منَ دائرة الاعتماد شبهَ الكلي على عائدات النفط، ففي حالة التيه التي سبّبها الاجتياحُ العراقيَ للكويت، وجد المواطنُ الخليجيُّ نفسَه أمامَ تحوّل جديد بنقل الخلاف البحرينيّ القطريّ على مجموعة جزر حوار و«فشت الديبل» إلى محكمة العدل الدوليّة في لاهاي، بعد أن أصرّت الدوحةُ في قمّة مجلسِ التعاون على هذا الأمر، بينما كانتَ الجيوشُ الأجنبيّةُ بقيادة الولايات المتّحدة تعدّ العدّة للحرب لطرد العراقَ من الكويت في أواخر العامَ 1990 ومطلعَ العام التالي.

كانت الخلافاتُ البينيّةُ تختمر؛ لأنّها لم تجد طريقًا صحيحًا للمعالجة، فبدأت دمامل التباينات تكبرُ شيئًا فشيئًا، حتى تفجّرَ قيحُها في وجوه الجميع، وأصيب الخليجيون بحالة من الذهول من عجز أنظمتهم السياسيّة عن وضع حدٍّ لتدهور العلاقات، وتفاقمَ الخلافاتَ، وتعطّل المشاريع المشتركة، التي كانت تبشّر بالوحدة الخليجيّة، مثل: الجواز الموحّد، وفتحَ الحدود أمامَ أبناء دول المجلس على طريقة الاتّحاد الأوروبيّ، وتطبيق الاتفاقيّة المشتركة، التي تمّ التوقيع عليها في العام 1983، لكنها تعثرت في الكثير من بنودها

العودة إلى الفهرس

مثل العملة النقديّة الموحّدة، حيث الخلافُ الأبرزُ على مقرّ البنك المركزيّ الخليجيّ، وعدم التطبيق التّام لعمليّة انتقال السّلع والبضائع الوطنيّة المنشأ بين الحدود، فضلا عن عدم تشكيل صندوق ماليٍّ لدعم الاقتصادات الأضعفَ، ورفع مستوىَ دخل مواطني هذه الدول؛ لتتقاربَ مع الدول الأكثر رخاء، ولم يطبّق بدقة قرارُ قمّة المنامة منتصف تسعينات القرن الماضي بمعاملة المواطن الخليجيّ معاملة المواطن في أيّ بلد عضوٍ في المجلس، وربّما البحرين هي الدولةُ الوحيدة التي طبّقت هذا القرار. لم تُستكملْ مقومات الاتّحاد الجمركيّ والسوق الخليجيّة المشتركة ومتطلّباتهما، ولم تتحقّقَ المواطنةُ الاقتصاديّة الكاملة، ولا تزال عمليّةُ بناء خطّ سكة الحديد الخليجيّة التي تربطَ بين الدول الست تواجه عثرات، فضلا عن عدم وضوح الرؤيا في حقول منظومة الأمنَ الغذائيّ والمائي، وتشجيع المشاريع المشتركة، وتوطين الاستثمار الخليجيّ الذي يعاني من حالةِ استنزافٍ منذ عقود.

انفجارُ الدمامل

لا يمكن للمواطن الخليجيّ أنْ يفهمَ هذه العثرات المتكرّرة في عمليّة التكامل نحو الوحدة الخليجيّة، وابتعادَ أهداف المجلس المعلنة عن التطبيقَ رغمَ إمكانيّة القيام بذلك، بل وبدلا منها تتفجّرَ دماملُ الخلافات البينيّة التي بانت صورتُها الفاقعة في يونيو 2017، عندما أعلنت ثلاثُ دول خليجيّة، وهي، السعودية والإمارات والبحرين، ومعها أكبرُ دولة عربيّة هي مصر، عن مقاطعتها لدولةَ قطر وإغلاق الحدود البريّة والبحريّة والجويّة معهاَ، وسحب سفرائها من الدوحة، مطالبةً بتلبيةِ الشروط التي وضعتها الدولُ الأربعَ بما فيها، أنْ تتوقّفَ الدوحةُ عن دعم الجماعات الاسلاميّة المتطرفة ووقف التقرّب من إيران، وإغلاق قناة الجزيرة. هذا التطوّرُ أدخل المواطنَ الخليجي في «حيص بيص» ولم يعد قادرًا على فهم ما يجري في الوقت الذي كان يطالب بإلغاء الحدود، وتوحيدِ السياسات الخارجيّة، وإشراك المواطن في القرار الاقتصاديّ والسياسيّ والاجتماعيّ، وعدم الاكتفاء بمجلس استشاريٍّ صوريٍّ لاحول له ولا قوة، حيث تأكّد ذلك في الأزمة الخليجيّة الأخيرة، التي تفجّرت قبل أكثرَ من أربع سنوات، وما تزال مستمرّةً في غالب فصولها. فخلال السنوات الماضيّة لَم يسمع أحدٌ عن تحرّك قامَ به المجلسُ الاستشاريّ الخليجيّ المعيّن من حكومات المجلس، وكيف له التحرّك وهو يأتمر بأمر الحكومات التي عيّنته، وكأنه وُجد ليزيدَ فتح صنبورِ استنزافِ الثروات دون فائدة؟

وبالرّغم من كلّ ذلك تمكّنت الكويت، بحكم خبرتها وحنكة قيادتها السياسيّة، من ممارسة الصبر الطويل الأمد على عمليات الصدّ التي واجهتها من أطراف الأزمة طوال السنوات الماضية، وفي نهايةَ المطاف وبعد أنَ رحل حلاّب المنطقة دونالد ترامب عن إدارة البيتِ الابيض، تحلحلت الأمور وتمّت عمليّةُ تدوير بعض زوايا الأزمة، وتمكّنت الكويتُ، وبمساهمة حثيثة، من سلطنة عمان من إحداثِ الاختراقِ المطلوب؛ لتكونَ المصالحةُ الخليجيّةُ العنوانَ الأبرزَ للقمّة الواحدة والأربعين لمجلس التعاون الخليجي، التي انتظمت في 5 يناير/كانون الثاني 2021 بمدينة العلا السعودية، وذلك بعد أن أعلنت الكويت عن تطوّر حصل في قضية الخلاف، وأعلنت بعدها السعوديّة عن فتح الحدود البريّة والبحريّة والجويّة أمام قطر، فسارع أميرُها للإعلان عن مشاركته في القمّة، التي أصدرتَ بيانًا تصالحيًا أعيدت من خلاله العلاقاتُ مباشرة بين السعوديّة ومصر، من جهة، وقطر من جهة أخرى، بينما ما تزال العلاقاتُ مع الإمارات والبحرين في إطار الهواجس والمخاوف، وتحتاج إلى رافعة عملاقة تزيل الجليدَ المتراكمَ طوالَ السنوات، وتحقّق شروط المصالحة لإعادة الاعتبار إلى منظومة مجلس التعاون المتصدّعة والمتعثّرة في مسيرتها.

وحيث لم تتمكّن دولُ المجلس من تحويل التحدّيات إلى فرص يمكن استثمارُها بطريقة صحيحة، فقد تفاجأ الخليجيون خلالَ الأسابيع القليلة الماضية بوجود تباينات بين السعوديّة والإمارات، تمثّلت قمّة جبل جليدها في رفض الإمارات اتّفاق «اوبك بلاس» الذي بموجبه تمّ التّفاهمُ مع روسيا بإبقاء سقف الإنتاج، بينما تجد الإماراتُ أنّها ظلمت في هذا الاتّفاق، وطالبت بزيادة إنتاجها بمقدار 600 ألف برميل يوميًّا، الأمرُ الذي رفضته الرياضُ؛ لتحدثُ الإشكاليةُ من جديدٍ بين دولتين خليجيتين رئيسيتين لهما مكانتهما وقدراتهما الماليّة والاقتصاديّة. هذا التطوّرُ قاد إلى تدحرج العلاقات البينيّة ففُرضت إجراءاتٌ تتعلق بانتقال السلع، وفرض الضرائب على المناطقَ الحرّة، التي تشترك فيها دولٌ أخرى، خصوصًا الكيان الصهيوني؛ لتبدأ دماملُ جديدةٌ في التشكّل قبل أن تُعالجَ الدماملُ القديمة، رغمَ أنّ هذا التباينَ بين أبو ظبي والرياض قد تم تطويقهُ بزيارة خاطفة لوليّ عهد أبو ظبي إلى الرياض تم فيها التوافُقُ على بعض الملفات محلّ الخلاف. لا يعني ذلك تراجع الرياض عن قرار صدر في فبراير/شباط 2021 يُنذر فيه الشركاتَ الأجنبيّة التي تسعى للحصول على عقود حكوميّة بضرورة نقل مقرها الإقليميِّ الرئيسيِّ إلى السعوديّة بحلول عام 2024، علمًا أنّ غالبَ هذه الشركاتِ تتّخذ من الإمارات مقرًّا لأعمالها.

إنّ منظومةَ مجلس التعاون الخليجي التي تعدّ أغنى منطقةً في الشرق الأوسط وأكثرَها قدرةً على الصمود أمامَ الكوارث الاقتصاديّة والماليّة، ما تزال غيرَ مستفيدة من الثروات الفلكيّة التي جلبها النفطُ، وتتمتّع باقتصاد يبلغ حجمُه 1,64 تريليون دولار ويتبوأ المرتبة الـ13 عالميًّا، وبإنتاج نفطيٍّ يبلغ أكثرَ من 18 مليون برميل يوميًّا، وتجارة بينيّة تزيد بقليل عن 91 مليار دولار واحتياطيات أجنبيّة تصل إلى 620 مليار دولار، فضلا عن الغاز الطبيعي الذي تنتجه قطر، وتتمتّع بوجود الاحتياطيّات الهائلة المتاحة بحقل الشمال الذي يحتوي على 1760 تريليون قدم مكعب، و أكثرَ من 70 مليار برميل من المكثّفات، وكميّات من الغاز البترولي المسال والإيثيلين، علمًا أن قطر تزوّد الإمارات والكويت وسلطنة عُمان بكميّات كبيرة من الغاز، تحرّك عجلةَ التنمية في هذه البلدان، وتقلل من تكاليفها نظرًا لقربها من المصدر. لكن، ومع الأسف الشديد، فإن هذه الثروات الفلكيّة - وبدلا من استثمارها في عجَلة التنمية الحقيقيّة - تُستثمر سلبًا في تغذيةَ الخلافات من جهة، وفي قطاعي الأمن والدفاع على حساب التعليم والصحّة والعمل والمساهمة في دعم الاقتصاديّات العربيّة من جهة أخرى، التي هي بحاجة ماسّة إلى الدعم بعد أنْ فعلت التدخّلاتُ الخارجيّة فعلتَها في تلك المجتمعات■

اعتذارُ سعد...

نهايةُ عصرِ الحريري - بري - جنبلاط في لبنان؟!

د. جمال واكيم- أستاذُ التاريخِ والعلاقاتِ الدوليّةِ في الجامعةِ اللبنانية/ لبنان

يعيش لبنان أزمةً اقتصاديّةً واجتماعيّةً وسياسيّةً عنيفة، برزت جليّةً بعد تشرين أوّل 2019، إلا أنها بدأت قبل ذلك بعقدين من الزمن.
على الصعيد الاقتصادي - الاجتماعي، فإنّ الأزمة بدأت عامَ 1997 نتيجةَ فشل الرهان الاقتصادي لرئيس الوزراء الراحل رفيق الحريري في جعل لبنان مركزًا ماليًّا إقليميًّا؛ بسبب عدم تحقيقِ السلامِ الشاملِ في المنطقة، وتطبيعِ العلاقات بين العرب وإسرائيل.
كان رفيقُ الحريري قد تبوّأ سدّةَ السلطة عام 1992، بعد عام على افتتاح مؤتمر مدريد للسلام بين العرب وإسرائيل. وكان رهانُ الحريري يقوم على أنّ السلامَ سيكونُ سريعًا بين العربِ وإسرائيل، من هنا كان إطلاقُهُ لوعد الربيع، الذي راهن فيه على انطلاقةِ دورِ لبنانَ كوسيطٍ مالي في الشرقِ الأوسط الجديد بين رأسِ المال الغربي، والإسرائيلي، والمنطقةِ العربيةِ.

الإفقارُ بذريعةِ الإعمار

لتحقيقِ هذا الهدف، كان على رفيق الحريريَ تأهيلُ البُنى التحتيّةِ لهذا الدور المزمع أن يلعبَهُ لبنانُ. فكان تركيزُهُ علىَ تحويل وسط العاصمة بيروت، إلى المركز الذي يجبُ أن يكونَ مقرَّ المؤسّسات الماليّة والتجاريّة، التي افترض أنها ستأتي لتَستقرَّ فيه. ومن هنا كان تأهيلُهُ للمطار الذي افترض أنه سيستقبل عشرات ملايين الركّاب سنويًّا. ومن هنا جاء تأهيلُهُ لأوتوستراد المطار؛ ليربطَ بينه وبين وسط بيروت. ومن هنا كان تأهيلُه لبعض الطرق حتى تكونَ شرايينَ لتغذيةِ مشروعِ المال والأعمال.

ولأنّ الأهدافَ كبيرةٌ ومكلفة، لجأ الحريريِ إلى الاقتراض بوتائرَ عالية، مضاعفًا الديْنَ العام للبنان ستَّ مرّاتٍ في ستِّ سنوات؛ ليرتفعَ من ثلاث مليارات دولار عام 1992، إلى 18 مليارَ دولار عامَ 1998. ولأنّ الصيغة اللبنانيةَ قامت على اقتصاد الريع، وعلى توزيع الأعطيات على الأزلام والمحاسيب، وحتى يتمكّنَ من تنفيذِ مراحل الخطّة التي وقع عليها الرهان، فإن الحريري أدخل الزعامات اللبنانيّةَ التقليديّةَ بالإضافة إلى زعماء الحربِ شركاءَ له. وحتى يرضيَ الشركاءَ، فلقد أغدق عليهم من مالِ الدولة بوسائلَ متعدّدة، ما ضاعف كلفةَ المشاريع المزمع تنفيذُها دون الحصول على النتائجِ المرتجاة. فكانت الأزماتُ المزمنةُ لقطاع الكهرباءِ والطاقةِ والبُنى التحتيّة وغيرها.

وبما أنّ رهانَ الحريري كان على القطاع المالي وقطاع الأعمالِ المضاربة، فلقد تمّ إهمالُ، بل العملُ بمنهجيّةٍ منظّمة للقضاء على قطاعي الصناعة والزراعةِ. هذا ما يفسّر إفلاسَ مئاتَ المعامل والمصانع في السنة الأولى، بعد استلام الحريري مقاليدَ الأمورِ في البلاد، وهذا ما يفسّر الأزمةَ المزمنةَ التي عاد القطاعُ الزراعي للدخول فيها بعدَ عام 1992. لكن لماذا لم تنفجر الأزمةُ عامَ 1998؟ الجواب يكمن في الرشاوى المتتاليةِ التي حصل عليها أركانُ الطبقةِ الماليّةِ من الفرنسيّين والأميركيّين، الذين كانوا يعدّون العدّةَ لتحوّلات جيوسياسيّةٍ ستحصل في وقت لاحق، إضافة إلى استفادة هذه الطبقةِ الماليّةِ من المال الذي هربَ منَ العراقَ عقبَ الغزو الأميركي لهذا البلد عامَ 2003. ثمّ الأزمتينِ السوريّة والليبيّة اللتين ساهمتا أيضًا في هروب مليارات الدولارات إلى لبنانِ. "فهل يفسّر هذا الطريقةَ الملتبسة التي تمّ عبرَها اختطافُ هنيبعل القذافي، نجل الزعيم الليبي معمّر القذافي قبلَ سنوات عدّةً من سوريّة، واحتجازُهُ في لبنانً دونَ مسوّغاتٍ قانونيّة؟»

التحوّلاتُ الجيوسياسيّة

عامَ 1991 انهار الاتّحادُ السوفياتي، فاتحًا المجالَ أمامَ صعود أحاديّةٍ قطبيّةٍ في العالم، بقيادةِ الولاياتِ المتّحدة. حاولت هذه الأخيرةُ استغلالَ الفرصة لإقامة نظامٍ دوليٍّ تكونُ فيه المهيمنةَ على مقاديرَ العالم خلال القرنِ الحادي والعشرين. وهي كانت تعي حقيقة صعود قوى أوراسيّة تنافسها وعلى رأسها الصين وروسيّا وإيران. في مواجهة ما عدّته خطرًا على فرصها بالهيمنَة العالميّة، حاولت الولاياتُ المتّحدةَ احتواءَ هذه القوى باعتماد سياسة تطويقٍ تبدأ من بحر البلطيقَ والبحرَ الأسودِ وشرقِ المتوسط فيَ الغرب، وباب المندبَ ومضيقِ هرمزَ وجنوبَ شرقَ آسيا في الجنوب، وجنوب بحر الصين وتايوان واليابان في الشرقِ. وحتى تكتملَ استراتيجيّتُها، فلقد سعت الولاياتُ المتّحدةُ لإقامةِ نظامٍ

العودة إلى الفهرس

إقليميٍّ جديد في منطقة الشرق الأوسط يكون عمادُهُ إسرائيل، ويقوم على دمج الكيان الصهيوني بالمنطقة، أو بالأحرى دمج المنطقة بالكيان الصهيوني عبرَ تقسيم الكيانات الوطنيّة في المشرق العربيّ إلى كياناتٍ طائفيّة، فنتحول من هُويةٍ عربيّة تجمعنا إلى سنة وشيعة ودروز وموارنة وأرثوذوكس وآشوريين وسريان إلخ، ثمّ تصبح إسرائيلُ أكبرَ أقليّة في موزاييك من الأقليات. ولأنّ إسرائيل هي التي يجب أن تكونَ القطبَ في المنطقة، فوفقًا للمخطط الأميركي يجب ألا يكونَ لها منافسٌ أو لمرفأ حيفا منافسٌ في شرق المتوسط. ووفقًا لصفقة القرن التي تريد إقامتها، فإنه لا دولةَ فلسطينيّة، بل كيانٌ فلسطيني تابعٌ للكيان الصهيوني يشكل هو والأردن جسرَ عبور للكيان الصهيوني تجاهَ منطقة الخليج، وهذا هو سرّ عملية التطبيع بين الكيان الصهيوني والإمارات العربية المتحدة.

في هذا الإطار، فإنه لا مكان للبنان وسورية في الخريطة الشرق أوسطية الأميركية، بل إن البلدين يجب أن يقسما، هذا هو جوهر الأزمة السورية التي اندلعت عام 2011، وهذا هو سر أزمة لبنان التي اندلعت عام 201. فلبنان الذي جوّف اقتصاده واتبع بالكامل للمصارف التي تسيطر عليها الولايات المتحدة، الذي غرق بالدين تحت ذريعة الإعمار، الذي لا يمتلك مقومات اقتصاديّة، كان يجب أن يشطبَ من الخريطة حتى لا ينافس الكيان الصهيوني في أن يكون صلةَ وصلٍ بين شرق المتوسط والخليج العربيّ. كما كان الحال خلالَ سبعة عقود تلت نكبة فلسطين، وتعطيل دور ميناء حيفا وهو ما كان قد حذّر منه فيلسوف الصيغة اللبنانية ميشال شيحا في الأربعينات من القرن الماضي.

بدأت الأزمةُ بقطيعة من قبل الدول الخليجية وعلى رأسها المملكة العربيّة السعوديّة والإمارات للبنان منذ عام 2014، تلاها تجفيف منابع الدعم المالي الأوروبيّة للبنان عامَ 2017، ثم العقوبات الأميركيّة على القطاع المصرفي اللبناني عام 2018، التي ولدت بوادرَ أزمةٍ تفجرّت في ربيع عام 2019، وكان من نتيجتها اندلاعُ الاحتجاجات في الشارع اللبنانيّ بَدْءًا من تشرين أول 2019.

نهايةُ الطائف

مع هذه التطورات التي تمّ ذكرُها آنفا فإن معادلة البلد كانت قد أرسيت عام 1985 انتهت كليا، وسيحال أركانُها إلى التقاعد. ففي ذلك العام كان النظام الطائفي اللبناني قد أعيد تركيبُه. فعوضًا عن الثنائية الإسلامية المسيحية التي حكمته، جرى استبداله بنظام مثالثة مربعة، تتوزع النفوذ فيه إلى ثلاث طوائف متساوية في الحجم، وهم المسيحيون بقيادة الكنيسة، والسنة بقيادة رفيق الحريري من وراء الكواليس، والشيعة بقيادة نبيه بري، مع لعب الدروز بقيادة وليد جنبلاط دور بيضة القبان الموازن بين هذه الكتل. لكن السبب الذي أدّى إلى تأجيل افتتاح النظام الجديد كان عدمَ اتّفاق الرعاة الإقليميين والدوليين وهم سوريةَ، والمملكة العربية السعودية، والولايات المتحدة على حصصهم في هذا النظام. هذا الاتفاق سيحصل بعد أربعِ سنواتٍ في اتّفاق الطائف.

عاش نظامُ الطائف مدّةَ 16 عامًا، وكان بطلُهُ رفيق الحريري، الذي ارتبطت حظوظُهُ منذ السبعينات بالأمير صاحب النفوذِ الكبير في المملكة العربيّة السعودية فهد بن عبد العزيز، الذي سيصبح ملكا في العام 1982، وسيبقى الحريري نجمَ نظام الطائف حتى صيف العام 2004، حيَن انكسرت الجرّة بين سورية والولايات المتحدة نتيجةَ التطوراتِ الإقليميّة التي تلت غزو العراق، واستهداف الولايات المتحدة لسورية. هذا يفسرُ صدور القرار الدولي 1559 الداعي لانسحابِ القوّات السوريّة في لبنان في صيف عام 2004، بعد المصالحة التي جرت في النورماندي بين الرئيس الفرنسي جاك شيراك والرئيس الأميركي جورج بوش، واتفاقهما على تقاسم النفوذ في المشرقِ العربي وشمالَ إفريقيا.

ردّت سورية بدعم التمديد لحليفها في لبنان رئيسَ الجمهورية إميل لحود، واستبدال الحريري بعمر كرامي في رئاسة الحكومة، لكن في 14 شباط 2005 تمّ اغتيالُ الحريري. وكان لهذا دلالاتٌ عدّة. لقد شكّل الخلاف السوريّ الأميركي ضربًا للقاعدة الإقليميّة الراعيّة لنظام الطائف، فكان لزامًا أنَ ينتهيَ معها اتّفاقُ الطائف، وأن ينتهيَ أيضًا دورُ بطل المرحلة رفيق الحريري. أمّا الدلالةُ الثانيّةُ فكانت أنّ حظوظَ الحريري ارتبطت بالملك فهد بن عبد العزيز، لكنّ الملك كان قد فقد وعيه قبلَ سنوات عدة، ومع حلول عام 2005 كان الجميعُ يتوقّعُ وفاتَه. كان من شأن هذا أن يلقيَ ظلالَهُ على دور رفيق الحريري، فالمعروفُ أنّ كلَّ ملكٍ سعودي كان يدعمُ وصول شخصيّةٍ في لبنان تمثّل نفوذه. فمع نهايةِ عهد الملك فهد كان حتميًّا أن ينتهيَ معَهُ دورُ رفيق الحريري. ألم يأتِ دورُ هذا الأخير على حساب خالد خضر آغا الذي كان حاملًا للحقيبةِ السعوديّة في لبنان حتى عام 1975، حين كان الملك فيصل حاكمًا في المملكة العربية السعودية؟ والدليل على ذلك أن الملك عبد الله لم يسمِّ شخصيّةً تمثّل النفوذ السعودي في لبنان بعد اغتيال رفيق الحريري، فتمّ تداول السلطة بين عدد من المرشحين. حتى أن تسميةَ سعدَ الحريري عام 2009، ثم عام 2016، كانت في ظروفٍ استثنائيّة كان الدورُ السعوديّ إمّا مرتَبكا وإمّا غائبًا.

ماذا بعد؟

نتيجةَ غياب الدور السعودي خلال المرحلة الانتقاليّة بين وفاة الملك عبد الله وخلافة أخيه الملك سلمان له، وارتباك مؤسسة الحكم في المملكة خلالَ المرحلة الانتقاليّة، هذا الارتباكُ أتاح هامشًا من المناورة لسعد الحريري الذي أقنع السعوديين أنه يمكنه إقامةَ شراكة مع رئيس التيار الوطني الحر جبران باسيل، تسهم في محاصرة حزب الله وعزله (وهو المطلب الأميركي والسعودي الأول) ونتيجة ذلك، تمّ التوافق على انتخاب ميشال عون رئيسًا للجمهورية على أن يكون سعد هو رئيسُ حكومة العهد. لكن بعد عام على ذلك لم يحصل ما تمناه السعوديون والأميركيون من عزل لحزب الله، فبدأت المملكة بتأليب بعض أركان تيار المستقبل، وعلى رأسهم أشرف ريفي ضدّ سعد. وحين لم ينفع ذلك بدفعه للاستقالة كانت حادثة الاحتجاز الشهيرة في خريف عام 2017، لكنّ الإخراجَ السيئ للعمليّة والاستقالة التي رافقتها، أفشل المسعى. وعاد سعدٌ رئيسًا للحكومة، لكن المملكة قررت إدارةَ ظهرها للبنان، ومعها فرنسا والولاياتُ المتحدة.

ونتيجة الضغوط التي مورست على لبنان والمظاهرات التي اندلعت في

لبنان، فإن الحريري اضطر للاستقالة مع رغبة بالعودة. وكان نبيه بري ووليد جنبلاط يرغبان بذلك؛ لأنهما يعرفان أنّ مصيرَهما مرتبطٌ بمصير سعد كممثل لبقايا الحريرية السياسيّة، بطلة الاتّفاقِ الثلاثي واتفاق الطائف. هذا يفسر الرعايةَ التي أولاها الرئيس نبيه بري دائما لسعد. وقد وصل الحد به لأن يدخل بمواجهة مع رئيس الجمهورية، وبحرج مع حليفه حزب الله كرمى لسعد. لكن سعد لم يكن ليتمكّن من تشكيل الحكومة بعد إعادة تكليفه دون رضى سعودي، وإلا من أين سيأتي بالأموال لقطاع المصارف الذي تم اختصار لبنانَ به؟ ولقد حاول سعد طوال تسعة أشهر من التكليف أن يحصلَ على ضوءٍ أخضرَ سعوديٍّ، لكن دون جدوى. ولأنه لم يكن يستطيعُ إعلانَ هذا السبب، فلقد تذرّعَ بقضيّةِ الخلاف على الصلاحيّات الدستوريّة مع رئيس الجمهورية؛ ليصلَ به الحدُّ إلى إعلان الاعتذار عن تشكيل الحكومة. ويبني سعد رهانَه، بناءً على اقتراحات من مستشاريه بتكرار تجربة والده في الخروج من الحكم عامَ 1998 والعودة بقوة في الانتخابات النيابيّة عام 2000. إذن، فهو يراهن على الابتعاد عن رئاسة الحكومة في الوقت الذي سينفجر فيه الوضعُ الاجتماعي، مراهنًا على العودة بقوة في الانتخابات النيابيّة في ربيع عام 2022. لكن ما لم يحسبه سعد ومستشاروه أن الظرفَ الآنَ مختلفٌ عن عام 1998. ففي ذلك الوقت كان لا يزال لرفيق الحريري دورٌ يلعبه، أما سعد فلا يعي أن دورَه قد انتهى، وانتهت معه الحريرية السياسية. ويعتقد سعد أنه الآن مثل رفيق الحريري عام 1998، لكنّ حقيقةَ الأمر، أن سعد الحريري اليوم هو خالد خضر آغا، الذي انتهى دورُهُ مع اغتيال الملك فيصل. وإذا كان سعد لا يعي هذا الأمر فإنّ مَنْ يعيه هو رئيسُ مجلس النوّاب نبيه بري الذي ناضل طويلًا لإبقاء سعد الحريري رئيسًا للحكومة. أمّا الثالثُ الذي سينتهي دورُه فهو وليد جنبلاط الذي تحسّب للأمر بأن ورّث ابنه تيمور وجعل من خصومه في الطائفة أي الأمير طلال أرسلان والوزير وئام وهاب رعاة له وهما ارتضيا بهذا الدور لخصوصيّاتٍ مرتبطةٍ بالطائفة الدرزية.

إذن، فنحن في لبنان دخلنا في مرحلة انتقاليّة طويلة ستكون مفاعيلها مؤلمة، ولهذا الأمر حديثٌ آخر■

القضايا المسلوبة: تونس

خاص «الهدف»

أسوأ ما يحدث لأي قيمة أو قضية هو اختزالها في مجموعة من الصور والأيقونات على حساب معانيها وأسباب أهميتها في حياة الناس ومقتضيات خدمتها، وتحديدًا تعتبر الديمقراطية هي الضحية المثالية للمتحدثين عنها وباسمها وحاملين لواءها في عالمنا؛ ناهيك عن خصومها وأنصار الاستبداد والمستأثرين المكشوفين وذوي المصالح المضادة.

اختزلت الديمقراطية لعملية انتخابية وصندوق اقتراع، لا يهم إن وضع تحت بسطار احتلال أو هيمنة عدو مُستعمر، أو استخدم لمرة واحدة كطريق يؤدي للسلطة ويودي بالدولة ويأتي على حساب الشعب وحقوقه، وفصلت الحقوق الاقتصادية والاجتماعية عن أي سياق تناقش فيه السياسة، فيما يحضر البنك الدولي وشروطه وعصبة المستغلين وسياسات الاقتراض والخضوع للهيمنة الدولية.

نعم هناك في تونس حكومة حظيت بدعم أغلبية برلمانية، بل وهي واحدة من حكومات كثيرة حظيت بهذا الدعم تعاقبت على حكم تونس، لكنها واحدة من أسوأ الحكومات في هذا العالم، في ضعفها وفسادها وسوء سياساتها، ترهن البلاد للقروض الدولية، وتعيق مسار التنمية بدل أن ترفده، وتشكل سياساتها المالية والاقتصادية امتداد لحقبة بن علي إن لم تكن أسوأ، وهذا ليس ذنب الثورة التونسية، ولكن محصلة تكالب قوى سياسية محلية ودولية وإقليمية على هذه التجربة بغرض افراغها من أي مضمون وتحويل شعارات الديمقرطة أداة لإخضاع التوانسة. لقد أغلقت الثورة في تونس أبواب كثيرة لمزيد من الاستبداد، وكسرت قيود كبلت الشعب التونسي، وقلصت من عدد الزنازين التي طاردت المعارضين السياسيين لسنوات طويلة، ولكن هؤلاء المعارضين لم تكتف كثرتهم من مناكفاتها، وسياسات ارتهانها للقوى الإقليمية والقبول بتحويل حقوق التوانسة وبلادهم لمادة ولعبة لتصفية حسابات هذه القوى والدول.

لا نتوهم هنا للحظة واحدة أن الخيار أمام التوانسة هو في التراجع عن الثورة ومطالبها أو الديمقراطية، أو الهتاف لقرارات الرئاسة التونسية، فما يحدث في تونس في خطورته فاق حدود الاصطفافات السياسية ومناكفات رجالاتها، ويستحق مواقف تنحاز لتطلعات الجماهير في العدالة الاجتماعية والديمقراطية وبناء الدولة القادرة العادلة لا تقويض ما تبقى من ملامحها لحساب رأس المال واستقطابات القوى الإقليمية والدولية■

العودة إلى الفهرس

بعد الانتخاباتِ التشريعية:

الجزائرُ بين شكلية الصندوق وعمق الأزمة السياسية

علي بوخلاف- كاتبٌ صحفي/ الجزائر

أكثرُ من سنتين بعد اندلاع الثورة الشعبيّةِ التي أرغمتِ الرئيسَ الجزائريَّ السابقَ عبد العزيز بوتفليقة علىَ الاستقالة؛ نظّمتَ السلطة انتخابات نيابيّة في 12 يونيو المنقضي. رغمَ رفض سياسيٍّ وشعبيٍّ كاسحين لهذا الاستحقاقِ. أصرّت السلطة ونجحت في تمرير مشروعِها من الناحية التقنية واللوجستية. ويعدّ ذلك ثالثَ موعد تقودهُ السلطة بعد الانتخاباتِ الرئيسيّةِ في ديسمبر 2019، والاستفتاء على تعديلِ الدستورِ في نوفمبر 2020.

من الناحية السياسيّة لم تغيّر الانتخاباتُ التشريعيّةُ الخريطةَ السياسيّةَ بشكل كبير، بل عكسَ توقعاتِ الرئيس عبدِ المجيد تبون نفسه، فأعيدَ تشكيلُ التكتل السياسي الذي رافق عبد العزيزَ بوتفليقةَ فترةَ وجوده في الحكم. صحيحٌ أنّ حزبَ جبهة التحرير الوطني لم يتحصّل إلا على 98 مقعدًا من أصل 407 نوّاب في الغرفة السفلى للبرلمانَ (الذي يحتوي غرفةً عليا تدعى مجلسَ الأمة، وأعضاؤها من المنتخبين المحليين) لكنه احتل المركزَ الأول؛ نتيجةَ نسبة مشاركةٍ متدنيّة جدا، حيث لم يتجاوزَ الإقبالُ 23،7% من الكتلة الناخبة، استطاع الحزبُ الثاني الذي كان يساند النظامَ السابق، وهو التجمعُ الوطني الديمقراطي من افتكاك المركز الرابع ويفرضُ نفسَهُ بشكل تلقائيٍّ في المشهد السياسي الجزائري رغمَ التهميش الذي عرفه منذ سنتين.

رغمَ هذه النتائج، لم يتحصّل أيٌّ من الحزبين علىَ أيِّ منصب وزاريٍّ بارز عند تشكيل الحكومة الجديدة. اعتمد الرئيسُ الجزائري علىَ فريقٍ من الموظفين لتكوين حكومة «أيمنَ بن عبد االرحمان (وزير المالية في الحكومة السابقة الذي اشتغل محافظًا للبنك المركزي وهو دون انتماءٍ سياسي) انطلاقًا من الواقع الذي لم يفرز أي أغلبية واضحة تجبره على اختيار رئيس حكومةٍ من أيِّ تكتلٍ برلمانيٍّ خارج عن فلك سلطته. علاوةً على أن الأحزابَ التقليديّة لم تبد نيّةً للخروج على بيت الطاعة، حيث أخذ رئيسُ الجمهورية في الحسبان معطى آخر في اتّخاذ قراره: قوائم الأحرار، المتكونون أساسًا من شخصيات مساندة للسيد تبون، أتت في المرتبةِ الثانيةَّ من حيث العددُ الإجماليُّ للمنتخبين بـ 84 نائبًا. رغم أن الانتخابَ لصالحهم لم يتمّ على أساس قائمة واحدة، والبعض لم يتحصّل إلاَ على عدد محدّد جدًّا من الأصوات، إلا أنهم سيشكلون حصنًا متينًا للحكومةِ في المجلس الشعبي الوطني.

بلغةِ الأرقام، لا يتجاوز عددُ الوزراء السياسيين الستة أعضاء من أصل 32 وزيرًا، منهم 17 احتفظوا بالمناصب التي كانوا فيها في الحكومة السابقة التي ترأسها «عبد العزيز جراد» منذُ مطلعِ 2020.

لأنّ جلَّ الأحزاب العلمانيّة واليساريّة قاطعت الانتخابات، لم يعدْ هناك وجودٌ للمعارضة التقليديّة في البرلمان الجزائري الحالي. وفي الفتراتِ التشريعيّة الماضية أدّت أحزابٌ مثلُ جبهةِ القوى الاشتراكية، وحزبِ العمال، وحزب التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية، دورَ المنبّه فيَ الغرفةِ السفلى للبرلمان رغمَ شكوكِ التزويرِ التي كانت تحومَ حول الانتخابَ في زمنَ بوتفليقة. لكن بعد الثورةَ الشعبيّة التي اندلعت في 22 فيفري 2019، لاَ ترغبُ التشكيلاتُ السياسيّة في تأديةِ ذلك الدور التمثيلي والشكلي. رغمَ هذا، سيبقى حزبٌ واحدٌ يؤدي دورَ المعارضة في المجلسِ الشعبي الوطني، وهو حزبُ حركة مجتمع السلم (حمس) الإخواني. هذهَ التشكيلةُ السياسيّةُ الوحيدةُ التي تحصّلت على 65 مقعدًا من بين الأحزاب الإسلامية. كان زعيمُها «عبد الرزاق مقري» يحلم أن يترأسَ الحكومة. لكن بما أنه لم يتحصّل على أي أغلبيةٍ (هو يرجع ذلك إلى التزوير) فسيبقىٍ يعارض بمفرده. لكنه لن يزنَ ثقيلا؛ لأنّ كلَّ الأحزاب الصغيرة لم تتحصّل على أكثرَ من 15 نائبًا. فمثلا، مرشحُ الحركة لرئاسة المجلس الشعبي الوطني لم يتحصل إلَا على 85 صوتا، مقابلَ 295 لصالح مرشح السلطةِ والرئيس الحالي «إبراهيم بوغالي».

إذن، هذا سيجعل من هذا الحزب معولا بكلِّ ما يحملهُ الفعل من معاني؛ لأنّ كلَّ الأحزاب الإسلاميّة انقرضت من الساحةِ السياسية.

خارج اللعبةِ الانتخابية تبقى الساحةُ السياسيةُ الجزائريةُ مشحونةً. والدليلُ على ذلك أن رغمَ الغلق الكلي لوسائل الإعلام والبروباغندا المبالَغ فيها والقمعَ الممنهج ضدَّ المعارضين، إلا أن نسبةَ المشاركة كانت ضعيفةً جدا. وأكثرُ من هذا، أنّ عددَ الأصوات التي تحصّل عليها النوابُ مباشرةً لا يتجاوز 2% وهذا يوسّع الهوّة الموجودة بين المؤسسات والمواطنين. من جهة أخرى قررتِ السلطاتُ تقليصَ هامشِ الحرياتِ في البلاد، إذ زجّت السلطةُ في سجونها العشرات من المواطنين، سجنوا فقط من أجل كتابات أو شعارات على جداريّات منصاتِ التواصل الاجتماعي. حتى الصحافةُ أصبحت غيرَ قادرة على نقل معلومات لا تعجبُ النظامَ الذي يواجهُ احتجاجاتٍ ذات طابع اجتماعي.

في ظلِّ هذه الظروف، تَهيّئُ السلطةُ لإجراء انتخاباتٍ محليّةٍ قبلَ نهايةِ العام كرهانَ «استكمال البناء المؤسساتي». لكنّ هذا لا يضمنُ حلَّ الأزمة السياسيّةِ التي تعصفُ بالبلادِ منذُ سنينَ■

بيغاسوس يضرب من جديد

برنامج التجسس الصهيوني الأبرز

أحمد مصطفى جابر– مسؤولُ قسمِ العدو في "الهدف"

© Amir Cohen/REUTERS

هذا المقالُ، وإن كان يتحدّثُ عن الحرب، لكنّهُ لا يتعلّقُ بالبنادقِ والرّصاص، بل بسلاحٍ فتّاك آخرَ تمَّ إنتاجُهُ في قاعاتٍ مكيّفة، باستخدامِ حاسباتٍ قد يمتلكها أيٌّ منّا، غيرَ أنّ العلمَ الأداتيَّ ومناهجَهُ وما يقف وراءَهُ من سياسةٍ ومصالحَ؛ يحدّدُ كيفيّةَ إنتاجِ المُنتج؟ ولِماذا يجبُ إنتاجُه؟ وكيف تتحوّل سطورٌ من التّعليماتِ البرمجيّةِ إلى سلاحٍ لا يقلُّ فتكًا عن مسدس جيمس بوند (العميلِ البريطاني السينمائيّ الأسطوري)، الّذي سيقف عاجزًا أمام بيغاسوس، وحائرًا في سَخَفِ وسائله ورجعيّتها من الناحيةِ التّقنيّة. حيث هنا يتمُّ القتل المعنويُّ والسّياسيُّ وصولًا إلى القَتلِ الماديّ!

هذا المقالُ يتناولُ قصّةَ البرنامجِ التجسّسيّ، دونَ التّعمّقِ في الجانبِ التّقنيّ شديدِ التعقيد، وقد سبق أنْ تمَّ تناولُهُ عبرَ تقاريرَ سابقةٍ قديمةٍ وحديثة، ويمكنُ الوصولُ إلى المسائلِ التّقنيّةِ والقضايا الأعمقِ حول بيغاسوس عبرَ الإنترنت.

مع انتهاءِ الحربِ العالميّةِ الثانية، اتّجهَتْ دولٌ كثيرةٌ، وعلى ضوءِ الخسائرِ البشريّةِ الهائلة، إلى تطويرِ التسلّحِ النّوعيّ، مع ضمانِ هزيمةِ الخصوم، حتّى دونَ إراقةِ الدّماء، ومن ضمنِ هذهِ التوجّهات؛ التّطويراتُ الهائلةُ التي حُدّثت على العملِ الاستخباريّ والمجالاتِ التقنيّةِ التي افتتحها العلمُ – وكانت عصيّةً في السابق - التي طُوِّرت وأحدثتْ ثورةً كبرى في مجالِ التجسّس وجلب المعلومات، أو حتّى في صناعة المعلومةِ وترويجها، وجَعْلها حقيقةً ساطعةً دونَ أيِّ أساسٍ واقعيّ. وهكذا، من مراقبةِ نشطاءَ في المكسيك والتسبُّبِ بقتلهم، إلى ملاحقة ناشط سعوديٍّ في كندا، إلى اختراقِ هاتفِ ناشط إماراتيٍّ في دبيّ، والتسبُّبِ بسجنِه، إلى زرعِ فتنةٍ دينيّةٍ في باكستان، تلك هي مهمّةُ بيغاسوس (البرنامج الصهيوني الخبيث)، الّذي عادَ إلى الأضواءِ هذهِ الأيام، في فضاءِ الشّبكاتِ الإلكترونيّةِ والخلويّة.

قبلَ بيغاسوس

اكتُشفَ «بيغاسوس» عن صدفةٍ عبرَ ناشطٍ سعوديٍّ شكَّ بأنّهُ يتعرّضُ للمراقبة، وطلب من «سيتزن لاب» (وهي منظّمةٌ كنديّةٌ للأمنِ الإلكترونيّ) التّحقّق من هاتفه.

قبلَ هذا، كان هناكَ برنامجٌ آخرُ حيثُ اكتشفَ خبراءُ غوغل ولوك آوت، تطبيق أندرويد متطوّرًا جدًّا، يدعى «كريسور» يتجسّسُ على المستخدمين من خلال اختراقِ الكاميرا والميكروفون، ويتتبّعُ مكالماتِهم، ورسائلَهم، وسجلات بحثِهم على الإنترنت، وغيرَها. وتمَّ اكتشافُهُ عامَ 2016، ويُشتبَهُ أيضًا أنّه من إنتاجِ الشّركةِ الصّهيونيّةِ ذاتها، التي أطلقت «بيغاسوس» وهي NSO Group Technologies. ورغمَ أنّ هذا التطبيقَ لم يكن متاحًا على متجر غوغل، إلّا أنّه رُصدَ في ستّةٍ وثلاثينَ هاتفًا ذكيًّا في الكيان، وكذلك في جورجيا والمكسيك وتركيا وغيرها من الدول، وقد حصل البرنامجُ على اسْمِه من الحصانِ الأسطوريّ المجنّحِ «بيغاسوس» (وهو حصانُ طروادة).

العودة إلى الفهرس

كيف يعملُ بيغاسوس؟

يصلُ البرنامجُ إلى جهازِ الضحيّة عبرَ رسالة، مثلا، ويفتحُ أبوابَ القلعة من داخلها، مستغلًا سلسلةً منَ الثغرات الأمنيّة في الأجهزة المحمولة المستهدفة، تُعرف باسم "Zero-day"، حيث يتمُّ اختراقُ مميّزات الحماية، وتحميلُ بيغاسوس دونَ إذنِ المالك، الذي يتحوّلُ إلى ضحيّة، ويبدأُ البرنامجُ على الفور بالاتّصال بمركز التحكّم داخل الهاتف لاستقبال أوامرَ المشغّل وتنفيذها، ثمّ يقومُ بإرسال البياناتَ.. كلّ شيء: اكتشافُ موقعِ الهاتف، التنصّتُ على ذلك، سجلّ المحادثات القريبة، تصويرُ المنطقة المجاورة للهاتف، وقراءةُ وكتابةُ الرسائل النصيّة، ورسائل البريد الإلكتروني، وتنزيلُ التطبيقات، وتطبيقاتُ الاختراق الموجودةُ بالفعل في الهاتف، والوصولُ إلى الصور والمقاطع وتذكيرات التقويم وقائمة جهات الاتّصال، وأكثرُ من ذلك: تطبيقاتُ وحساباتُ G-mail وفيس بوك وواتس أب وسكايب وفايبر وغيرُها، حتّى تلك المشفّرةُ كليًّا. وكلّ هذا يحدثُ في سريّة تامّة، أو كما قال أحدُ المشغّلين الصهاينة: «نحن لانتركُ أثرًا.. أشباح»

هل سيحقق القاتل في جرائمه

بعدَ الفضيحة الأخيرة: الكيانُ يطلقُ لجنةً للتحقيقِ في مشروع Pegasus

قال عضو الكنيست رام بن باراك رئيسُ لجنةِ الشؤونِ الخارجيّة والدفاع إنّ «مؤسّسةَ الأمن» ستنظرُ في أمر الشركة التي تقفُ وراءَ هذا الجَدل، حيثُ أشارت قائمةٌ مسرّبةٌ بالأسماء إلى أنّ برامجَ التجسّس **Pegasus** التابعةَ لشركة NSO قد استخدمتها حكوماتٌ عديدةٌ لمراقبةِ هواتف رؤساء الدول والنشطاء والصحفيّين. وقد أنشأت «إسرائيل» لجنةً لمراجعة الادّعاءات بأنّ البرنامجَ قد أُسيءَ استخدامُهُ وسطَ فضيحةِ قرصنة أثارت قلقَ الحكوماتِ على مستوى العالم.

جاء إعلانُ بن باراك وسطَ كشف عن استخدام برامجَ تجسّس «إسرائيليّة» استهدفت حسبَ ما تمَّ كشفُهُ أكثرَ من 5000 اسم وهدف محتمل. وأثار الكشفُ عن دعواتٍ للمساءلة، وزيادة الضوابط على البيعِ الدوليّ لتكنولوجيا برامج التجسّس، مع العلم أن NSO - تصدّرُ منتجاتها إلى أكثرَ من 45 دولةً، بينها الكثيرُ من الدول العربيّة، زاعمةً أنّها تبيعُ برامجَ التجسّس الخاصّة بها فقط؛ لاستخدامها ضدَّ المجرمين الخطرين والإرهابيّين، لكنَّ المشكلةَ تكمن في كيفيّة تحديد هذه الفئات، حيث كثيرًا ما تزعمُ الدولُ الأكثرُ استبدادًا أنّ الصحفيّين والمعارضين ونشطاءَ حقوق الإنسان مجرمونَ أو يمثّلون تهديدًا للأمن القوميّ، مما يجعلُها تستحقّ المراقبةَ التدخّليّة.

لكنَّ تدخّلَ الكنيست الصهيونية في هذا الأمر يبدو متأخّرًا جدًّا، إن لم يكن مناورةً مزيّفة؛ لأنَّ الحقائقَ عن بيغاسوس والنشاطِ التجسّسيّ للشركات الصّهيونيّة، قد اتّضحت منذ سنوات،

العودة إلى الفهرس

واتّضحت، كذلك، العلاقةُ الوثيقةُ بين هذهِ الشّركات ووزارة الحرب الصّهيونيّة. ففي التحقيقِ الشّامل الذي أجرته «هآرتس» منذُ سنواتٍ، بالاستنادِ إلى نحو 100 مصدر في 15 بلدًا، هدفت إلى رفع غطاءِ السّريّة عن التّجارة «الإسرائيليّة» المستندةَ إلى وسائلِ التّجسّس، وأشارت النتائجُ إلى أنّ الصناعة «الإسرائيليّة» لم تتردّدْ في بيع القدرات الهجوميّة للعديد من البلدان التي تفتقرُ إلى تقاليدَ ديمقراطيّةٍ قويّة، حتى لو تأكدوا من أنّ الموادَّ المباعةَ كانت تستخدمُ لانتهاك حقوق المدنيّين. وتبيّن أنّ المعدّاتَ «الإسرائيليّة» قد استخدمت لتحديدِ مكان نشطاء حقوق الإنسان واعتقالِهم، واضطهادَ أعضاءِ المجتمعِ المدنيّ، وإسكات المواطنين الذين كانوا ينتقدون حكوماتهم، وافتعال حالات التجديف ضدّ الإسلام في الدولِ الإسلاميّة حتى!، التي لا تملكُ علاقاتٍ رسميّة معَ إسرائيل، كما في إندونيسيا. ووجد تحقيقُ «هآرتس»، أيضًا، أنّ الشركات «الإسرائيليّة» استمرّت في بيع منتجاتِ التجسّس، إلى أنْ تمَّ الكشفُ علنًا عن استخدام هذهِ المعدّات لأغراضٍ خبيثة.

ليس الدولُ فقط!

عندما يقالُ لك: إنك تخضعُ للمراقبة! فقبلَ تحديدِ نوعِها، عليك أنْ تعلمَ أنّ كلَّ إنسانٍ يصلُ إلى الانترنت على الإطلاق، ويستخدمُ هاتفًا ذكيًّا، ويدخل إلى واحد على الأقلّ من مواقع التّواصل الاجتماعيّ، (التي تخضع للمراقبة، وليس بالضرورة عن طريق بيغاسوس أو أشباهه وحسب) فعليكَ أنْ تعلمَ أنه عندما يتعلّقُ الأمرُ بالمراقبة، فالأمر لا يتعلّقُ، فقط، بالدول، بل يتعلّق، أيضًا، بمساعي الشّركات والسماسرة ومروّجي البضائع؛ لبيعنا أيَّ شيءٍ وبأيِّ طريقة، ولفهمِ سلوكِنا الاقتصاديّ وعادات الغذاءِ واللباس والتسوّق وغيرِها. فمن خلال اقتصاد المراقبة الذي يشاهدون فيه ما يعجبُنا على وسائل التّواصل الاجتماعيّ يقومون بتسويقِنا بشكلٍ أفضلَ للشركات، وهذا يؤدّي إلى إنشاءِ مجموعاتٍ من البيانات التي يمكنُ للشركات استخدامُها، ولكنْ يمكنُ للقراصنة سرقتُها، ويمكن للدول السعيُّ للاستفادة منها. المعنى هنا، أنّنا جميعًا جواسيسُ من حيثُ: تقديمُنا للمعلومات، وضحايا للتجسّس من حيثُ: سرقةُ معلوماتنا بسهولة في آنٍ معًا.

ماذا تقول NSO عن التقارير؟

في مقابلة صحفيّة مع موقع كالكالا الاقتصاديّ زعم الرئيسُ التنفيذيُّ لشركة NSO Group أنّ قائمة الأرقام المسرّبَة، لا علاقةَ لها بـ Pegasus أو NSO وجادلَ في أنَّ شركتَه لا علاقة لها بكيفيّةِ استخدام الزبائنِ للمُنتَج.

وأضاف أنَّ شركتَهُ تصنعُ هذه البرامجَ Pegasus فقط لاستخدامِها في أعمال مكافحة الإرهابِ وإنفاذ القانون، كما زَعم، وأنَّ البرنامجَ يباعُ فقط إلى وكالات حكوميّة محدّدة بعدَ الموافقةِ عليها من قبل وزارة الحرب في الكيان. وفي مقابلة أخرى أدلى بملاحظةٍ ذات دلالة، حيثُ قال لواشنطن بوست: «إنّ شخصًا ما يجبُ أنْ يقومَ بالعمل القذر» وأن Pegasus "تُستخدمُ للتعامل مع أسوأ ما يجبُ على هذا الكوكبِ فعلُه حرفيًّا".

هل هناكَ شركاتٌ أخرى تصنعُ أدوات مثل PEGASUS؟

قطعًا، هناك شركاتٌ بارزةٌ تعملُ في هذا المجال الذي يستقطبُ تحديدًا عملاءَ المخابرات الإلكترونيةِ الصهاينة، الذين يغادرون الخدمة ويؤسّسون شركات ناشئة أو يعملون خبراءَ ذوي قيمة في شركات قائمة، بفضل خبرتِهم الطويلةِ في مراقبةِ الفلسطينيّين.

هل أنت معرَّض للاختراق؟

أصدرت منظمةُ العفو الدوليّة، بالفعل، أداةً يمكن استخدامُها للتحليل، ولكنْ قلقُك يجبُ أنْ يكونَ نسبيًّا، وأنْ تتساءلَ، أولا، لماذا سيدفعُ شخصٌ ما أو جهةٌ ما آلافَ الدولارات لمراقبتي؟ هذا سؤالٌ مركزيٌّ، على افتراض أنك لستَ صحفيًّا تطّلع على قصصٍ حسّاسة، أو قائدًا عالميًّا، أو في وضعٍ ما يمكن أنْ يهدّدَ السلطات الحكوميّة، فالاحتمالاتُ هي أنْ لا أحَدَ أو جهةَ سيدفعُ لاستهدافك، رغمَ ذلك تبقى أنواعٌ من الهجماتِ العشوائيّة مقلقة، وممكنة؛ لأنَّ هذه التقنيّة قد تقعُ في أيدي متسلّلين يرغبون في توسيع نطاق أعمالهم، واستهداف الأشخاصِ عشوائيًّا، حتى تخرجَ السمَكةُ الكبيرةُ في الشباك.

عليك – إذًا – أنْ تكونَ واقعيًّا، بخصوصِ إجراءات الأمان التي ستتّخذُها، كشخصٍ عاديّ، يأتي تهديدك الأكبرُ من وسطاءِ البيانات، الذين يعملون بشكلٍ قانونيٍّ، وعلى نطاقٍ أوسعَ بكثيرٍ من العملاءِ الحكوميّين المختلفين. من جهةٍ أخرى، إذا كنتَ مستهدفًا بالفعل من قبل جهةٍ حكوميّة، بما تملكُهُ هذه الجهةُ من مواردَ، فربّما لا يوجد الكثيرُ الذي يمكّنُك من القيام به للحفاظِ على خصوصيّةِ بياناتِك الرقميّة■

سخريةِ السياسةِ في إسرائيل...!

أكرم عطا الله–كاتب صحفي فلسطيني/ بريطانيا

حين اعتزلَ بن غوريون السياسةَ بشكلٍ نهائيٍّ عامَ 1963، نُقل عنه أنه كان يرحل مطمئنًا؛ لأنّ واحدةً من أسباب هذا الاطمئنان أنه أودع قرارَ الدّولة لدى مؤسّسات الأمن القوميّ، وليس لدى «هواة السياسة المتشاكسين» هكذا وصفهم بن غوريون الذي سئمَ مؤامراتهم التي لم تتوقف منذ تشكيل الدولة، وسئم حزبَه «مباي» الذي أسّسَ وحكم الدولة كأكبر حزبٍ حتى بعد اندماجه عامَ 68 في حزبِ العمل.

مع السنوات واختفاء جيل المؤسّسين وبروز الجيل الثاني، وحتى الثالث في السياسة الإسرائيليّة يتّضحُ أكثرَ ما حاول الكبارُ إخفاءَهُ على امتداد عقودٍ ماضيّة، فالجميعُ كان يعرفُ مدى الكراهية الشديدة التي كانت بين قائدَيْ حزبِ العملِ اللذين تداولا حكمَهُ منذ منتصف السبعينيات، وحتى منتصف التسعينيات "رابين وبيرس"، لكنّ الصورةَ العامة كانت تعطي دلالات وانعكاسات مختلفة، خصوصًا فيما يتعلّق بالسياسات العامة للحزب، وفي حالة انسجام مع المفاهيم التي قامت عليها الدولة، وهي بالقطعِ مفاهيمُ احتلاليّة.

وإذا كان المؤسّسون يصفُهم الرجلُ الأوّلُ بهواة السياسة، فكيف يتصرّفُ الجيلُ الثالث؟ هذه اللوحةُ التي تشهدُها إسرائيل حاليًّا، وتعزّزُها حالةُ الانتقال السريع بين الأحزاب، وإن كانت تعكسُ حيويّةً في النظام السياسيّ، لكنّها تعكس أكثرَ إذا ما دقّقنا بطبيعة الاصطفافات وحجمها، ذات الطابع المصلحيّ الشخصيّ، والانتهازيّ.

وإذا ما نظرنا إلى ما يجمعُ هذا الائتلافَ الحكوميَّ القائمَ، فسوف نجد أنّ الإجماعَ على الكراهية الشخصيّة فيه سمةٌ ثابتة، وهذه الكراهيةُ لفردٍ هو رئيسُ حزب الليكود، باعتبار أنّ ثلاثةً من قادة الائتلاف كانوا موظّفين لديه، تمّت إهانتُهم والتآمرُ عليهم من قبلَ نتنياهو وزوجته؛ إذ بات المشهدُ في إسرائيل يعكسُ حلبةَ تصفيات شخصيّة أكثرَ مما يعكس اختلافًا في السياسة أو الاقتصاد أو الأيدلوجيا. فقد تداخلتْ كلُّ الخطوطِ ما بين الائتلاف والمعارضة إلى الدرجة التي جعلت الكاتبة كارولينا ليندسمان تكتبُ: أنه باتتْ مطلوبةً خدماتُ تحليلٍ فوريّة حتّى نفهم ما الذي يحدث في الكنيست.

وهو الأمرُ الذي يصبّ معظمُ الإسرائيليّين والمراقبين باندهاشة شديدة؛ بسبب ذوبان الفروق الأيدلوجيّة والأخلاقيّة، وذوبان التصنيفات القديمة بين يمين ويسار ووسط. حتى أنها ذهبت لأبعدَ من ذلك عندما ينقلبُ الموقفُ بشكلٍ معاكس تمامًا لاستكمال تصفيّة الحسابات الشخصيّة؛ لإسقاطِ الخصم أو الحفاظ على السلطة وامتيازاتها.

من كان يصدق أنّ نفتالي بينيت رئيسَ حزب يمينا القوميّ، ووريث المفدال المتطرف، يتشاورُ حتّى مطلع الفجر مع الإسلامي منصور عباس، ويستجيبُ لتعديلات يقدّمها "عباس" يسمح جزئيًّا بلمّ شمل بعض الفلسطينيين، حتى وإن كان نظريًّا، وهو وريث الحركة الاستيطانية التي تعدُّ أنّ كل فلسطين أرضٌ إسرائيلية، ويُعدُّ فيها الاستيطانُ واجبًا قوميًّا ودينيًّا، وليس للفلسطينيّين والعرب أيُّ مكانٍ في هذه الدولة.

من كان يصدّقُ أن نتنياهو الذي عدَّ العربَ قبل ربعِ قرنٍ – حين تسلّم رئاسةَ الحكومة منتصفَ تسعينيات القرن الماضيَ – "خطرًا أمنيًّا كامنًا" وكانَ دائمَ التحريض ضدّهم، باعتبارهم "يهرعون للصناديق" ويطلبُ من الإسرائيليين انتخابَهُ حتى لا يأخذ العربُ حكومةً فيها. ونذكر شعارًا "إما بيبي أو الطيبي". والآن، يصطف في جبهة واحدة مع الطيبي وأيمن عودة مصوتًا ضدَّ قانون لمّ الشمل، وهو قانون تمت صياغتُهُ في عهد الليكود، وكان أحدَ مهندسيه ومقرّريه، وأكثرهم حرصًا على تجديده. الآن نتنياهو مع لمّ شمل الفلسطينيين "يا لمعجزة السلطة".

حين قدّم رئيسُ القائمة المشتركة أيمن عودة مشروعَ اقتراح لتشكيل لجنة تحقيق برلمانيّة للتحقيق في إخفاقات السلطة أمامَ منظّمات الجريمة في المجتمع الفلسطيني في مناطق الـ48، التي كان يقف خلفها نتنياهو، للمفارقة المضحكة كانت ميرتس اليساريّة وحزبُ القائمة الموحّدة العرب، يصوتون ضدّ الاقتراح، والأكثر إثارة أن نتنياهو – وهو المتهم الرئيس بهذا الانفلات والجريمة – يصوّت إلى جانب الاقتراح، الذي يمكن أن يحمّله المسؤوليّة ويخضعَهُ للتحقيق؛ المهم، أيّ شيء ضدّ حكومة بينيت، وتلك باتت سمةً في السياسة الإسرائيليّة، وهي حالةٌ مدعاةٌ للسخرية حقًّا، تحتاجُ إلى خدمات كي تفهمَ مدى التناقضات الصبيانيّة في السياسة الإسرائيلية، التي بالتأكيد هي بشرى لكلّ خصوم إسرائيل، حين تقف قواها السياسيّة بكل هذا العري، ويصوّت كلٌّ منهم ضدَّ نفسه وثقافته وسياسته ومنظومته الفكريّة مقابلَ مصلحته الشخصيّة.

لم يكن ذلك مكشوفًا بهذا الشكل لدى الهواة والأوائل الذين تمكّنوا من إخفاء أو تبرير مواقفَ سابقة، لكنّ الصورةَ الآن في إسرائيل مدعاةٌ للسخرية كما يصفها أحدُ المعلقين قائلًا: إنّ الحكومة تنجرّ خلفَ منصور عباس، والمعارضة تنجرّ خلفَ أيمن عودة، ثم أصبحت الشخصيّتان العربيّتان الأكثرَ حضورًا وتأثيرًا في السياسة الإسرائيلية؛ لأنّ الساسة الإسرائيليين يكرهون بعضهم ويتصارعون على السلطة ويصفّون حساباتٍ بأيّ ثمن...!

الدورُ الأمريكي وتوازنات السياسةِ الدولية
بين الانسحابِ وإعادةِ الانتشار

د. سامح إسماعيل – باحثٌ ومحاضرٌ في العلومِ السّياسيّةِ وفلسفةِ التّاريخ/ مصر

كان انعتاقُ السّياسة الخارجيّة الأمريكيّة من مبدأ مونرو، الذي أقرّ سياسة العزلة، إيذانًا بانفلاتِ قيود التعالق الاستراتيجي ما بينَ مفهوم المصالح الأمريكيّة، وأطر الجغرافيا السّياسيّة، التي وضع مبادئها الرئيسُ الأمريكي جيمس مونرو (1758 – 1831)، الذي حدّد المجالَ الحيويّ لبلاده، بحدود العالمِ الجديد، بعيدًا عن أوروبا التي مزّقها الصّراعُ الاستعماريُّ بين إنجلترا وفرنسا آنذاك.

وكان دخولُ الولاياتِ المتّحدة إلى أتون الحربِ العظمى الأولى، اختبارًا حقيقيًّا للدورِ الذي يمكن أن تسهمَ به واشطن في التّحوّلات السّياسيّة في العالم القديم، قبل أنَ يتجلّى ذلكَ بوضوحٍ إبّانَ الحربِ العظمى الثّانية، ويتموضعَ مع مشروعِ مارشال، ثمّ على امتدادِ أحداثِ الحربِ الباردة، حيث عرفتَ واشنطنَ التّدخّلَ الخشنَ في بؤرِ الصّراعِ ومناطقِ النّفوذِ الاستراتيجيّ، هنا وهناك.

كان الدرسُ الذي استوعبته الولاياتُ المتّحدةُ من تدخّلها المباشرِ في فيتنام، والثّمنُ الباهظُ الّذي دفعته، مؤشرًا على ضرورة حصول تغيّر في البُنَى السّياسيّة الفاعلة، فيما يتّعلّق بالتدخّلِ المباشَر، باتّباع استراتيجيّة جديدةٍ، تقوم على احتواء أنظمةٍ بعينها، وتفعيل برامج المساعدات، في مقابلِ الوجودِ العسكريّ، ومنح امتيازِ تكوينِ قواعدَ عسكرية، بداعي حمايةِ النُّظمِ السّياسيّةِ القائمة، ومنعِ القوى الإقليميّة المعاديةِ من الهيمنة عليها؛ الأمرُ الذي ظهرَ بوضوحٍ مع مبدأ أيزنهاور عامَ 1957، الذي استحدث مفهومَ الفراغِ السّياسيّ، لكنّه لم يتكمنْ من تحقيق أيّ نجاحٍ ملحوظ؛ بسببِ وجود قطبٍ آخر، وظهور المشروعِ القوميّ العربيّ، في منطقةِ الفراغ التي استهدفها أيزنهاور.

محاكاةُ النّموذج الفيتنامي

وكان استدراجُ السوفييت إلى شراك المستنقع الأفغاني، نوعًا من تأكيدِ فشل النمَوذج الفيتنامي، باستنساخه على الجانبِ الآخر، فبينما الجيشُ السوفياتي يعاني الأمرّين، كانت الولاياتُ المتّحدة تطوّق منطقةَ الشرق الأوسط بجملة من المعاهدات والاتفاقيّات، حيث انتشرت القواعدُ العسكريّةُ الأمريكيةُ في الخليج العربي، وأدخلت معاهدةُ كامب ديفيد، مصرَ إلى حظيرة النفوذ الأمريكي، وتبنّت الولاياتُ المتّحدةُ مقولاتِ جماعات الجهاد الإسلاميّ؛ لتأمينَ وجودها العسكَريّ في المنطقة، وتقويضِ النّفوذ السّوفياتيّ في أفغانستان.

استغلّت الولاياتُ المتّحدة، الغزوَ العراقيَّ للكويت؛ لتكريسِ مفهوم القطبِ الأوحد، الذي قاد جيوش العالمَ لتحريرِ بلدٍ مغتصب، وسرعانَ ما حلّ الوجودُ العسكريُّ في المنطقةِ بشكلٍ أكثرَ كثافة، وبغطاءٍ سياسيّ، دشّنتْ معَهُ واشنطن شرعيّةً وجودها ببقاء نظامِ صدامِ حسين (الذي قرّرت بعدَ سنوات التخلّصَ منه) وكانِ الصعودُ الإيرانيُّ في المنطقة، كفيلًا بخلقِ مشروعيّةٍ أخرى بديلة، بعدَ التخلّصِ من صدامٍ حسين.

وتبدو أحداثُ 11 سبتمبر 2001، بمثابةِ المتغيّرِ الصادم، الذي أحدث نقلةً نوعيّةً في الاستراتيجيّة العسكريّةِ الأمريكيّة، حيث شنّت واشنطن حربًا مدمّرةً على أفغانستان، ثمّ العراق بعد ذلك؛ لتبدأ مرحلةَ الوجود العسكريّ في محيطٍ معادي، على غرارِ النّموذج الفيتنامي. وتبدأُ واشنطن مرّةً أخرىَ بدفع ثمنَ هذا الوجود.

مع عودةَ الحزب الديموقراطي إلى الحكم، قامت إدارةُ بايدن بإجراء مراجعة عالميّة لنشر القوّات الأمريكيّة، ربما استكمالًا لقرارات ترامب، الذي سبق وأمرَ بسحب عاجل لما يقرب من 650 من قوّاتَ العمليّات الخاصّة الأمريكيّة من الصّومال، ونقلها إلى جيبوتي وكينيا، وسبق ذلك التوصّل إلى اتّفاق مع حركة طالبان، على سحب القوّات الأمريكيّة بحلول أيّار (مايو) 2021، لكنّ إدارةَ بايدن أرجأت الموعدَ النهائيَّ بعض الشّيء، قبل أنْ تشرعَ واشنطن في سحب جميع قوّاتها بالفعل من أفغانستان، بالتّزامن مع خفضَ عدد قوّاتها الموجودةِ في العراقَ إلى 2500 جندي.

استراتيجيّةٌ جديدةٌ للتطويق

يأتي ذلك في ظلّ خطّة أعلنتها وزارةُ الدفاع الأمريكيّة، تتعلّقُ بالشروع في خفضَ الأنظمة الدفاعيّة الأمريكيّة في منطقةِ الشّرقِ الأوسط، التي سَبقَ العملُ على تعزيزها في عامي 2019 و2020، من أجل مواجهة إيران، الأمرُ الذي يرتبطُ، ربّما، بتطورات إيجابيّة في ملف الاتّفاق النوويّ مع طهران.

المتحدّثةُ باسمِ البنتاغون، جيسيكا

العودة إلى الفهرس

ماكنولتي، كشفت في بيان رسميّ، أنّ وزيرَ الدفاع لويد أوستن «أمرَ بسحب بعض القوّات، وخفض بعض القدرات العسكريّة الأمريكيّة من المنطقة هذا الصيف»، ما دفعَ البعضَ إلى التنبؤ بأنّ الولايات المتّحدة، ربّما ستعيدُ نشرَ هذه القوّات في منطقة المحيطين، الهنديّ والهادئ؛ لكبح جماح الصين.

وزارة الدفاع الأمريكيّة، وفقاً لصحيفة، وول ستريت جورنال، «بدأت منذُ أوائل حزيران (يونيو) الفائت في سحب ثماني بطاريات مضادّة للصواريخ من العراق والكويت والأردن والسعوديّة، بالإضافة إلى درع ثاد المضادّ للصواريخ، الذي نُشرَ في السعوديّة».

وترتهنُ عمليّاتُ إعادة الانتشار التي ينفذها البنتاغون، بمعطيات عدّة، ربّما تكونُ مؤشرًا لنهج أمريكيٍّ جديد، تحاولُ من خلاله واشنطن، تجنّبَ التورّط المباشر في مناطق النّزاع، والاعتمادَ على القوّات المحليّة، مع تعزيز قدرات القواعد العسكريّة وحاملات الطائرات، ودعم قدراتها على شنّ هجمات إن تطلّب الأمر، للحفاظ على التّوازن العسكريّ، فلا زالت واشنطن تمتلكُ القدرة على تحجيم حركة الشباب الصوماليّة، وكذا تقليمَ أظافرِ طالبان إن لزم الأمر، لكنّها تتطلّع نحوَ تعزيز قدراتها في جنوب آسيا، ومراقبة الصين عن كثب، وإخلاء مناطق الرمال الناعمة، تمهيدًا للتعامل مع وضع دوليٍّ جديد، قد يشهدُ تسويةَ الصّراع في ليبيا وسوريا، وما يترتّبُ عليه من إعادة رسم مناطق النفوذ بين واشنطن وموسكو وبكين، وتفعيل وسائل الهيمنة عن طريق القوى الناعمة، مع احتواء أنقرة وطهران، وكل ذلك يتطلّبُ إعادةَ الانتشار، لا الانسحاب، حيث تقوم الولاياتُ المتّحدةُ بوضع تشكيلات أيديولوجيّة جديدة، موضعَ التّنفيذ، ترتكزُ على تخفيف الضّغط على قوّاتها العاملة في مناطق التوتّر؛ عبرَ اتّفاقيّات تضمنُ لها النفوذ، دون أن تدفعَ الثّمنَ الباهظ، الذي سبق ودفعته من قبل، وربما كان اتّفاقها مع حركة طالبان، ومحاولاتُ التوصّل لاتّفاق نوويٍّ جديد مع إيران، مقدمةً لذلك النهج الذي يقومُ على احتواء القوى الأصوليّة الأقل راديكاليّة، والأكثر قدرة على المناورة■

الشعبية

تدين الحصار الأمريكي ومحاولات زعزعة الاستقرار في كوبا

خاص «الهدف»

أدانت الجبهةُ الشّعبيَّةُ لتحرير فلسطينَ، باسمها وباسم الشّعب الفلسطينيّ بأسره، الحصارَ الأمريكيَّ الإجراميَّ الاقتصاديَّ والتّجاريَّ والماليَّ على كوبا، كما أدانتِ المحاولاتِ الجبانةَ في زعزعةِ الاستقرارِ الكوبيّ.

وأكدت الشّعبيَّةُ أنّها على ثقةٍ راسخةٍ بأنَّ المخطّطات الإمبرياليّةَ ضدَّ كوبا، سيكونُ مصيرُها الفشل. وسيبقى الشّعبُ الكوبيُّ، بقيادة حزبه الشيوعيِّ المكافح، متشبّثًا بالمبادئ الاشتراكيّة التي أرساها القائدُ الراحلُ: فيديل كاسترو، والاستمرار على نهجه في بناء مجتمع العدالة والحريّة والكرامة، مؤكّدة تضامنَها الكاملَ مع الشّعبِ الكوبيِّ الصّديق.

وعبّرت الجبهةُ، في رسالةٍ إلى الأمينِ العامِّ للّجنةِ المركزيّةِ للحزبِ الشّيوعيِّ الكوبيِّ،

ورئيسِ جمهوريّةِ كوبا، ميغيل دياز- كانيل، عن ثقتها بأنَّ الثّورةَ الكوبيّةَ ستواصلُ مسيرتَها لتحقيق مزيدٍ من الإنجازات للشعب الكوبيِّ العظيم. وكرّرت تضامنَها مع الحزبِ الشّيوعيِّ الكوبيِّ، والحكومةِ والشّعبِ الكوبيّين، في كفاحهم العادلِ في الدّفاع عن مسيرة التّنميّة الاشتراكيّة.

وأضافت الجبهةُ، في رسالةٍ حملت توقيعَ مكتبها السّياسيّ؛ أنَّهُ منذُ أن انتصرت الثّورةُ الشّيوعيّةُ الكوبيّةُ عامَ 1959، وخطَّتْ كوبا مسيرتَها الأولى، نحو الاشتراكيّة، وتحقيق العدالة الاجتماعيّة بقيادة الرئيس الراحل المناضل فيديل كاسترو؛ كرّستْ نهجًا سياسيًّا، يساريًّا، معاديًّا للإمبرياليّة العالميّة، بقيادة الولايات المتّحدة الأميركيّة وأدواتها المحليّة، وداعمًا قويًّا وصُلبًا لقضايا التحرّر الوطنيِّ والعالميّ، وبالأخصِّ منها؛ القضيّةُ الفلسطينيّةُ، والوقوفُ بجانبِ كفاحِ الشّعبِ الفلسطينيّ.

وعدّت الجبهةُ، أنَّهُ مع استمرار النّهج التّقدّميّ والمقاوم الذي كرّسَهُ الشّعبُ الكوبيُّ العريقُ في مراحل نضاله الطّويلة، بقيادة الحزب الشّيوعيِّ الكوبيِّ المكافح، حيث أصبحَ رمزًا لاستقلالِ كوبا ولسيادتها الوطنيّةِ في وجه مخطّطات التآمر الخارجيِّ والدّاخليّ؛ أخذتْ قوى العدوان والتآمر والرّجعيّة المحليّة تتكالبُ للانقضاض على المكتسبات التّقدّميّة للشّعبِ الكوبيِّ العريق، الّتي لم تألُ جهدًا للعبث بمقدّرات الشّعبِ الكوبيِّ، الّتي فشلتْ في تحقيق أهدافها.

وأشارتْ إلى أنَّهُ، «مع فشل جميع المحاولات الإمبرياليّة والرجعيّة في النيل من صمود الشعب الكوبيِّ واستقلاله، وقيادته الحكيمة المتمثّلة بالحزب الشّيوعيِّ الكوبيِّ، لجأتْ القوى المعاديّةُ إلى أسلوبِ الغدر والخيانة متمثّلةً في تحريض الشّارع، وإيهامه بالشائعات؛ ليخرجَ ضدَّ الحكومة؛ بهدف مهاجمة القيادة،

الرفيق «نييلز رويتون أرياس»

مسؤول الحركةِ الشعبيةِ البيروانيةِ في فنزويلا في مقابلة مع «الهدف»

يمكن للحركةِ الجماهيريةِ أن تهزم، لكنها - بلا شك - تنهض من جديد، و«إسرائيل» صنيعة الإمبريالية

أجرى الحوار إسحق أبو الوليد

الرفيق نييلز أرياس

البيرو إحدى الدولِ المهمة التي حرّرها سيمون بوليفار في أمريكا اللاتينيةِ من الاستعمارِ الإسباني، وشهدت منذ بدايةِ القرنِ العشرين إرهاصاتَ وتململاتِ للتخلّص من حكم اليمينِ الرجعيّ والقمعي، الذي رسّخ سلطتَهُ بعد تمكنَه من هزيمَة الثورةِ المسلحة، التي استمرت منذ نهايةِ عقدِ السبعيناتَ حتى أوائلِ التسعيناتِ من القرنِ الماضي، بقيادةِ الحزبِ الشيوعي البيرواني (ماوي)، ومن أجلِ هزيمة الثورةِ التي شملت مساحاتٍ واسعةً من البلادِ تلقّى النظامُ الحاكمُ مساعداتٍ هائلةً من الولاياتِ المتحدة والكيانِ الصهيوني في المجالين: العسكريّ والأمني.
الرفيقِ « نييلز » أسيرُ حربٍ سابقًا وأحدُ الناجين من مجزرةِ المعتقلِ الذي كان يقبعُ به، الذي قصفه نظامُ « فيجوموري » الفاشي بالطيرانِ؛ للتخلّص من الثوّار، وقد راح ضحيته عشراتٌ من القتلى في ظل التطوراتِ الأخيرة، ونجاح تحالف القوى اليساريةِ المدعوم من سكانِ الريف بشكلٍ أساسي، ولأهميةِ ما جرى في الانتخابات منَ نجاحِ مرشح اليسارِ الرفيق « كاستيوو »؛ تمكنت مجلة الهدفِ من إجراءِ حوارٍ قيّمٍ مع الرفيق نييلز.

ما أسبابُ هذا التغيّر الذي أدى إلى فوز مرشّح اليسار، هل يعزى ذلك إلى أسبابَ اقتصادية أم أسبابٍ أخرى وضع البيرو في مركز الأحداث؟

** البيرو منذ ما قبل الاستعمار، أي قبلَ القرنِ الخامسَ عشرَ، وهو في مركزِ الأحداثِ والمواجهات، لأنّه ذا أهميَة تاريخيَة، وقد اختتم بوليفار في البيرو آخرَ معاركِ تحريرِ البلدانِ التي استعمرتْها إسبانيا - وتعرفَ بمعركة أياكوشو عامَ 1824 - حيث تحقق الاستقلالُ السياسيُّ لهذهِ البلدان وبقيت تابعةً اقتصاديًّا.
أزمةُ البيرو، كما كلّ دول القارة؛ لعدم تطورها وسيطرة البرجوازيةِ البيروقراطيةَ عليها؛ ما أدى إلى نضالاتَ وانتفاضات شاملة تطوّرت إلى حربٍ شعبيّة وكفاحٍ مسلح - كما حدث في ثمانينيات القرنِ الماضي وتسعينياته - التي قادها الحزبُ الشيوعيّ في البيرو، وتدخّلت الإمبرياليةُ الأمريكية والصهيونيةُ لجانبِ النظام واقترفوا مجازرَ، وقاموا بحربِ إبادةٍ أدّت إلى هزيمةِ الثورة. بعد هذهِ الهزيمةِ تشرذمت الحركةُ الثوريةُ، لكنّها لم تتوقّفْ عن النضال رغمَ قوانينِ القمعيةِ التي حرّمت التظاهرَ، ورفعَ العلَم الشيوعي أو صور ماركس ولينين والرئيسِ ماو تسي تنغ. وكذلك منعت من رفعِ صورِ رئيس الحزبِ « إبيمايل غوزمان » تحت طائلة السجنِ مدّةَ 20 عامًا لكلّ من يخالفُ هذهِ الأوامر.
لكنّ الأمورَ لا تسيرُ كما يريدُ النظام، حيث تفاقمت الأزمةُ؛ بسببِ تعمقِ الفساد وشموليّته، خاصةً في ظلّ عدوى كورونا. وقد شهدت السنواتُ والأشهرُ السابقتيْن الإطاحةَ برؤساء، إذْ طفحَ كيلُ الأزمَة؛ فخرجت الجماهيرُ للشارع، وانتخبت المدرّسَ « بيذرو كاستيو » رئيسًا رغمَ أنفِ النظام، الأمرُ الذي لم يرقْ للبرجوازيةِ واليمين البيروقراطي البيرواني، التي ما زالت تبحث عن حججٍ وذرائعَ؛ لعدم الاعترافِ بفوزه، أي يحاولون التنكّرَ لقوانينهم التي سنّوها هم وساروا عليها سنوات طويلة! كلّ هذا لا شكّ يضع البيرو في صدارةِ الأحداثِ المحليّةِ والعالمية.

الرئيسِ المنتخِبُ من المفترض أن يشكلَ حكومةٍ ائتلافيّة يسارية، أنتم هل تدعمون حكومة كهذه؟ وما توجهاتُها السياسيّة والاقتصاديّة؟

** بلا شك، الحكومةُ القائمةُ حاليًّا هي حكومةُ اليمين حتى 28 تموز، حيث في هذا التاريخ يمكن القولُ: إنّ الحكومة التي ستتشكل هي من ائتلافِ اليسار، لكن ليس من حركات أو أحزابَ يسارية، بل من القواعدِ الشّعبيّة التي - مع الوقت - استطاعت بنضالاتها ومطالبها أن تبنيَ الحركةَ الجماهيريةَ فقرةً فقرةً وأن تتوصلَ إلى مطلب مشترك، ألا وهو تغييرُ الدستور، هذا المطلبُ تبناه وزرعه الحزبُ الشيوعي منذ البدايةِ في نضالات الحركة الجماهيرية، وقد تبنّى الرئيسُ المنتخَب، بيذرو كاستيو، هذا المطلب. وعلى هذا الأساس نحن ندعمُه ونعدُّه خطوة إلى الأمام ستساهم في توفير ظروف أفضلَ للاستمرارِ في بناءِ الحركةِ الجماهيرية، وتركيبِ فقرات عمودِها الفقري.
أريد أن أؤكدَ أن ما يحدثُ هو تغييرُ حكومةٍ، سنكون أمامَ حكومةٍ ذاتِ

العودة إلى الفهرس

الرفيق بدرو كاستيليو، زعيم حزب "بيرو الحره" الفائز بمنصب الرئيس

مواقفَ يساريّة، وليس تغييرَ النظام، الأمرُ الذي يتطلّبُ نضالا دؤوبًا من أجل الوصول لتغييرِ النظامِ الذي تقومُ عليهَ الدولة.

كيف تنظرون إلى بعض الانتصارات التي يحققها اليسارُ في بعض دول أمريكا اللاتينية؟ وما ضمانة عدمَ الارتداد عنها؟ وهل من سعي لتوحيد جهد اليسار في القارّة وتعظيم إنجازاته؟

** للشعب منطقهُ ويتمثل في النهوض والنضال والفشل، بعد الفشل ينهض مَن جديد ويناضلُ واحتمالُ الفشل قائم، أي نضال - فشل - نضال حتى تحقيق النصر. أيضًا للرجعية والإمبرياليةَ منطقُهما الذي يتمثلَ في إحداثَ الشغَب والفوضى، وعندما يفشلونَ يُحدثوَن فوضى وشغبًا من جديد ويفشلون بتكرار هذه العمليةِ حتىّ يصلوا إلى الإفلاسَ والانكسار النهائي. إننا تحدينا ونتحدى آلةَ القمع وندفعُ بالنضالات الجماهيريةِ إلى الأمامَ بكلّ ما يعنيه من تضحيات بالنفس أو الإصابة أو الاعتقال، يمكنُ للحركةِ الجماهيريةَ أن تُهزمَ، لكنها - بلا شكَ - تنهض مَن جديد، كما يحدث في كولومبيا وشيلي والبيرو، المهم في كل هذا، هو الإصرارُ وعدمُ النكوص، حيث تأتي حكوماتٌ يسارية وتبقى في إطار المواقف، ولا تغيّر البنية التي تقومُ عليها الدولة البرجوازيَة، ويمكن أن تفشل، وهذا يجب أن لا يجعلنا نيأس بل الاستمرار حتى تحقيق التحولات الجذرية العميقة في البنية الاقتصاديةَ والاجتماَعية، وهذا لن يتحققَ إلا إذا وصل حزبُ البروليتاريا إلى قيادة النضالِ واستلامِه للسلطة، غير ذلك ستبقى الحكوماتُ اليساريةُ بشكلٍ عام أداةً لتحسين شروط النضال لا أكثَر. إن حزبَ البروليتاريا يجب أنَ يتخذ من الماركسيةِ موجهًا ودليلا، وفي هذه الأيام تبني اللينينيةِ والماويةِ خطوةٌ مطلوبة.

من المعروف أن مجموعةَ « ليما » هي منظمة الدول الأمريكية في خدمة الإمبريالية، ماذا سيحدث لهذا التجمع بعد وصولِ اليسار إلى الحكم في ليما - بيرو؟

** من المعروف أن البيرو هو مركزُ اليمين في القارة، ودائمًا كانوا يحاولون الحفاظ على هذا الدور. أحدُ الاحتمالات أن يتمَّ حلّ هذه المجموعة، أو خروجُ البيرو منها، ثمّ البحثُ عن مقر آخرَ لها. هذا يبقى في إطار الاحتمَالات، أي ليس من المؤكّد أن يحدثَ هذا؛ لأنه من المعروف عن الرئيس المنتخب أنه براغماتي ولا يريد الصدامَ في المسائل الخارجية، ويريد التركيزَ على حل المسائلِ الداخلية، خاصةً الاقتصادية، وأن يتركَ الأمورَ كما هي، أي أن لا يباليَ بالموضوع.

كما هو معروفٌ القضيةُ الفلسطينيةُ حاضرةٌ ومركزية في نضالات معظم شعوب أمريكا اللاتينية، ما موقفكم من هذه القضية ومن وجود «إسرائيل»؟ وما دورُ الصهيونيةِ في أمريكا اللاتينية؟

** موقف الحزبِ الشيوعي البيرواني أن «إسرائيل» صنيعةُ الإمبريالية وأوجدوها في هذه المنطقة المهمة من العالم للَجْم نضالات شعوبها، واستعمالها كقاعدَة ارتكازٍ لهم؛ لإبقاء سيطرتهم عليها. في أمريكا اللاتينية، الصهيونيةُ بالاشتراكِ مع الإمبريالية، تموّلُ مشاريعَ محددةً وتمول أيضًا المنظمات غيرَ الحكومية وغيرها من المؤسسات والمجموعاتَ السَياسيّة؛ لتُبقيَ على نفوذها وسيطرتها على الأنظمة اليمينية في أمريكا اللاتينية. فيما يتعلّق بالقضيةِ الفلسطينية، هي غيرُ موجودة في سياسات حزب «بيرو» حرة الذي سيكون الحزبَ الحاكم، فقط هنالك إداناتٌ للمجازر التي تقترفُها «إسرائيل» ضدَّ الفلسطينيين.

قبل أن أنهي حديثي أريد أن أذكّر أننا في الحزب الشيوعي البيرواني وقفنا ضد توقيع اتفاقيات أوسلو من قبل ياسر عرفات، لأنه بهذا التوقيع يتخلى عن أهداف الحركة الوطنيّة الفلسطينية في تحرير كامل التراب الفلسطيني ويمنح الصهاينة حقوق لا يستحقونها في فلسطين ويعزز ادعائهم وزعمهم بأنهم «أصحاب حق تاريخي ورباني» في فلسطين، وهذا يثقل كاهل عرفات ويحمله مسؤولية تاريخية لما حدث وسيحدث للشعب وحركته الوطنية المناضلة■

أمريكا اللاتينية:
ترفض أن تكون الحديقة الخلفية لليانكي

إسحق أبو الوليد- كاتبٌ سياسيٌّ فلسطيني/ فنزويلا

بعدَ مغادرةِ الرئيس الجمهوريّ الأمريكيّ السابق، دونالد ترامب، للبيت الأبيض ومجيءِ ساكنه الجديد الديموقراطي جو بايدن، ساد الاعتقادُ عندَ قطاعٍ واسعٍ من السياسيّين وصنّاع القرار في معظم بلدانِ العالم، أنّ الرئيسَ بايدن سيعملُ على «القطع» مع سياسات سلفه «ونهجه»، وسيُحدث شيئًا من الانفراج في العلاقات الدولية، بما يحقّق، ولو القليلَ من العدالة لبعض الدول التي شهدت علاقاتُها معَ إدارة ترامب توترات وأزمات طالت جوانبَ عدّة، بما فيها جانبُ الثقة والتعاون، كما حصلَ حتّى مع دولٍ وحكوماتٍ تربطها علاقاتٌ استراتيجيّةٌ بالولاياتِ المتحدة، وشريكةٌ لها في أحلافِ عسكريّةٍ وسياسيّةٍ.

لقد أثبتت التجربةُ والأحداثُ التاريخيّة، أن النظامَ السياسي الأمريكي، وما يسمى بالديموقراطيةِ الأمريكيةِ، هو أكثرُ الأنظمة الرأسماليّة رجعيّةً، بل فاشيّةً، كما وصفه الأمينُ العام للحزب الشيوعي الأمريكي الرفيق الراحل غاسَ هول، في مقابلةٍ أجريت معه عامَ 1981، ولا يختلف في ذلك الحزبين، الوحيدين تقريبًا، الجمهوريّ والديموقراطيّ، اللذين يقرّران استراتيجيّةَ الدفاع عمّا يَسمى بالمَصالح الحيويّة، والأمنَ القوميّ للولاياتِ المتّحدة، ويحدّدانَ الوسائلَ والأدواتَ التنفيذيّةَ التي يجبُ استعمالُها في كلِّ مرحلة، الشّيءُ الذي يمكن أن يصحَبَهُ بعضُ التعارضاتِ بين الحزبين، لكنّها لا تؤثر سلبًا على النهج المشترك، أساس التعاون الاستراتيجيّ بينهما، ولا تعرقلُ البرامجَ الخاصّةَ لكلا الحزبين

أمريكا اللاتينية، تعدُّ المنطقةَ الاستراتيجيّةَ الأهمَ للولايات المتّحدة، التي تتولّى الدفاعَ عن نفوذها فيها بشكلٍ مباشر وتتعاملُ معَها منذُ عقودٍ " كحديقة خلفيّة" لها، تصلُ إلى درجة اعتبارِها "ملكيّتَها الخاصّة" التي بموجبها، لا يحقّ لأيٍّ من أنظمة دولها إقامةُ علاقات تجاريّة واقتصاديّة، وحرّمت عليها إقامةُ أيِّ علاقات أو تحالفات عسكريّة مع قوًى، يعدّها البيتُ الأبيض عدوًّا أو منافسًا لنفوذه وهيمنته. لهذا اغتيل المرشحُ اليساريّ التقدميّ الكولومبيّ غايتان عامَ 1948، الذي كان الأوفرَ حظًّا في سباق الرئاسة، كي لا تصبحَ كولومبيا **"قاعدةً سوفياتيّة"**، وحوصرت الثورةُ الكوبية، وكوبا والشعب والدولة؛ لأنّها أعلنت الاستقلال والسيادة والاشتراكيّة، ورفضَها لسياسة التبعيّة، ودعمَها للقوى والشعوب كافةً، التي تطمحُ للسيرِ في هذا الطريق، وحوصرَ النظامُ اليساري في شيلي منذ انتخاب الشعب سلفادور الليندي رئيسًا عامَ 1970، الذي اغتيل عامَ 1973 ، بعد أن فشلت المحاولاتُ التي بذلها البيتُ الأبيضُ كافةً في تلك الفترة لاحتوائه، ويعدّ هذا التدخلُ الأكثرَ سفورًا في أمريكا اللاتينيّة، الذي ترافق مع الإعلان الأكثر صراحة ووضوحًا لدوافعَ وأسبابَ عمليّةِ الاغتيال تلك، التي نفذتها طغمةٌ عسكريّةٌ فاشيّةٌ تحت إشراف وتخطيطِ المخابرات المركزيّة الأمريكيّة (سي آيْ إي) والموساد الصهيوني بقيادة أغوسطين بينوشت وزير الدفاع الشيلي في ذلك الوقت. جاء ذلك في تصريح لهنري كيسنجر وزير خارجةِ الولايّاتِ المتّحدة في ذلك الحينَ "لا يمكن أن نسمحَ بأيِّ نفوذٍ أجنبي في حديقتِنا الخلفيّة؛ لأنَّ

العودة إلى الفهرس

في ذكرى استشهاد غسان كنفاني: مازلنا نقف على أرضك الثابتة

أمريكا اللاتينية ليست مهمّةً للولايّات المتّحدة فقط، اقتصاديًّا، وجغرافيًّا، بلَ أكثرَ من ذلك. إنها ضروريّةٌ من أجل فرض قيادتها على العالم، والولاياتُ المتّحدة لا تستطيعُ أن تقودَ العالمَ إنَ خسرتَ حديقتَها الخلفيّة، أي أمريكا اللاتينية". إنّ هذه العقيدةَ أو هذا المبدأَ هو الناظمُ لبرامجِ الجمهوريين والديموقراطيين وسياساتهم في هذا الجزء من العالم، ويتسابق الحزبانِ على تطبيقِ الإجراءات الأكثر عدوانيّةً وفاشيّةً ضدّ أنظمة الدول وحكوماتها، التي تناضل من أجل الخروج من دائرة النفوذ والهيمنةِ الإمبرياليّة، وتطمح لتحقيقِ استقلالها وتعزيزِ سيادتها. لذا لم يكنَ حظّ ونصيبُ نيكاراغوا ونظامُها التقدميّ يختلف عن ما واجهته كوبا، أيضًا أعلنت الولاياتُ المتّحدةُ عداءَها المبكّرَ للثورة البوليفارية التي فجرها وقادها الرئيسُ الراحل هوغو شافيز، التي عانت – وما زالت – تعاني من العقوبات والحصار والتآمر، وهذا ما حدث ويحدث للحكومات التقدميّة كافةً في هندوراس والسلفادور بوليفيا والإكوادور والأرغواي والبراغواي والأرجنتين والبرازيل، حيث أطيح بحكومات هذه الدول وعادت إلى حكم اليمين الرجعي الفاشي، عدا بوليفيا التي عاد إليها اليسارُ من جديد، وممّا لا شكّ فيه، أنّ هذا ما سيواجهُهُ الرئيسُ اليساريّ المنتخبُ في البيرو الذي فاز بالانتخابات الرئاسيّة، وواجه خطرَ عدم الاعتراف بفوزه وتزوير النتائج، لولا التحركُ الشعبيُّ الفوريّ، حيث زحف مئاتُ آلاف الفلاحين وكادحي المدن إلى العاصمة ليما للدفاع عن الرئيسَ المنتخب، ورفض التزوير مما فرضَ على اليمين الرجعي وأسياده الخضوعَ لنتيجة صناديقِ الاقتراع. وكما تثبتت التجاربُ، خاصةً هنا في القارّة اللاتينيّة، أنّ الصعوبةَ الأكبرَ لا تكمن في إمكانيّةِ الوصول السلمي إلى السلطة، بل في الدفاع عنها وتحويلها إلى أداةٍ لقيادة عمليّة التغيير الثوريّة، وإجراءُ التحوّلات الضروريّة، خاصة الاقتصاديّةَ لبناء الدولة الجديدة، والمجتمع الجديد، لذا فالسلطةُ الجديدةُ تجد نفسَها في صراع طبقيٍّ معلن وصريح، "وحرب" لا تخاضُ فقط في الشارع، بلَ في المصانع والحوانيت والبنوك والمزارع تُفعّلُ خلالها القوى الإمبريالية استراتيجيّتَها الهجوميّةَ التي تبنتها منذُ أكثرَ من مئتي عام، أي منذُ قيام أوّل سلطة عماليّة (كومونة باريس)، حتى الآنَ حافظت خلالها القوى الإمبريالية على هدفها المركزي والأساسي، المتمثّل بهزيمة البديلِ الثوري الاشتراكي، أي البديل الاجتماعي الاقتصادي القائم على قوى إنتاج وعلاقات إنتاج تنهي اضطهادَ واستغلال الإنسان من قبلِ أخيه الإنسان، أي إنهاء الأساس الماديَ الذي قام عليه النظامُ الرأسمالي، وفي سياق هذا الصراع الدامي أحيانًا، طوّرت قوى الإمبرياليّة، خاصةً، الولايات المتّحدة من أساليبها الهجوميّة، ونوّعت حروبَها، وراكمت خبراتها؛ مما سمح لها أن تكسبَ معركتَها الرئيسيّة ضدّ الاتحاد السوفييتي السابق، ولكنها لم تستطعَ أن تحافظَ على زخم تطوّر قواها المنتجة، للحفاظ على موقعها كقوّة أولى مهيمنة "تقود" العالَم، ووجدت نفسَها مرغَمةً للدخول إلى مرحلة الدفاع عن نفسها في الساحة الاقتصاديّة، التي عمليًّا وواقعيًّا يُقرَّر على أرضها مصيرُ القوى المتصارعة في ساحات ومجالات أخرى، لهذا ستعمل بكلّ طاقتها السياسيّة والدبلوماسيّة (الجزرة) والترهيب والتخريب والتآمرَ (العصا) للحفاظ على أمريكا اللاتينية (حديقتها الخلفيّة) تحت سيطرتها؛ لأنّها إن خسرتها تخسر أحدَ أهمّ مصادر هيمنتها الماديّة وليس المعنوية فقط. أمّا القوى الثوريّةُ التقدميّة التي وصلت إلى السلطة، وهي تحمل راية التحرير والتحرّر والبناء الاشتراكي، منذ ثورة أكتوبر الروسيّة بقيادة لينين، لم تستطع أن تحققَ النصر النهائي على القوى الطبقيّة المحليّة، البرجوازيّة المتخلّفة، وكيلة الاستعمار التي أطاحت بها قوى الثورة، وأخرجتها من السلطة؛ بسبب ترابطها العضوي مع المركز الرأسماليّ العالميّ الذي يموّل نشاطاتها المعادية للثورة، ويوفّر لها الحماية الماديّة والمعنويّة؛ لتقومَ بدور الأداة التنفيذيّة لمخططاته، معتبرًا أنّ أيّ صدام معها هو اعتداءٌ على حريّة الرأي وحقوق الإنسان، أي على مصالحه الحيويّة؛ بهدف إعادة تأهيلها وتقويتها؛ كي تعودَ للحكم من جديد. وقد عبّر عن هذه الاستراتيجيّة بكلّ وضوح الرئيسُ الديموقراطي السابق باراك أوباما في مقابلة ختم بها حملتَهُ الانتخابيّة الثانية نهاية عام 2011 بالقول: "عندما ذهب جورج بوش إلى الحرب على أفغانستان والعراق ترك فراغًا في أمريكا اللاتينية عبأتهُ الثورةُ البوليفارية وشافيز، مما يفرضُ علينا كمهمة عاجلة ومباشرة إخراجَ شافيز وأصحابَهُ، وإعادة هذه الأماكن إلى ما كانت عليه"، وكان قد أنجز جزءًا من هذه الاستراتيجية بالإطاحة بالرئيس سيلايا في هندوراس عام 200 ، التي توجد بها أهمُّ القواعد العسكريّة الأمريكية، وقبل رحيله أطيح برئيسة الأرجنتين كرستينا كشنير عام 201 ، وبالرئيسة البرازيليّة ديلما عام 2017، بذريعة تورطهنّ في الفساد والرشوة والاحتيال، مما وضع عمليّةَ التغيير التي كانت جارية في القارّة في مأزق، خاصّةً، في ظل غياب مفجّرها ودماغها المحرّك الرئيس الفنزولي شافيز، الذي رحل في آذار عام 2012، وتوالت الانتكاساتُ حيث عادت القوى اليمينيّةُ للحكم في معظم دول القارّة، مما وضع دول المنشأ، كوبا ونيكاراغوا وفنزويلا في مأزق حقيقيٍّ، ستكون نتائجُهُ وخيمةً؛ بسبب تفاعل العقوبات مع الفساد الذي بات ينخرُ الأساساتَ التي شُيّدت عليها الأنظمة التقدميّةُ، خاصّةً، في فنزويلا.

رغمَ كل ما يحدث، ورغمَ المشهد السوداويّ وما يحققه معسكرُ الإمبرياليّة، وقوى الثورة المضادّة من انتصارات وإنجازات؛ تبقى أمريكا اللاتينيةُ مهدَ الثورات الشعبيّة الأصيلة، غير الملوّثة بالمذهبيّة أو العشائريّة والإقليميّة، وتقومُ وتفشلُ أو تنتصرُ في الحقل الحقيقيّ للثورة، أي الحقل الاقتصاديّ السياسيّ والفكريّ، وهذا يفتحُ الأفقَ والإمكانات لتبديل مركز العمليّة الثوريّة، ولكن ليس للقضاء عليه، وما يحصل في البيرو من صعود للقوى التقدميّة واليساريّة، التي تعدّ تاريخيًّا من أقوى معاقل اليمين الرجعيّ القمعيّ في القارّة وأهمّها، دليلٌ ملموسٌ على ذلك، وعلى القوى التي شكّلت التحالفَ للوصول للحكم، أن ترسّخَهُ على أساس سياسيٍّ تنظيميٍّ يضمنُ قيامَ جبهةً وطنيّةً تعزّزُ المشاركةَ الشعبيّةَ وتستفيدُ من تجارب الآخرين وأخطائهم، خاصّةً في التعامل مع المؤسّسة العسكريّة التي لموقفها وسلوكها دورٌ حاسمٌ في تقرير المستقبل، خاصةً في البيرو التي للجيش فيها تاريخٌ حافلٌ من القمع والبطش والعلاقات الوثيقة بالمؤسّستين العسكريتين: الإمبرياليّة والصهيونيّة■

تحدياتُ التوجهاتِ التركية الجديدة..
فيٍ سياقّ إعادةِ التّموضع..!

محمد صوان– كاتبٌ سياسيٌّ فلسطيني/ سوريا

أثارت السياسةُ الجديدةُ لتركيا إزاءَ جماعةِ الإخوان المسلمين والإجراءات الأخيرة بحقّ بعضهم، مثال: (سحب الجنسية، ورَفع الرعاية عن اجتماعات الجماَعة داخلِ تركيا، وإلغاء حماية المنصات الإعلامية...إلخ)، أثارت تلك التوجّهاتُ نقاشا واسعًا في أوساط النخب التركية، وعدَّ بعضٌ أن السياسةَ الجديدةَ مع جماعةِ الإخوانِ المسلمين، لا تِغيّر سوى القليل من الروابطِ التركيّة مع محيطها العربي، وأن الانخراط التركيَّ الكامل في الشؤون العربيّة – الإسلاميّة الرسميّة لا يفترضُ قطعَ العلاقة بالمطلّق مع هذه الجماعة.. بينما رأى بعضٌ آخر أن التحوّلاتِ في السّياسة الخارجيّة التركيّة العائدة إلى العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، والمتعلّقة بالقاعدة الرئيسيّة لمرحلة «ما بعد العثمانيّة»، وجدت ما يوازيها من الانفتاحِ المتزايدِ على الحوار الإقليميّ الشرقيّ والاهتمام بشؤونِه، وكانت الحجّة الأساسيّة لهذا المنحى في التفكير الجيوسياسيّ، بأنّ انتفاضاتَ «الربيع العربي» أفضت إلى تحوّلاتِ دراماتيكيّةٍ في الشرق الأوسط، ودفعت تركيا لتنويع توجّهاتها وتحالفاتِها في المنطقة.

وإذا كان السّجالُ لم يأتِ بتقويم حاسم للدور التركيّ في المجال العربيّ، فلا يمكن لأحد أن ينكرَ أنّ وصولَ حزب "العدالة والتنمية" إلى السلطة وحرصَهُ على التمسّك بها، قد عجّل بإعادةِ تموضعِ تركيا حولَ محيطها الجيوسياسي الشرقيّ، حيث كان التعبيرُ المبكرُ والأكثرُ إثارةً للجدل، هو رفضُ البرلمانِ التركيّ السماحَ للقوات الأمريكيّة باتّخاذ منطقةِ جنوب شرق الأناضول منصةً لاجتياحِ العراق عامَ 2003، كما أن تصعيدَ الضغوط ضدَّ الاستيطان والاحتلال الإسرائيليّ للأراضي الفلسطينيّة، ومن أجلِ فكّ الحصارِ المضروب على قطاع غزّة، والتزام الدفاعِ عن حقوقِ الشعبَ الفلسطينيَّ وحقهَ في العودة وتقرير المصير ، فضلًا عن نَسجِ علاقاتَ مميّزَة مع المقاومة الفلسطينيّة، تندرج كلّها في عمليّةَ إعادة توجيه للسياسة التركيّة، فالهجومُ الإسرائيلي على أسطول التضامن مع غزّة كان نقطة تحوّلٍ في علاقةٍ ملتبسةٍ أخذت بالتدهور بين "تركيا وإسرائيل" على خلفيّة الحروب العدوانيّة المتكرّرة على قطاع غزّة في أعوام " 2008 ، 2012 ، 2014 ، 2021 " وجاء قرارُ طرد السفير الإسرائيليّ من أنقرة، ثم إعلانُ حكومة أردوغان الاستعدادَ لتعزيز الوجود البحري في حوض شرقي المتوسط ؛ ليظهرَ طموحُ تركيا في السباق على الزعامة الإقليميّة من البوّابة الفلسطينيّة والعربيّة .

من الضروري التذكيرُ بأنّ عمليةَ إعادة التوازن إلى السياسةِ الخارجية التركيّةَ الأحادية الجانب الموروثةِ من الرؤية الكماليّة، أطلقها الرئيسُ التركي المؤمنُ بأنّ لتركيا رسالتين : الأولى آسيويّةٌ والثانيّة أوربيّة، وذلك نظرًا لفرادةِ موقعها الجيو استراتيجي على ملتقى القارتين الآسيويّة والأوروبيّة، وإلى قدرتها كقوّة محوريّة، الأمرُ الذي يؤهّل تركيّا - حسبَ أردوغان – للاضطلاع بدور الجسر بين القارتين، والتوسّط لحلّ النزاعاتَ والمشكلات المزمنة في منطقة الشرقِ الأوسط . وهكذا سنرى أنّه عندما تولّى حزبَ العدالةِ والتنمية

العودة إلى الفهرس

الإسلامي المنشأ زمام الحكم في تشرين الثاني 2002، شرعت السلطة الجديدة في انتهاج دبلوماسيّة نشطة تتّخذ مبادرات إيجابيّة تجاه معظم الدول العربيّة على مستويات عدّة، اقتصاديّة، وسياسيّة، وثقافيّة، مستفيدةً من تراجع الهيمنة الأمريكيّة، ومن ضعف التأثير الأوربيّ في المنطقة.

العلاقاتُ التركيّة - الإسرائيلية

استمرت العلاقة التركيّة – الإسرائيلية ترزحُ أعوامًا تحت وطأة التداعيات التي أنتجها العدوانُ الإسرائيلي على أسطول التضامن الدولي عامَ 2010، إلى أن نجحت الجهودُ الأمريكيّة بالتوصّل إلى تسوية بين الطرفين وقبول "إسرائيل" مطلبَ تقديم اعتذار، وتقديم تعويضات إلى ذوي الضحايا الأتراك "التسعة" الذين سقطوا في الهجوم الإسرائيلي، غير أنّ اللقاءات السريّة المكثّفة بين مسؤولين أتراك وإسرائيليين لم تسفر عن قبول مطلب تركيا "رفع الحصار عن غزة" ويمكن أن نسجّل هنا أنّ السياسةَ التركيّة المتشدّدة إزاءَ "إسرائيل"، وإنْ كانت لم تثمرْ غالبًا نتائجَ بارزةً على الأرض من نوع لجم السلوك العدواني للاحتلال، أو فرضَ تراجع في مسألة الاستيطان في الضفّة الغربيّة والقدس، أو في سياسة الحصار والعدوان على قطاع غزة.. ربما ساعدت بإدراك أن ما تفتقدُهُ الدبلوماسيّةُ التركيّةُ في المنطقة هو أدواتُ الضغط التي تتجاوز أسلوبَ "القوة الناعمة"، ودور الوسيط الذي يفترضُ - حُكْمًا - علاقات جيّدةً مع جميع الأطراف، والامتناعَ عن الدخول في أيّ محور إقليميّ أو الانحيازَ إلى مجموعة من الدول ،وهكذا فإن تركيا حاولت بناءَ محور إقليميّ مع مصر خلال حكم "الإخوان المسلمين"، واللجوءَ بعد تدهور العلاقة مع "مصر ، السعودية ، سورية" إلى إقامة محور مع قطر أساسُهُ الرهانُ على شبكة "الإخوان المسلمين" كقوّة إقليميّة تعوّض عدمَ استقرار العلاقات مع الأنظمة العربيّة الرسميّة، دون أن ننسى التدخّلَ العسكريّ في الأزمتين العراقيّة والسوريّة.

في أيّ حال، فإنّ موجات الانتفاضات الشعبيّة العربيّة بإطلاقها ديناميات جديدة في المنطقة، وبضمنها صعود "الإسلام السياسي" في بعض الدول بعد عامي 2011 -2019 أسهم في تقدّم النفوذ التركي، وتعاطف قطاعات واسعة من الجماهير العربيّة مع حزب العدالة والتنمية، إلاّ أن انفتاحَ الفرص أمامَ أدوار عربيّة جديدة، ولا سيما الدور المصري بزعامة عبد الفتاح السيسي، ألقى ظلالًا على الدور التركي الذي انكفأ في ملفات إقليميّة عديدة، ومنها ملف المصالحة الفلسطينيّة - الفلسطينية، الذي أصبح لمصر الدورُ البارزُ فيه، بينما تكتفي تركيا بدور المساعد، كذلك الأمر في ملف "تبادل الأسرى" بين حركة حماس و "إسرائيل"، إذ لا يزال الدورُ الأساسُ لمصر – السيسي.

في ضوء موجات الانتفاضات الشعبيّة المتواليّة أدركتَ تركيا أهميّةَ إعادة تموضعها في الإقليم، آخذةً بالاعتبار الأزمةَ الانتقاليّة الشاملة التي تهزّ المجتمعات العربيّة، والتحوّلات السياسيّة الطارئة في "مصر ، ليبيا ، تونس ، اليمن ، السودان ، الجزائر ، سورية ، ولبنان" ، كذلك سعي مصر - السيسي لاستعادة موقعها ودورها في نظام التوازن الإقليمي، ولم يعد كافيًا أنْ تبنيَ وتراكمَ الدبلوماسيّة التركيّة على بعض نجاحات عقد مضى، أو أن تقدّمَ نفسَها مصدرَ إلهام لقوى المعارضة، وأن تعمّقَ في الوقت نفسه علاقاتها بالنظم الاستبداديّة الحاكمة، ذلك أنّ هذا النمط من التموضع لم يعد ممكنًا في زمن التحوّلات الإقليميّة والعالميّة، لذلك رأينا تركيا تواجه صعوبات في التأقلم مع الوضع العربي الجديد.

الارتباك التركي.. بين مرسي والسيسي

بلغ انحيازُ حكومة أردوغان إلى جانب حكومة مرسي والإخوان المسلمين في مصر حدًّا دفع أنقرة إلى تنظيم حملة دبلوماسيّة لا هوادة فيها ضدّ الانقلاب على الإخوان المسلمين، بذريعة أن "حركة التمرّد" التي أودت بحكم الإخوان "غيرُ شرعية"، الأمرُ الذي أدى إلى تدهور سريع في العلاقات المصرية - التركية، كانتْ نتيجتُهُ القطيعة الكاملة بين البلدين.. ويذهب محللون أتراك إلى أنّ المنطق الجيوسياسي العميق للتماثل الأردوغاني مع جماعة الإخوان المسلمين في مصر درجة توحي بأن "حزب العدالة والتنمية" ربط مصيرَهُ بمصير الإخوان في مصر.

أما الحالة السوريّة فهي أكثرُ تعقيدًا؛ لأنّ الرهانات فيها لم تكن سياسيّة فحسب، بل جيوسياسيّة واستراتيجيّة، وذهب بعض المسؤولين السوريين إلى إدانة "المطامع العثمانيّة الجديدة" للسياسة الخارجيّة التركيّة.

في ظلّ هذه التطورات فتحت مناقشاتٌ ساخنةٌ في تركيا بشأن صحّة السياسة الخارجيّة لحزب العدالة والتنميّة، وعدّتْ أوساط المعارضة التركيّة أنّ الحرج الذي يظهره الرئيسُ التركي إزاءَ ديناميات "الانتفاضات العربيّة" يدل على انتهاء صلاحيّة "الدبلوماسية التركية" الأمرَ الذي يعني أن أردوغان أساء تقديرَ حالة الضعف التي كانت تعتري النظمَ الاستبداديّة العربيّة التي عمل طويلًا على التقرّب منها، وإقامة مجال شامل للتجارة الحرّة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.. وفي هذا المجال يعتقد بعض الباحثين الأتراك أن أردوغان ذهب بعيدًا في تحدي الإدارة الأمريكية وحلف شمال الأطلسي بعد عام 2017، وجاء الانتصارُ الكاسحُ لحزب العدالة والتنمية في الاستفتاء على الدستور؛ ليعزّز التوافق بشأن التزامات تركيا ووظيفتها بصفتها عضوًا في حلف الناتو، بما في ذلك ارتباطها الاستراتيجيّ بالغرب، وتعهّدها بتسويق "نموذجها الديمقراطي" في منطقة الشرق الأوسط، واحترامها وجودَ "دولة إسرائيل". وربما يكون الزخمُ الاقتصادي، مقرونًا بالاعتبارات الأيديولوجيّة والإراديّة في السياسة الخارجيّة، قد دفع قيادةَ حزب العدالة والتنمية إلى الاعتقاد أنّه يقع على عاتقها قيادة العالم الإسلاميّ الذي يمثّل العالم العربي عموده الفقري.

لقد كانت ولا زالت تركيا جاهزة للعودة إلى المسرح الجيوسياسي الذي أدارت ظهرَها له منذ تأسيس الجمهوريّة عقبَ انتهاء الحرب الكونيّة الأولى، ووجدت نفسَها مضطرّة للانخراط مع الحكومات والأحزاب العربيّة القائمة دون التساؤل عن شرعيتها.. غيرَ أنّ نجاحَ أو إخفاقَ تلك السياسة تحت الشعار المغري "صفر مشاكل مع الجوار" مرتبط بـ "الستاتيكو" أو الوضع القائم الذي بنيت تلك السياسة عليه.. ومع حلول ديناميت الأزمة الانتقاليّة العربيّة انهار "الستاتيكو" القائم في المنطقة، وسارعت تركيا لإعادة التموضع مجدّدًا دونَ خطّة محدّدة، وإلى تأييد التغيير، لكنّ انهيارَ سياسة "تصفير المشاكل" راح يظهرُ مع انفجار الأزمات مع مصر والسعودية وإسرائيل، واقتراب رياح التفكّك أكثرَ فأكثرَ من حدود تركيا..!

سد النهضة: صناعة الصراع باسم التنمية

خاص «الهدف»: تقرير

مع بَدْءِ إثيوبيا بالمرحلةِ الثّانية من مَلْءِ سدِّ النّهضة، صعّدت مِصرُ والسّودانُ من حراكهما الدّبلوماسيّ ضدّ الخطواتِ الإثيوبيّة المنفردة، التي ترى فيها مصرُ والسّودانُ مساسًا بأمنهما المائيّ.

فقد توجّهت كل من مصرَ والسودانَ، من خلالِ العضويّة التّونسيّة المؤقتة في مجلس الأمن، لاستصدار قرار من المجلس يُلزِمُ إثيوبيا بوقفِ خطواتِها الأحاديّة، ويدعو للالتزام بالوصولِ لاتفاق خلالَ ستّةِ أشهر من صدور القرار، لكنّ هذا المشروعَ لم يمرّ؛ إذ اكتفى مجلسُ الأمن ببيانٍ عامٍّ يدعو للوصولِ لتسويةٍ وعدم اتخاذ إجراءات أحاديّة من أطراف الأزمة. هذهِ المخاوفُ المصريّةُ والسودانيّة، بشأنِ الأمنِ المائيّ، لا تبدو حديثة، فغالبًا ما حاولت كلٌّ منهما إلزامَ دولِ المنبع باتفاقياتٍ وأطرٍ تضبطانِ سلوكها تجاهَ شريان الحياة الأساسيّ لكلٍ من: مصرَ والسّودان، وأبرزُها: اتّفاق عامَ 1929، واتّفاقُ عامَ 1959، الّذي جاءَ مكمّلا له.

سدُّ النُّهضة.. الجشع في التّفاصيل

تأسّسَ السدُّ العالي كمشروعٍ هندسيٍّ بدعمٍ سوفيتيٍّ، كجزءٍ من مشروعٍ سياسيٍّ اجتماعيٍّ قرّر الاستثمارَ في الإنسان المصريّ، وتطوير أنماطِ حياته وإنتاجه، ففي تفاصيله الفنيّة يعملُ السدُّ العالي لحمايةِ المصريّين من أخطارِ الفيضان، وتأمين احتياجاتِهم المائيّة، كما ينصبُّ تصميمُهُ الهندسيُّ على توفيرِ أعلى درجة ممكنة من الحمايةِ من مخاطرِ السدِّ نفسه، حيث اختار مصمّموه في كلِّ تفاصيله الإجراءاتِ الأكثر حمائيّةً وأمنًا على حسابِ تلك الأكثر توفيرًا أو ربحيّة، سواءً باختيارهم للسّعة السّطحيّة الكبيرة لبحيرةِ السدّ، أو الارتفاع المتوسّط للسدّ، منعًا لمخاطر الضغطِ الزائد أو الانهيار، فيما يبدو المشروعُ الإثيوبيُّ متناقضًا إلى حدٍّ ما، مع الشّعاراتِ المرتبطة به، وأكثر انحيازًا لفلسفةِ الشّركاتِ الغربيّة التي تنفّذُهُ ممّا هو حقٌ للمواطنينَ الإثيوبيّين، الذين دفعوا الجزءَ الأكبرَ في تمويله من جيوبهم.

إنّه مشروعٌ يستهدفُ ويتمحّورُ حول إنتاجِ أكبر كميّة من الكهرباءِ بأرخص كلفة متخيّلة، وهو ما حدّدَ شكلَ السدِّ وموضعَهُ أكثرَ من الاعتبارات التّنمويّة الطويلةَ الأجل، إذْ ينتصبُ السدُّ، كعملاقٍ حجريٍّ بطولِ مائةٍ وثمانينَ مترًا، معرّضًا لتهديداتٍ خطيرة نتيجةَ المبالغة في ارتفاعه، ومُهدّدًا، بدوره، بإغراقِ معظم الحواضرِ السودانيّة في حال انهياره، خصوصًا في ضوءِ اختيارِ موقعه على ارتفاعٍ يتجاوزُ 500 مترٍ فوقَ سطحِ البحرِ، كما لا بدّ من الإشارة لتجاهُلِ السّلطات الإثيوبيّة لآراء غالبيةٍ من الخبراء تؤكّدُ أفضليةَ السّدود الصغيرة في إنتاجِ الطاقة الكهرومائيّة الموزّعة على المشروعِ المضخّم، مثل: سدّ النّهضة الذي سيعاني من فقد كبير في الطاقة المنتجة؛ بفعلِ عواملَ متعدّدة تتضافرُ، إلى جانبِ المخاطرِ الأخرى، في تظهيرِ إشكاليّةٍ في فهمِ دورِ المشروعِ.

في الفهم السّياسيّ للتّنميّة

لا يجادلُ أقصَى المنحازين لمفهوم الأمن القوميّ العربيّ في حقِّ الشّعبِ الحبشيِّ بصناعة مصيره ومسار تنميته، وتحقيق أقصى استفادة ممكنة من موارده الطبيعيّة، لكنّ إصرارَ الحكومةِ الإثيوبيّة على المنحى الصراعيّ، فيما يتعلّقُ ببناءِ السدّ، أو عملياتِ الملء، يعطي مؤشراتٍ مهمّة حول ما يجري. وبجوانبَ متعدّدة تعدُّ مشاريعُ الاستثمارِ في المواردِ الطبيعيّة الهائلة في القارّة الإفريقيّة؛ تعبيرًا عن انحيازٍ سياسيٍّ يتعلّقُ بالنّظرة لهذا العالمِ والانحياز لأحدِ أطرافِ معادلاتِ الصّراع فيه، ففي إفريقيا الفقيرة لا تعدُّ التنميّةُ، وفقًا لمفهوم البنك الدّوليّ – الذي رفضَ تمويلَ السدِّ العالي خمسينات القرن الماضي – ومحرّكاتِ الاقتصاد الرأسماليّ، أكثرَ من وصفة لصناعة الصّراعات، ومواصلة عمليّة النّهب لمصلحة المركزِ الاستعماريّ.

فيما تبدو، هناك حاجةٌ لاكتشاف القدرة على بناءِ الشّراكات بين شعوبِ المنطقة. واحدةٌ من المسارات المطروحة للتّعاون في التّنميّةِ المشتركةِ لمصلحة شعوبِ القارّة، يتمثّل في مشروعِ الرّبطِ النّهريّ بين عمقِ القارّة والبحرِ المتوسّطِ من خلالِ نهرِ النّيل، وهو مشروعٌ يسمحُ لإثيوبيا (الدولة الحبيسة التي لا تملك أيَّ سواحل بحريّةٍ) بالاتّصالِ ملاحيًّا مع البحر المتوسط، كما ينتجُ خطًا تنمويًّا لا يقتصرُ دورُهُ على الملاحة، وهو مشروعٌ مصريٌّ – إفريقيٌّ قديم، كثيرًا ما استحضرتْهُ نوباتُ التّقارب السّياسيّ.

مخاطرُ المفهوم

يلخّصُ الخبراءُ العربُ، وبعضُ المختصّين دوليًّا، مخاطرَ مشروعِ السدِّ الإثيوبيّ في ثلاثة جوانبَ رئيسيّةٍ:

- احتمالاتُ انهيار السدِّ أو حدوث خلل فيه، بما يتسبّب بموجة مائيّة كارثيّة في تأثيراتها على السّودان، خصوصًا، وقد يصيبُ مصرَ بعضُها.
- التّأثيرُ على الحصص المائيّة لمصرَ والسودان، بما يقودُ لمخاطر الجفاف والتصحّر، وتقليصِ القدرةِ الإنتاجيّةِ الزّراعيّة للبلدين.
- استخدامُ السدِّ كأداة ابتزاز وهيمنة إثيوبيّة، من خلال التحكّم بالحصصِ المائيّة لكلٍ من: مصرَ والسودان.

ولعلّ الخطرَ الأبرزَ، الذي لم تشرْ له معظمُ الآراء المعنية بكثير من الاهتمام، يتمثّلُ بفقدانِ الدور الرياديّ لمصرَ في قيادة عمليّة التّنميّةِ الإفريقيّة، وهيمنةِ أطرافٍ معاديةٍ على هذه العمليّة، تضعُ مصرَ ومصالحَها في موقعِ النّقيضِ لها، بما يعنيه ذلك من خلقِ تنافرٍ خطِر مع دورِ مصرَ التاريخيّ، تجاهَ شعوبِ القارّة، الذي عمقتْهُ الجمهوريّةُ المصريّةُ بعدَ ثورة يوليو.

أمّا الجانبُ الآخرُ، فيتعلّقُ بموقف متزايد يدعو لمفهوم ضيّق وخطير، يصدّرُ قضيّة تنميّة إفريقيا والنهوض بها لمصلحةِ شعوبِها، كما لو كانتْ صراعًا على حصص مائيّة، فلا إشكاليّة في كمِّ المواردِ الطبيعيّة، وأخصّ المائيّة منها في القارّة، لكنّ الإشكاليّة في مقاربةِ هذه الموارد بمنطق الصّراع، وحرمانِ شعوبِ القارّةِ من فرصةِ مضافرة الجهود، ومشاركةِ المواردِ باتجاهٍ يمنحُها مستقبلًا أفضل.

تستحقّ منطقةُ القرن الإفريقيّ؛ وتستطيعُ التحوّل لبقعة تنمويّة رياديّة، من خلال موقعها الاستراتيجيّ ومواردها الاستثنائيّة، والقدرات الكبيرة التي تختزنُها شعوبُها. وإذا كانَ ثمّةَ ضرورةٌ سياسيّةٌ ومصيريّةُ اليوم، فهي وضعُ حدٍّ للتدخل الاستعماريّ والرأسماليّ في صناعة سياقات صراعيّة في هذه المنطقة، بل إنّ الأوجبَ هو تحصيلُ تعويضٍ عن الحقوق والموارد المسلوبة تاريخيًّا، من قبل المستعمر، من شعوبِ هذهِ المنطقة■

العودة إلى الفهرس

عن النّقدِ والتطور

في ندوة بعنوان: «أفكارٌ عن التغييرِ واللّغةِ العمياء»؛ نُظّمت عامَ 1968، قدّمَ فيها غسّان كنفاني مداخلةً مطوّلةً؛ نعيدُ بعضَ ما قالهُ فيها – لراهنيّته رغمَ مرور 55 عامًا على هزيمة حزيران – حيثُ يقولُ غسّان: إنّ فترات الهزائِم في تواريخ الشّعوب تشهدُ نموًّا سريعًا في الحسِّ النّقديّ؛ يتطوّرُ في أحايينَ كثيرة نحوَ تيّار من النّقمة والغضب، وممّا لا شك فيه أنّ ذلك الحسَّ النّقديّ، حتى لوِ اتّخذ صورةَ النّقمةِ والغضب؛ يظلُّ ذا طاقةٍ بنّاءةٍ لا غنى عنها.

إنّ قدرةَ الإنسان على تجاوزِ السّقوط، هي قدرتُهُ ذاتُها على الإدانة، وطاقتَهُ على تصحيحِ الخطأ، هي طاقتَهُ ذاتُها على اكتشافه. ولذلك، فإنَّ فترات الهزائم عندَ الشّعوب تتّخذُ طابعَ المراجعة الصارمة، والقاسيّة في نوع صمتيٍّ من عقابِ الذّات؛ غايتُهُ الأساسيّةُ التّزوّدُ بقدرة إضافيّة على الدّفاع عن النّفس. إنَّ تيقُّظَ الحسِّ النّقديّ في فترات الهزائم يشبهُ تيقُّظَ حواس الإنسان دفعةً واحدةً لحظةَ تعرُّضه للخطر، فهي تضاعفُ طاقتَها على الالتقاط؛ لتضاعَفَ، بعدَها، قدرتَها على المواجهة. وذلك كلُّهُ، بلا ريب يشكّل ظاهرةً بنّاءةً لا بدَّ منها ولا غنًى عنها، طالما أنَّ الحافزَ هو في جوهَرة الردّ على الخطر، والتّخلّص من الهزيمة، لكنَّ فترات الهزائم لا تشهدُ، فقط، هذا التيقظ في حسِّ النّقدَ والمراجعة، بل تشهدُ، أيضًا، ظاهرةً أخرى شديدةَ الارتباط بذلك التّيقُّظ، وهي تجاوزُ الحسَّ النقديّ لحدوده، وتحوّلَهُ إلى نوعٍ من التّنصّل عن طريق المبالغة في عقاب الذّات، وهذه الظاهرةُ هي التي تشكّلُ الوجهَ الأخطرَ في فترات الهزائم، وطالما أنّنا استعملنا مثالَ الإنسان الّذي يواجهُ الخطرَ، فتتضاعفُ قدراتُ حواسه على الالتقاط والمواجهة، لوصفَ تيقظ الحسِّ النقديّ لحدوده؛ يمكن أنْ يلخّصَ في إنسان مماثل أفقدَهُ الخطرُ المحدقُ به شجاعةَ نفاذ الحسّ؛ فأضاف إلى الخطرِ الذي يواجهُ أشباحًا من الأوهام، وأفقدَ نفسَهُ التّقييمَ الحقيقيَّ لقدراته، ثمّ، تصويبَ هذهِ القدرات.

في هذه الفترات الدّقيقة؛ تكتسبُ مهمّةُ الباحث دورًا أعمقَ ممّا كان لها في أيِّ وقتَ مضى، فهي مطالبةٌ بالتزوّد بشجاعة مضاعفة، من جهة، للقدرة على النّقد، ومن جهة أخرى، للتّمسّك بما لا ينبغي أنْ يدمَّر. والفارقُ بين هذين الجانبين من المهمّة، فارقٌ دقيقٌ للغاية، ويكفي أنْ يخطوَ الباحث خطوةً إضافيّةً إلى جانب النّقد؛ ليسقط في فوضى التّقييم، أو خطوةً إضافيّةً إلى جانبِ التّمسّك بالمعطياتِ التّقليديّة؛ ليسقط في جمودِ الاستسلام، لما أضحى غيرَ مقبول.

إنّ هذا العصر يشهد ظاهرةٌ فريدةٌ من نوعها وهي أن الغالبية الساحقة من العناصر التي تشكل جسدَ المجتمع العلمي والتكنولوجي هي غالبية شابة، وهذه الظاهرة نتاج حتمي لسرعة حركة التطور. فإذا طبقنا هذه القاعدة على مجتمعنا الذي يشهد سرعة مضاعفة في حركة التطور رأينا ببساطة كم هي خطيرة وأساسية المشكلة التي يواجهها.

إنّ استيعاب هذا التطور يحتاج بنا إلى قدرة غير عادية على التجاوب وإلى طاقة هائلة على تبديل الإطارات التقليدية لمسايرته والارتقاء معه، وهذه القدرة والطاقة تفرضها الطبيعة المزدوجة للسباق الصعب الذي نخوضه؛ فنحن من جهة نسابق تخلفنا، ومن جهة أخرى نسابق للحاق بحركة العصر السريعة■

العودة إلى الفهرس

البعدُ الشعبيّ
في أدب غسان كنفاني
فرضيّاتٌ نقديّةٌ أوليّة

د. عابد الزريعي
مديرُ مركزِ دراساتِ أرضِ فلسطينَ للتنميّةِ والانتماءِ/ تونس

تميّز غسان كنفاني ككاتب ومبدع بسمتين رئيسيّتين. تمثّلت الأولى في اتّساع دائرةِ المجالاَت الإبداَعيّة والكتابية الّتي تطرّق إليها، فمن التخطيط والرسَم إلىَ الكتابة اَلسياسيّة والبحث التاريخيّ، والكتابةِ النقديّة التي شملتَ كلّ نواحي الابداَع الأدبيّ، باَستثناء الشعر الذي لم يصلنا شيءٌ ينسَب إليه حتّى اللحظة، وقد تفاجأنا الأيّام بما لا نعرف فَي هذَا الجانب. وتمثّلت الثانية في كثافة إنتاجه وغزارته، إلى الحد الذي جعله ينشر بأكثرَ من اسم في ذات اليوم، وأحيانا فَي ذاَت وسيلةِ النشر. وتتبدّى هذه الكثافة بشكل جلي إذاً ما تمّت قراءتهاٍ بشكلٍ متوازٍ مع عمره اَلقصير الذي لم يتجاوز الخامسة والثّلاثين، ذلك جعل منه محطّ اهتمام الكتّابِ والنّقاد، وكذلك على مستوى الدرس والبحث الجامعي، حيث تمّ إعدادُ عشراتَ دراساتِ الماجستير والدكتوراه حول أدبِه، وما زال الموضوعُ مفتوحًا لعديد الأبحاث. وهيَ مسألةٌ تتجاوز في دلالاتها كونَهُ أديبًا فلسطينيًّا تمّ اغتيالهُ علي يدِ اَلعدو الصهيوني بطريقة بشعة، إلىَ القولَ: إن غسان كنفاني ترك خلفهُ منجمًا أدبيًّا عمَيق الأغوار متعدّدَ الطبقاتِ، كلما اعتقد الباحثون أنهم توصّلوا إلى عمقهِ الأبعدِ فوجئوا بطبقةٍ أخرى أكثرَ بريقًا وغنًى وكثافة.

ومن بين طبقاتِ أدبِ غسانِ كنفاني الغنيّة والخفيّة، التيَ تبثّ سحرَها وفتنتها فيٍ كلّ نصوصه، وتغري بقراءتهِ مرّةً وأخرى للمتخصّصين وغيرِ المتخصَصين، تلك الطبقةُ المنغرسةُ فيَ عمقِ الثقافة الشعبيّة. واللافت للنظر أنّ غالبَ الدراسَات لم تتوقف أمامها أو لم تنبّه إليها بما يكفي. ونستطيع تلمّسَ قشرةِ هذه الطبقة من خلال مجموعةٍ من التقاطعات المفصليّة بين روايات غسان كنفاني والحكايات الشعبيّة ببنيتها الفنيّة المعروفة. ويمكن رصد هذه التقاطعات بشكل أولي فيما يلي:

أولًا/ البناءُ الخطي الثلاثّي: غالب روايات غسان ذات بنيّة ثلاثيّة خطيّة، تمضي فيها الحكايةُ بشكلٍ متصاعد بسلاسة دون تعقيدات، منً بدايةٍ تمهيديّةً، ووسطٍ تتبدّى فيه العقدَة الدرامية، ثم إِلى نهايةٍ تتضمّن حلًّا مفتوحًا أو مغلقًا، وبعضً الالتفاتات إلى الوراء إلا في الحدود الدنيا، وبهدفِ الإضاءة على الأحداث المتطوّرة. مثل رَواية ما تبقّى لكم فإن الاشتغال على تيارِ الوعي يكاد يكون بسيطا، ويقتربُ وطرَيقةَ الحكاية الشعبيّة، التي تتبدّى من خلال التفاتاتَ الراوي بين فينة وأخرى. «ويرجعِ مرجوعنا" ثم يواصلَ الحكي. هذه البنيةُ الخطيّةُ الثلاثة في مسارها العام، تَكاد تكون أخصَّ خاصيّات الحكاية الشعبيّة على مستوى البناء اَلفنيّ.

ثانيًا/ البطولةُ الملحميّة: كأحد سمات بناء الشخصيّات في الحكاية اَلشعبيّةَ، والتي تتبدّى ملامحُها وقد نحتت مٍن منظومةِ قيم وفعلٍ ونهوضٍ وتحدٍّ. الأمرُ الذَي نتلمسه بشَكل جليٍّ في روايةٍ عن الرجاِل والبنادق، التيً ترسم صورةً ملحِميّةً لثورة 1936.

ثالثًا/ العبرةُ الباقية: فالحكاية الشعبية كحكايةٍ غائيّة، غالبا ما تترك في وعيٍ المتلقيً عبرةً سواءً بشكل مشهديٍ أو لغويّ. وهو من القوّةً التأثيريّة التي لا تجعله يعلّق بالذاَكرةِ فقط،

العودة إلى الفهرس

في ذكرى استشهاد غسان كنفاني: مازلنا نقف على أرضك الثابتة

وإنّما يضبط بشكلٍ غير مباشر مسارَ حياة. ولذلك اتّسمت الحَكاية الشّعبيّة بوظيفتها التربويّة. لقد مضت روايات غسان في ذات الاتّجاه، وجمعت بين العبرة المشهديّة واللغويّة بشكل مثير. في رجال في الشمس، وأبو الخيزران يواجه الجثث المختنقة في الخزان، وسؤالُهُ وهو يهمّ برميها على المزبلة: لماذا لم يدقوا جدارَ الخزّان؟ حامد وهو يقف منتصبًا في الصحراء، وبيده قبضة رمل في مواجهة الجند المدَجّجين، يتبادر إلى الذهن، الأرض تقاتل مع أصحابها. مشهد أم سعد في مواجهة المختار، وهي تقول: خيمة عن خيمة تفرق.. دوف في عائد إلى حيفا وهو يختم الحوار العبثي مع والدهِ بالدم: هذه المسألة لا تسوّى إلا بحرب. هذه المشاهد تبقى عالقة بالنفس والذهن بالضبط مثل نهايات الحكايات الشعبيّة .التي تبقى عالقةً في وجدان المتلقين

رابعًا/ المرونةُ الوظيفيّة: تتّسم الحكايةُ الشعبيّة، وهي تؤدي وظائفَها، بالمرونة التطبيقيّة القادرة على استيعابِ عشرات الأحداث على مسارِ الزمن. ولذلك تَبقى الوظيفةُ قائمةً، وإن تغيّر الحدثُ ذاته، الذي تدور حوله، وهذا مصدرُ بقائها واستمرارها، بل وتجاوزها الحدودَ الوطنيّة إلى العالميّة. وإذا دققنا في روايات غسان كنفاني وعلى الرغم من أنها كتبت في البيئة الفلسطينيّة، وكلّها تدور حولَ القضيّة الفلسطينيّة، إلا أنّها في دورها الوظيفيّ تتجاوز إلى العالميّة. وهي مسألةٌ تبتعد عن التضخيم، وتنحصرُ في الترسيم الدقيق البعيد عن المبالغة. لنستعيد المَشهد الختامي في رجال في الشمس سنجده مستوعبًا لكلّ مراكب الهجرة وشاحناتها، التي تدفقت في العقود الثلاثة الأخيرة في مختلف بلدان العالم، بحثًا عن الخلاص، وانتهت بشكلٍ مأساوي. لنستعيد مشاهد المواجهة على الأقل في الروايات التي أشرنا إليها، سنجد أنّها تستوعبُ كلّ عمليّات النهوض والمواجهة الإنسانيّة .على اتّساع الكرة الأرضية

هذه الملاحظاتُ الأوليّة إذا كانت مجالَ اتّفاقٍ ولو بالحدود الدنيا، تطرح سؤالًا حولَ علاقة غسان بالأدب الشعبي، ومصادر تلك العلاقة، بل هل كان معنيًا بذلك؟

نتعرّف على علاقة غسان كنفاني بالأدبِ والثقافة الشعبيّةِ الفلسطينيّة من خلال دراسته حولَ ثورة 1936، التي ركّز خلالها على التغيّر في الوعي الشعبيّ كأحد أسباب الثّورة، إلى هنا يبدو الموضوعُ عاديًّا، لكنّ غيرَ العادي أن يتلمس غسان هذا التغيّر من خلال الأمثال الشعبيّة، ملتقطًا نوعيّة الأمثال التي بات الناس يردّدونها عشيّةَ الثورة، بالقياس إلى الأمثال التي كانوا يرددونها في فترة الركود. ليس المهم هنا الإجابة على سؤال، كيف اختبر غسان ذلك تجريبيًّا، لكن المهم أننا أمام مبدعٍ يحتلّ التراث الشعبي جانبًا مهمًّا من تفكيره؟ وبالتأكيد أن من يطلّ على الأدب الشعبي لن يتوانى على الأطلال المتعمّق في مختلف نواحي الإبداع الشعبيّ والحياة الشعبيّة. الجانبُ الآخرُ في علاقة غسان كنفاني بالأدب الشعبيّ ناتجٌ عن كونه قريبًا من المخيّم الذي شكّل مصدرَ إلهامٍ لكتاباته السياسيّة والإبداعيّة، ودون الغوص في تفاصيل هذه الناحية، فمن المعروف أن شخصية أم سعد الفنيّة تعود إلى شخصيّة من لحم ودم، وكانت على علاقة وتواصلٍ مباشرٍ مع أسرة غسان كنفاني. وبالنتيجة أصبحت هذه الثقافة جزءًا رئيسًا من رصيده المعرفي، وذاكرته الوجدانية العميقة، وإذا أضفنا إلى هذه المسألة اختيارَ غسان لأن يكونَ أديبًا ملتزمًا بقضايا شعبه الذي يخوض معركةَ تحرّر وطني، ندرك أنّ الوعيَ والمعرفةَ بالثّقافة الشعبيّة ليست حليةً بالنسبة له، وإنمَا أداةُ فعلٍ وتعبئة جماهيريّة. وفي هذا الجانب يمكن أنْ نجدَ إجابةً على سؤال: لماذا يبقى أدبُ غسان كنفاني متجددًا دومًا؟

ونختم بأنّ ما طرحناه ليس سوى ملاحظات أوليّة تحتاج إلى بحثٍ تفصيليٍّ أكثرَ عمقًا وتدقيقًا■

غسان كنفاني.. أدبُ لُزومِ ما يَلزَم!

مروان عبد العال– قياديٌّ وروائيٌّ فلسطيني/ لبنان

(ينبثقُ موقفي السّياسيّ من كوني روائيًّا، فشخصيًّا. لا أعتقد أنّ من الممكن الفصل بين السياسة والرواية. ولا شكّ عندي في أنني التزمتُ سياسيًّا لأنّني روائيّ، لا العكس، فقد بدأتُ كتابةَ قصّة حياتي الفلسطينيّة قبل تحديد مواقفي السياسيّة، وقبلَ الانضمامِ إلى أيّ منظمة).. «غسان كنفاني» من مقابلةٍ نادرةٍ أجراها معه «ستيفان ويلد».

1

لا بدَّ من فحص «لزوميّات» العلاقة بين السياسيّ والروائيّ، وبين أسبقيّة الموقف السياسيّ وقصّة فلسطين، بين ثنائيّات الأدب المقاوم وأدب الحداثة، ولكن من زاويةٍ أخرى، وبلغة أخرى. حينما يقول غسان: «التزمتُ سياسيًّا لأنّني روائيّ»، وليسَ العكس، لم يكتب بقرار سياسي! فماذا لو وضعنا القولَ ضمنَ فرضيّةِ الزمنِ المعاصر؟ ربّما سيدفعنا للولوجِ في معنى الحداثة الحقيقيَّة، من يكتب من؟ وأيَّ أدبٍ سيكتب؟ ولمن سيكتب؟ وما علاقةُ الكتابَة بالواقع؟ وكيف يرسم الأديبُ طرقًا ومعالمَ وإيحاءاتِ خيالٍ وأسئلة؛ لنسألَ عن أدبِنا العربيّ عامةً ومواءمته للعصر وتطوّر الحياة ذاتها، وإنجازاتِ البشريّة الهائلة، وارتباطًا بثنائيّاتِ الثابتِ والمتغيّرِ، والحداثةِ والأصالةِ؟

ولا غلوَّ في القول: إنّ أدبَ الحداثة نتاجُ الآخر؛ لنضعَهُ في معادلة إقصائيّة بين أدب حديث وآخرَ قديم، بين أدب مقاوِم وآخرَ غير مقاوم! وانطلاقًا من الجذورِ التاريخيّةِ لهذا النوع الأدبي، وتكوينه في حالة زمانيّة محدّدة، وبعيدًا عن الفهم المشوّه، الذي يفتعلُ الانفصام، الذي يصلُ إلى حدِّ الاستلاب، والتنكّر للهُويّة الوطنيَّة والقضايا المعاشة. وبين الحداثة الحقيقيّة - استنادًا إلى أدبَ المقاومة المحدّثة دونَ اجترار أو تقليد أو تكرار أو تلاعبَ بالمفردات، وتحويرَ المعاني، وتشويه الدّلالات، وبالمقاربة مع الرّؤيةِ التأصيليّة التي جسّدها غسان كنفاني للأدب الملتزمِ «المقاوم» – وما بُنيَ عليها من التزامٍ ما ليس يلزم في نظام يفترضُ لزوميّات «أبي العلاء المعرّي» من خاصيّات تحليليّة وجماليّة وتوجيهيّة؛ من موقعه كملتزم في التّيار الثوريّ الفلسطينيّ الّذي ميّز جيل ما بعدَ النكبة، في مقاومتِه المطلقة للاحتلال، وللهيمنة الاستعماريّة والرجعيّة. إذْ إنّهُ شكّلَ نموذجًا للكاتبِ الملتزم بقضايا مجتمعه، والانتماء إلى الطبَقة التي تقفُ في الصفِ العالي من البؤس، كما سمّاها، التي تحمي المقاومة؛ لأنّها مادةُ الثّورة والأكثرُ تضحية. ومن موقعه المناصر الجدّيّ لكلّ أشكال المقاومة والثّورات التحرّريّة في العالم، مُدركًا رسوخَ العلاقة بعمقه العربيّ، وامتداده الانساني. هكذا كان أبطالُ رواياتِه أيضًا.

2

قامت حملةٌ من أقلام صفراءَ متنوّعة الخطوط ومدفوعة الأجْر، تناصبُ العداءَ لأدب المقاومة، باعتباره «أدبًا خشبيًّا»! وقد أكلَ الدّهرُ عليه وشرب؛ تمهيدًا لفسح الطريق لتمرير موسم ثقافات التطبيع والسقوط والهزيمة وامتهان الكرامة. هكذا صار أدبُ لزوم ما لَا يَلْزَم! والقصدُ تجويفُ الأدب المقاوم من التزامه وتعبيره عن هُويّته وقضيته؛ تمهيدًا لاختراقِ العقول باللّغة العائمة والمائعة، والبَدْء بتسويق «أدب ما بعدَ المقاومة»، مستعيرًا ليس بالشكل وحسب، بل بفحوى ما سمّي «بالأدبِ ما بعدَ الحداثويّ»! وأدواته، من مدخلِ

العودة إلى الفهرس

في ذكرى استشهاد غسان كنفاني: مازلنا نقف على أرضك الثابتة

المقاربة فيما أثارته موجةٌ فكريّةٌ معاصرةٌ عن «أدب ما بعدَ الاستعمار»؛ من هنا يأتي الاتّكَاءُ على غسان كنفاني كأديبٍ ملتزم رَصَدَ تحوّلاتِ الواقع، وارتباطَهُ بالعَمل الثوريّ، وتكريسَ أخلاقيّاته. من هَنا يأتي السؤال عن أدب المَقاومة (وهو المصطلح الذي وضعَهُ غسان كنفاني)، بعدَ كل مرحلة يكتشفُ فيها ميّزة الإبداع في زمنٍ «الاشتباك» الحقيقيّ مع الاحتلالَ، والتزامه الموضوعيّ بحريّة التأويل. وليس لَلمصطلح فقط، دُفعَت أنظارنا نحوَ القصائد والرّوايات والقَصص التي ما زالت عالقَة في أذَهاننا كقَاموس؛ بحثًا عن معنى النضال حتّى في الأدبً والحياة، فنستعيد معَ غسان كنفاني، محمود درويش وسميح القاسم وحسين البرغوثي... وإلخ، في محاولةٍ - ربَّما - لاستعادة تلك الروح التي تبعًث نبضَ الثورة، ولكنّنا في الحقيقة نطرحُ ذلك السؤال الذي طرحَهُ غسان كَنفاني، في دراسته «الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الَاحتلال» عن تطوّر الشّكل الفنيّ في قصائد شعراءِ الأرضَ المحتلّة، في فترات زمَنيّة متباعدة. إذن، فبالتالي إلى أيِّ حدٍّ تطوّرَ هذا الأدب؟

– إلى حدِّ عدم تصنيفِه، تحت اسم «أدب المقاومة» بلَ لأخذ معناه الحدَاثوي، وبالتالي ما هو أبعد، أي أنْ يصبحَ الفنُّ بحدِّ ذاته مقاومةً رغمَ تعدّدِ مواضيعهِ الإنسانيّةَ.

3

تحديثُ أدب المقاومة، يظلُّ اللزومُ الذي يلزم، الذي لَا بدَّ منه، بعيدًا عن «الأدلجة» التي أضحت اليوم نوعًا من الجمود لا يقبلُ سواه، بل يَئِدُ كلَّ «بدعة» خارجَة عن المألوف، وعن المفاهيم النمطيّةً. وانطلاقًا من «نظريّة الرواية» للناقد المجري جورج لوكاش، الذي استند إلى مبدأ «البنيّة الديناميّة الدالّة» في تحليله الأدبَ حولَ استجابته للتغيّرات التاريَخيّة الحاسمة، والتحوّلَات الثوريّةَ الديمقراطَيّة، لبناءِ الإطارَ النقديَّ لدراسة علاقة الأدبَ بالواقع وبالتحرّر الوطنيَّ، أو بالأمّة والهُويّة الوطنيّة، أو بالمقاومة عمومًا، وكذلكَ في فهم كيفيّة توظيفه مفاهيمَ مرحلة ما بعدَ الاستعَمار. كماَ بيّنها بشير أبو منة في كتابِه المرجعي (الرواية الفلسطينية - من سَنة 1948 الى الحاضر)» الصادر حديثًا عن مؤسّسةِ الدّراساتِ الفلسطينيّةَ، الذي يرصدُ فيه علاقةَ الأدب بالتاريخ، والمثقّف بالسياسة في التحريض، الذي تتّخذ الذاكرةُ جزءًا أساسيًّا منَه، ودورَ الأدب في مقاومة الهَزائم التي لا تزالُ رواسبُها عالقة فيها، والدفع بأسئلة التغيير المَلحّة والحرجَة في آنَ. ولعلَّ محمود درويش في قصيدته «طباق» إلى إدوارد سَعيد، يلمّحُ إلىَ البعد الإنسانيّ لطبيعة الأدب ووظيفته؛ ليطرحَ سؤال الهُويّة: الهُويّةُ بنتُ الولادة لكنّها «إبداع صاحبهاَ»، وهنَا بالطبع يَأخذنا درويش نحو التساؤل عن: من نحن؟ فربّما نكتشف الأبعَاد الأخرى لهويتنا لهُويّتنا أو لفلسطينيّتنا التي تصيغها كلَّ مرّة، أسئلة الحياة والِاشتباكُ معَها كجزءٍ منَ الاشتباكِ مع الهَويّةِ واستنطاقِها؛ لتقولَ أشياء جديدةً كلَّ مرّة.

4

هناك من يعدُّ نظريّةَ ما بعدَ الاستعمار هي من أسّست لفكرةِ ما بعدَ الحداثة؛ لأنّها هي التي تتجرّأ الآن، وتطرحُ الأَسئلةَ الفلسفيّةَ الكبرى، وتحاولُ تفكيكَ الأيديولوجيّاتِ المسيطرة، لذلك لا بدّ من تنويه عندما يُستخدم مصطلحُ «أدب ما بعدَ الاستعمارَ»: علينا الانتباهُ للقصد من استخدامه، أحدُهما يعني أنّ الاستعمارَ قد انتهى، ولم يعد هناك أدبُ مقاومةَ البتّة، وأنّهاَ مجرّدُ لغةِ الماضي، ونوستولوجيا القهر التي يستعانُ بها لاختراع أدبٍ مقاومة! والأخرُ يرىَ أن الاستعمارَ الحديث، يكشفَ نفسَهُ بطرقٍ تختلفُ عن الماضَي، من خلال أشكال سيطرة غير مباشرة، مثل: اختراق الثقافات، واحتلال الوعي والعقل والإرادة، وعوَضًا عن استهَداف الأشكال المباشرة. ولذلك لا بدَّ من «الحقيقة المعياريّة» بالعودة إلي أصل الصَّراع، بينَ المعتدي والمعتدى عليه، أو سؤال ذلك الاشتباك مع العدو كلّما عادَت المواجهاتُ من جديد، وعادت القضيّةُ الفلسطينيّةُ إلى مركزها الحقيقي، فتعود معها صورةُ الفلسطينًيّ الحقيقيّة. وأيضا السؤال عن معنىَ الفنِّ والأدب في مواجهةِ الصورةِ الأخرى التي يريد العدوُّ التّرويجَ لها.

وعندَ التوغّل أكثرَ في جدليّة الالتزام والإلزام، نجد من النقّاد مَنْ كتبَ عن الأدب القضايا، البعَيدِ عن أدب الإلزَام، وعَدَّ الكثيرون منهم الآنَ الالتزامَ يعني أدبَ القضايا الكبرى، إنّما الإلَزامُ يشكّلُ عائقًا أمام تطوّرِ القصيدةِ والأدب؛ في حين تحدّث الآخرون عنه كجزء من الحياة ومن العالم ومَن الشعرِ. وقد أصابت حقّا الشاعرةُ والناقدةُ البولنديّةُ «شيمبورسَكا» في قصَيدةٍ لها تصفُ الشعرَ السياسيّ بعنوان أطفال العصر: نحن أطفالُ المرحلة/ المرحلة سيًاسيّة/ كلّ قضاياك، قضايانا، قضايَاكم/ هَي قضايا سياسيّة/ تريدُ أو لا تريد/ جيناتُك لها ماض سياسيّ/ الجلدُ له ظلّ سياسي/ والعينانِ مظهرٌ سياسيّ/ما تتحدث عنه له رنين/ مًا تصمتُ عنه له إيحاء/شئتَ أم أبيت سَياسيّ/حتى وأنت تمضي في الغابة/تضع خطوات سياسيّة/ على قاعدة سياسيّة/ القصائدُ غيرُ السياسيّة هي سياسيّةٌ أيضا/وفي الأَعالي ينيرُ القمرُ/ هذاً الموضعَ لم يعد قمريًّا/ أن تكون أوَ لا تكونَ هذا هو السؤال/ ما هو السؤال أجبني يا حبيبي/ لسؤال سياسيّ.

تضعنا هذه القصيدةُ أمام سؤال آخر أكثر عمقا، هل كلُّ ما نكتبُ هو سياسي؟ وتجيبنا شيَمبورسكا أن الأدب غيرَ السياسيّ هو سياسي؛ لأننا في مرحلةِ سياسيّة، وفي هذه المرحلة، كل ما نسأله عن حياتنا الشخصيّة، عن الحريّة والحًب واللغة والحزن والفرح والحياة بكلّ ألوانها كجزءَ من المقاومة والسياسةَ التي تشكّلناَ. إذنْ، فَربّما تكون القضَايا الصغيرةُ التي ركًزنا عليها في الأدب مؤخَرا هي جزءٌ من

قضايانا الكبرى، إذْ ربّما لم تعد هناك حدودٌ فاصلةٌ برأي شيمبورسكا التي كتبت عن الحبِ كما كتبت عن الحرب.

6

إذنْ، فمن الأهميّة معرفةُ النظريّات الأدبيّة والنقديّة التي رافقت مرحلةَ «ما بعدَ الحداثة»، حيث كانَت نظرية «ما بَعد الاستعمار»، ولاَ سيّما أنّ هذه النظريّةَ قد ظهرت بعدَ سيطرة البنيويّة على الحقلِ الثقافي الغربي، مما أعَطى مفهومًا على أنّها أطروحةٌ في خدمةِ علم الاستغراب. في محاولةٍ لقيام الثقافة الغربيّة وقيمها بتهميش للثقافاتِ المختلفة الأخرى؛ لإلحاق مختلفَ الثقافات التي تأثّرت بالعمليّة الإمبرياليّةِ مَن لحظة الاستعمار حتى «العولمة»، وتقدّم الفكرَ في مقاومة الخطابِ الاستعماري، وتفكيكَ مقولاته المركزيّة التي تعبّر عن الغطرسةِ والهيمَنةِ والاصطفاءِ اللونيّ والعرقيّ والطبقيّ، باستعمالِ منهجيّةِ التشتيتَ والفضحِ والتعرية. لذا، فقد وجد كُتّابُ نظريّة «مابعد الاستعمار» في تفكيكيّة «جاك ديريدا» آليّةً منهجيّةً لإعلانِ لغة الاختلاف، وتقويض المسلّمات الغربيّة. هنا نرى الأدبَ الذي استمدّ قوتَه من أطروحةٍ إنسانيّةٍ بديلةٍ، جسّدتها رواياتٌ كثيرةٌ في الغرب، وفي مركز الامبريالية؛ التي كَتبت عن قضايا واسعة وإنسانيّة، تلقي الضوءَ على نقدِ الحروبِ العدوانيّة، والجشع الرأسمالي والعنصريّة، وفساد الدولةِ والسياسةِ الإمبرياليّة عمومًا، مثل روايةِ «العمَى لخوسيه ساراماغو» التي تتحدّث عن قضيّةٍ وجوديّةٍ وإنسانيّة، لكنّها تلمّح عن الكثير من فساد السياسة في مواجهة وباء يفتكُ بالبشر. ساراماغو الملتزمُ سياسيًّا كتب رواياتٍ ملتزمةً إنسانيًّا، حيث استفزّنا بالأسئلة إنسانيّةٍ ووجوديّة عن السياسة.

في كتابه سياسةُ الأدب، يذكر الفيلسوفُ الفرنسي «جاك لانسيير»، أن أرسطو حين قال: إنّ البَشرَ هم مخلوقاتٌ سياسيّة، إنما كان يشير إلى أنهم وحدهم بين الكائناتِ الذين يمكنهم الحديث عن الظلم والعدل، بينما لا تستطيع بقيّةُ المخلوقاتِ إلا التعبيرَ عن اللذة والألم، ويحذرنا أن نخلط بين السياسة وممارسة السلطة، ويقول إن السياسة هي المَجال الذي يفترضُ وجودَ أغراض عامّة تهمُّ الناس، ووجودَ أشخاصٍ قادرين أو يفترض أنهم قادرون على تحديدِ هذه الأهداف.

7

التحديثُ؛ هو إضافةٌ وشكلٌ من أشكالِ الإبداع، لذلك يتوقّفُ على أدبِ المقاومة لزومُ التعريف المحدّد للحداثة، وما يلزم كموقف فكريٍّ مقدّمًا؛ وعلى كلِّ حال، ليس هناك حداثةٌ واحدةٌ، بل حداثات، كما أنّ بعضَهم يعترفُ بالعجز عن مواكبةِ نظريّةِ الحداثة، ويقدّم أطروحةً جديدةً حولَ «الاستعماريّةِ الحديثة»، تلك التي تتقنُ فنَّ السيطرةِ على التقنيّات، والوقت والفضاء، والتصنيفاتِ والمعاني. في مواجهةِ أولئك الذين يؤكّدون أنّه «قد رحلَ الاستعمار» لذلك علينا التفكيرُ بأدبِ ما بعدَ حداثيّ! قد يكون مدخلًا لإعادة تشكيل الاستعمار على نحو إيديولوجيٍّ واستغلاليٍّ واستلابي، وكذلك كغطاءٍ روحيٍّ لاحتلالٍ عسكريٍّ، إذا كانَ ذلك ممكنًا، مثل الحروب العدوانيّة للولايّات المتّحدة على مناطقَ متعدّدة من العالم، والعدوان الصهيونيّ المستمرّ على فلسطينَ، خصوصًا، والمنطقة عمومًا. وهناك أحيانا أسئلةٌ أخرى تاتي من خلال قراءة قصائد شعراءَ كثيرين عن الوطن، فتأتي القصيدةُ وكأنها لغةٌ غيرُ مألوفة عن موضوعٍ مألوف، كما هي حالُ الكتابة الجميلة، مهما كان موضوعُها، ففي قصيدة وطنيّ للشاعر السوري محمد الماغوط، مثلاً، هناكَ لغةٌ جديدةٌ حيث يقول: على هذه الأرصفة الحنونة كأمي /أضع يدي وأقسم بليالي الشتاء الطويلة/سأنتزع علم بلادي عن ساريته/ وأخيط له أكماما وأزرارا/ وأرتديه كالقميص/إذا لم أعرف/في أي خريف تسقط أسمالي/وإنني مع أول عاصفة تهب على الوطن / سأصعد أحد التلال/ زأقذف سيفي إلى قبضة طارق/ورأسي الى صدر الخنساء/وقلبي إلى أصابع المتنبي... في هذه القصيدة يستغرقُ الأدبُ في السؤال عن الوطن، الذي يغدو سؤالا يوميًا بتحويلِ العَلَم الوطني إلى قميصٍ، حيث يتحوّل من رمزٍ إلى لغةٍ يوميّةٍ تحيا معنا كلَّ يوم.

8

تظلُّ لزوميّاتُ التجديدِ في الأدبِ مهمّةً إذا لم تنحرفْ عن وظيفةِ الأدب. وما لا يلزمُ هو التوهّمُ أنّه يمكنُ تحقيقُ التحديثِ بنبذِ السياسة! وفي حالةِ التحرّرِ الوطنيّ يستحيلُ الفصلُ موضوعيًّا بينَ ما هو سياسيٌّ وما هو غيرُ سياسيّ، ويحضرني قول شيمبورسكا مرّةً أخرى، الذي أوضحه لانسيير، ويأتي جمالُ ما نسميه بأدب المقاومة، هو الذهابُ إلى أبعد أحيانا، إلى لغة لا نراها كلَّ يوم. الأدبُ خارجَ السياسةَ لا يعني أنّه خارجَ الالتزام، واللامقاومة تعني سياسةَ القَبُول والإذعان، وكلُّ أدب يتحوّل إلى بوق استعماريّ، وسلاحٍ ناعمٍ لتبرير الاستعمار، وتفسيرِ لروايته، يُستخدمُ كطلاءٍ لتزيين الاحتلال ولسترِ العورات الاستعماريّةِ الحديث؛ هو أدبٌ سياسيّ! وهذا وإن سُمّي مجازًا أدبًا، لكنّه أدبُ ما يلزمُ العدو. ونشاهدُ المثل الفظيع، حين يقوم البعض بتجاوز «معنى النكبة» تلك التي كتبها يومًا «قسطنطين زريق»، والهروب من سؤال النكبة، وحذف كلمة النكبة، كممارسةٍ ثقافيّةٍ مضادّة، دالّةً على حذف اسم فلسطينَ من الخارطة! وكما تقولَ المؤرّخة « روز ماري صايغ» إن ما يدعو للقلق هو أنّ حذف النكبة ومعاناة الفلسطينيّين يشيرُ إلى خللٍ أعمقَ في صيرورة استبعاد الاستعمار، في أشكاله ما قبل الحديثة، وكذلك الحديثة، كمسبّب رئيسيّ للمعاناة في العالم المعاصر. ينطوي استبعادُ النكبةِ ضمنَ إطار العمل الأشمل لعدم الاعترافَ بالعنف الاستعماريّ في الماضي والحاضر. نعم، نحن نحتاج إلى ذلك الذي يسردُ حكايتَنا! وهنا أتذكر ما قاله الكاتب الأسير «وليد دقة» في معرض حديثه عن كتابته: أكتب كي أتحرر من السّجن على أمل أن أحرره مني.

فربّما، يأتي ذلك الوقت، (وهو مختلفٌ في حالةِ كلِّ كاتبٍ وإنسان) الذي يحرّرُ فيه كتابتَهُ من الأشياء والأسئلة والحالات التي كتب عنها سابقًا؛ لأنّ كلَّ أدبٍ صادقٍ هو أدبٌ ملتزم، وكل أدب ليس معزولًا عن المجتمع، هو أدبٌ مقاوم، حداثتُهُ في النّخبة التي تعايش تَجْربَة العصر من داخله، لا خارجه، وتعكسه أعمالًا إبداعيّةً تتوخّى التّغييرَ وترسيخَ الجديد ونفيَ الفاسد. وبهذا المعنى، فإنّ الأدبَ الملتزمَ بحدِّ ذاتهِ ثورةٌ حقيقيّة■

العودة إلى الفهرس

غسان كنفاني..
زهرةُ الشعبِ المقاتل

د. أحمد الخميسي– قاصٌ وكاتبٌ صحفيٌّ/ مصر

عاش غسان كنفاني ستةً وثلاثينَ عامًا فقط، وما زال يثير الدهشةَ ذلك العطاءُ المتنوّعُ خلالَ عمرٍ قصيرٍ بترته عبوةٌ ناسفةٌ في صيف 1972. نحن أمامَ قاصٍّ، روائيٍّ، مسرحيٍّ، مفكرٍ ثوريٍّ، مقاتلٍ في صفوف الجبهة الشعبيّة، صحفيٍّ، كاتبٍ سياسيٍّ، رسّام، كاتبٍ مسرحيٍّ، بل واستعمَلَ النحتَ والشعر، غيرَ ما تركه من دراساتٍ نظريّةٍ غايةٍ في الأهمّية. كانت حياته القصيرة المتوهجة بإبداعه أقربَ إلى عاصفةٍ خرجتْ من مخيّمات نكبة 1948؛ لتعبّرَ عن الكرامة والوطن، وتحمل معها إلى العالمِ صورةَ المخيّمات، وقضيّةَ شعبٍ سُدّت أمامَه كل الأبواب، فلم يبقَ له سوى دخولِ التاريخ برأسٍ ثابتٍ كالرمح؛ لأنّ الوطنَ لا يُستبدل بشيءٍ آخر.

يقول كنفاني في رسالة له: "حاولت منذ البَدْء أن أستبدلَ الوطنَ بالعمل، ثم بالعائلة، ثم بالكلمة، ثم بالعنف، ثم بالمرأة. وكان دائمًا يعوزني الانتسابُ الحقيقي.. كنت أريد أرضًا ثابتةً أقفُ فوقها"، ولم يرَ كنفاني أرضًا سوى أرض الوطن، لذلك يكتبُ في إحدى رسائله: "سأظلّ أناضلُ لاسترجاع وطني؛ لأنه حقّيَ وماضيَّ ومستقبليَ الوحيد، لأن لي فيه شجرةً وغيمةً وظلَّ وشمس تتوقّد وغيومًا تمطر"، ورافقته فلسطينُ أينما ولّى وجهَه، وأينما عاش، في الكويت عام 1956، وفي بيروت 1960 حيث عمل في جريدة "الحرية" ثم حين ترأس تحرير "الهدف" مجلة الجبهة الشعبية، إلى أن هوى النجمُ العالي يوم سبت 8 يوليو عام 1972، في لحظة ما زالت الذاكرةُ تستعيدها بلا نهايةً بصفتها ميلادًا متجدّدًا لغسان الذي لا يموتَ.

ظهر غسان في اللحظة التي خيّم فيها ظلامُ الهزيمة على المنطقة العربيّة بعد نكسة 1967، وبزغ مثل الأجراس التي تقرع وتبشر بالصمود والمقاومة والأمل، وشكل ثورةً أدبيّةً وفكريّةً مع محمود درويش وناجي العلي، هزّت الضمائرَ وأفسحت للنور مجالاً. لست هنا في مجال استعراض أعماله الأدبيّة، لكنني أذكّر بها فحسبَ: مجموعتان قصصيتان "موت سرير رقم 12" عام 1961، و "أرض البرتقال الحزين" عام 1963، وفي تلك المجموعات قفز كنفاني بفنّ القصّة القصيرة الفلسطينيّة، التي بدأت معَ الرائدة سميرة عزام قفزةً كبيرة، كما ترك لنا ثلاث مسرحياتٍ هي: "الباب" و "جسر إلى الأبد" عام 1965 ، و "القبعة والنبي" في 1967، ثم أضاف إلى إنتاجه الروائي ثلاثَ رواياتٍ أخرى هي "ما تبقى لكم" و "أم سعد "، و "عائد إلى حيفا "، غيرَ روايته التي أيقظت الضمائر "رجال في الشمس" عام 1963 وأشعلت الوعي بالقضية الفلسطينية عن طريق الأدب، هذا علاوة على أربع كتب مهمة هي: "الأدب الفلسطيني تحت الاحتلال" ، "المقاومة ومعضلاتها" ، و"ثورة 1936"، وأخيرًا كتابه المهم للغاية "في الأدب الصهيوني"، وفيه يقوم كنفاني بتحليل التوجّهات الصهيونيّة الأدبيّة المبكّرة، وفكّ عقدة من خيوط تشابكت فيها مفاهيمُ "القومية"، و"الدين"، و"اللغة" عند الحركة الصهيونيّة. وبدايةً، يشير كنفاني إلى أن اللغةَ العبريّة لم تكن سوى لغة طقوس دينيّة، حتى أنّ عددًا كبيرًا من اليهود كانوا ينطقون التراتيل ولا يفهمون معنى كلماتها، لكنّ الحركة الصهيونيّة حولتها إلى مرادف للقوميّة، خلال اختلاق قاعدة عسكريّة تخدم الاستعمار. ويقول في هذا السياق إن: "الحركة الصهيونية قاتلت بسلاح الأدب قتالا لا يوازيه إلا قتالها بالسلاح السياسي.. وليس من المبالغة القول: إن الصهيونيّة الأدبيّة سبقت الصهيونيّة السياسيّة". وعندما يستخدم كنفاني مصطلح "الأدب الصهيوني" فإنه يعني الأدب المكتوب بأي لغة سواءً العبرية أو غيرها، وسواءً كتبه أدباءُ يهودٌ أو غيرُ يهود، طالما كان ذلك الأدب يخدم حركة الاحتلال والاغتصاب. وهنا من الضروري التوقف عند حقيقةٍ واضحةٍ، وهي أنّ التاريخَ الإنسانيّ لم يعرف قطّ قوميّة تشكّلت في سبعين عامًا أو حتى في قرن من الزمن. وثمّ، فإنّ الحديثَ عن "أدب إسرائيلي" حديثٌ مغلوطٌ من الأساس؛ لأنّ الأدب وثيقُ الارتباط بالقوميّة، كما لم يعرف التاريخُ ابتعاث لغة ميّتة بصورة مفتعلة لتمكين الوهم العقائديّ بحقّ مزعوم في أوطان الغير. وهكذا يضع كنفانيّ يدَهُ على أننا لسنا إزاءَ "قوميّة" ولا نحن إزاءَ "لغة". ما هو الأدب الإسرائيلي إذًا؟ إن كان الأدبُ، كلّ أدب، يتحدّد وَفقًا للغته؟ وإن كنا حين نقول "الأدب الإنجليزي" فإننا نشير إلى اعتماده على لغته أساسًا، وكذلك الأدب العربي، والفرنسي. اللغةُ هي العاملُ المحدّد، وعمليًّا لن نجد "لغة" بهذا المعنى في إسرائيل، لكنّ اللغات التي جاء بها المستوطنون من مختلف أنحاء العالم. ولذلك كما يشير كنفاني، فإنّ معظمَ الأعمال الأدبيّة "الصهيونية" لا ترقى للأعمال الأدبيّة بالمعنى المعروف، لكنها تسقط في فخّ الدعاية السياسيّة للصهيونيّة، وليس أدلّ على ذلكَ مما كتبه صموئيل يوسف عجنون (الروائي الاسرائيلي الحاصل على نوبل 1966 في روايته "تمول شلشوم") من أن: "العرب يشبهون الكلابَ في جلستهم، وهم أعداءُ الحضارة. وقد حوّلوا مركزَ الحضارة اليهوديّة في فلسطين إلى إسطبلات لحميرهم"! وربما لذلك تحديدًا فاز بجائزة نوبل!

لقد عرّى الكاتبُ العبقري، ابنُ مخيّمات الشعب الفلسطيني الكذبةَ ونفخَ في فقاعات الوهم، ولهذا السبب تحديدًا، فإنّ ما يقلق الكيان الصهيوني - في كلّ مرّة تتم فيها مواجهة الشعب الفلسطينيّ- ليست الخسائر العسكريّة، لكن اهتزازُ ثقة الكيان في شرعيّة وجوده من الأساس، هكذا كشفت انتفاضةُ غزّة الأخيرة عن ذلك القلق الذي يلازم اللصوصَ حين يحشون جيوبَهم بأوطان الغير. في ذكرى رحيل كنفاني، أستعيدُ قولَ أنطون تشيخوف "يرحل من الأديب نصفُه، ويبقى نصفُهُ حيًّا في إبداعه". تبقى معنا، مبدعًا، وموهوبًا، وصادقًا، تبقى مع حنظلةَ ومع قصائد محمود درويش، ومع دموع الأمهات، وتبقى للغد، وللانتصار، حَين نرسم صورتَك على جداريّةٍ كبيرةٍ في فلسطين■

قاسم حوَل يروي للهدف:
هكذا عشتُ مع غسّان كنفاني وعرفتُه!

أحمد بدير– محرر ومعد تقاريرَ في «الهدف»

تُعيد «الهدف» نشرَ الحوار الّذي أجرتْهُ مع المُخرجِ السينمائيّ، والكاتب العراقيّ قاسم حوَل، في وقت سابقٍ في ذكرى استشهاد الأديبِ المقاوِم، غسّان كنفاني، إذ أسّسَ حوَل قِسمَ السّينما في مجلة «الهدَف» في سبعينات القرنِ الماضي، حين كانت تصدرُ في بيروت؛ ليتحدّثَ عن كنفاني الذي عرفَه وخبِرَهُ عن كثب، ويروي يوميّاتٍ وحكايا عاشاها معًا.

الطُّريق إلى بيروت

عندما كنتُ في العراق، كان لديَّ شركةٌ سينمائيّةٌ وفرقةٌ مسرحيّة، ومجلةٌ أرأسُ تحريرَها؛ اسمُها «السينما اليوم». في أحدِ الأيّام، شاركتُ في مراسم دفن أحدِ الشّعراء، وألقيتُ كلمةً على قبرِه، تناولتُ في جزءٍ منها نضالَهُ من أجل شعبِه؛ فترجمتْهُ السّلطاتُ تحريضًا، فزجّت بي في السجن، وتعرّضتُ للتعذيب هناك.

بعدما خرجتُ من المعتقَل؛ لجأتُ إلى إبراهيم أبو الندى، وكان أستاذي في الثانويّة، وأحدَ المؤسّسين الفلسطينيّين لشركة «سابا» لتدقيق الحسابات، وهي شركةٌ أسّسها لبنانيّونَ وفلسطينيّون. وكان يأتي ليُشاهدَ مسرحيّاتي في مدينةِ البصرة بالعراق، وأصبحَ يُحبّني بشكلٍ لا يُصدَّق. وحينَ كان مُدقّقًا للحساباتِ في شركةِ «كوكا كولا» عيّنني فيها.

أخبرتُ إبراهيم أبو الندى أنّني أريدُ الهجرة، فقال لي « وكُنّا حينَها في عام 1969 - **"**فيزا أبو ظبي تُؤخذُ من السّفارة البريطانيّة، وأنتَ الآن خارجٌ من المعتقل ومُراقَب! وإذا ذهبتَ للسّفارة البريطانيّة؛ سيتّهمونك بالتّجسُّس**!"**. وأخبرني بأنّهُ سيتواصل مع مكتبِ الشّيخ زايد في أبو ظبي، الّتي كانت قبلَ الإمارات؛ كونه يعمل مدقّق حسابات لمكتب الشيخ زايد؛ كي أحصلَ على الفيزا من لبنان.

ذهبتُ إلى لبنان، وهي المرّةُ الأولى الّتي أدخلُ فيها هذا البلد. في أحد الأيّام ذهبتُ مع صديق لتناولِ الغداء في مطعم، كان يقعُ تحتَ مجلّة الهدف، فوجدنا غسّان كنفاني هناك، ودارَ بيناً حديثٌ عن الثّقافة والأدب، وسألني حينَها غسّان: أين المسير؟ فأخبرته أنّي ذاهبٌ إلى أبو ظبي. فقال لي: إنَّ هناك مسرحيّة؛ اسمُها «أوكازيون» للكاتبِ اللبنانيّ عصام محفوظ، كان نَصُّها عندَهُ على الطاولة، وأعطاني إيّاهُ لأقرأه، ثمّ عرضَ عليَّ أنْ نُشاهدَها، ونكتبَ عنها في مجلةِ الهدف.

الحديثُ هنا لقاسم حوَل.

قرأتُ المسرحيّةَ وشاهدتُها، ثمّ كتبتُ لغسّانَ دراسةً عنها، ويبدو أنّها أعجبَتْهُ جدًّا؛ إذ قالَ لي: تعالْ تعالْ، انتَ شو رايح تعمل بأبو ظبي!! إنت ما تروح على الخليج، أنا كنت في الكويت وعانيتُ الكثير..، لا تروح**"**.

وقال غسّان حرفيًّا: إحنا بعدنا طالعين من الأردن، وأسّسنا مجلّة، تعال معنا، جوع معنا عندما نجوع، واشبع معنا عندما نشبع. فقدمتُ أوّلَ مسرحيّةٍ «طفل بلا عنوان»، وهي التّجربَةُ الأولى لي مع «الهدف»، بعدَ أنْ أسّسنا مدرسة لتعليم المسرح للشّباب والأطفال. وأثناءَ إعطائهم الدروسَ تمّتْ كتابةُ المسرحيّة في المخيّم، وكان اسمُ المسرحيّة «بلا عنوان»، حتّى اقترحَ طفلٌ من الممثّلين أن نسميَها «طفل بلا عنوان»، وتمَّ له ذلك.

عُرضت المسرحيّةُ في المخيّم، ولاقت نجاحًا كبيرًا، بعدَ ذلكَ نفذنا جولةَ عروضٍ في المخيّمات كافّة.

أذكرُ أنّهُ طوالَ عملي في مجلّة الهدف، لم يحذفْ غسّان كنفاني من مقالاتي حرفًا واحدًا، فإذا كانَ يرغبُ بالتّعديل، يُعدّل بعضَ الكلمات لغويًّا. غسّان لم يكُن يتدخّلُ في إبداعنا، وهو من الصحفيّين الأفذاذ، الذينَ يتقنون فنَّ «العَنونة»، أي كيف يعنوَن المقال. وكان يقولُ لنا: إنّ «العنوانَ يجبُ أن يكونَ غامضًا غيرَ مباشرٍ، وكذلك مُشوِّقًا».

"حبُّة زيتون وخُبزة"

تعلّمنا من غسّان الطيبةَ والتّواضع، خلالَ فترة الدّوام **"**ما تشوف إلا غسان كنفاني يتَجوّل بين الأقسام، كُنّا نأكل ونحنُ نعمل، فتراهُ يأخذُ حبّة زيتونٍ من هذا، وقطعةَ خبزٍ من ذاك، فخلقَ أسرةً كاملة، لم نكُن موظّفينَ في مجلّة الهدف، بل كُنّا أسرةَ الهدف**"**، يُكملَ حوَل. هذا هو معلّمُنا، لقد علّمَنا الإبداعَ والصّحافةَ والأخلاقَ الجميلة، وطوال فترة عملنا، لا أذكرُ حدوثَ خللٍ أو مشكَلة بينَنا.

وفي عامِ 1971، لم يستطعْ غسّان السّفرَ إلى سوريا لمشاهدةِ روايتِه **"**ما تبقّى لكم**"** بعدَ أن أصبحتْ فيلمًا؛ اسمُهُ **"**السّكّين**"** من إخراجِ خالد حمادة. وفي

الوقت ذاته، لم يكُن باستطاعتنا إحضارُ الفيلمِ السينمائيّ إلى لبنان، وهو يَزِنُ 80 كيلو أو أكثر، وفي تلكَ الفترة لم يكن هناك **"ديجتال"**، فكلّفني غسّان بالذهاب إلى سوريا لمشاهدة الفيلم، وتقديمِ انطباعاتي له عنه، وأكتبُ عن الفيلم أيضًا.

في ذلك الوقت، كنت مسؤولًا عن الصفحة الثقافيّة في مجلّة الهدف، وأنشأتُ، فيما بعدُ، قسمًا خاصًّا بالسّينما، والفيديو، والفوتوغراف؛ ليُصبحَ لدينا في الجبهةِ الشّعبيّةِ مؤسّسةٌ ضخمةٌ في هذه المجالات.

وأوّلُ مشاركةٍ لنا في مهرجانٍ على مستوى العالم، كانت لفيلم عن نهرِ البارد، أذكرُ أنّني أصررتُ على رفع علمِ فلسطينَ بين أعلام الدّول المُشاركة، بعدَ مُعارضة القائمينَ على المهرجان؛ بحُجّة أنَّ الفيلمَ ليسَ لمنظمةِ التّحرير الفلسطينيّة، بل لفصيل بداخلها، إلاّ أنّهم وافقوا في نهايةِ الأمر.

تاريخُ اليمن.. المنسيّ

في عام 1972، دُعيَ غسّان كنفاني إلى مؤتمر في اليمن؛ ينظّمُهُ اتّحادُ الصحفيّينَ العرب برئاسة كامل الزهيري، وفي تلك الفترة، كانت الجبهةُ الشعبيّةُ تمرّ بظروف عصيبة؛ وعلى إثره كلّفني غسّان بأنْ أنوبَ عنه في المؤتمر، الذي التقيتُ خلالَهُ بالعديدِ من الشّخصيّات المهمّة، وتطرّقنا للحديث عن قوانينَ للسّينما، وهيكليّةٍ للعملِ عليها في هذا الإطار.

في يوم، أخذوني إلى قبو؛ لأشاهدَ ما لديهم مِن أفلام، ورأيتُ عددًا كبيرًا من علبِ الأفلام، وأخبروني أنّهُ عقبَ هروبِ البريطانيّين من اليمن إبّان الثّورة، لم يتمكّنوا من أخذها معهم، فكدّسَها اليمنيّون (في القبو).

بين العلب، كان هناك جهازُ عرض 16ملم، فتحتُ علبةَ أحد الأفلام وعرضناهُ على الحائط، وإذا به يُظهرُ أحدَ السّلاطينَ البريطانيّين، وهو يُعذّبُ رجُلًا يمنيًّا فقيرًا، وضربُهُ حتّى الموت؛ ذُهلتُ من هذهِ الثّروةِ غيرِ المُستغلّةِ بالشّكل الصّحيح.

قلت لهم **"كيف تاركين هذه الأفلام هيك؟! هذه مجازرُ حصلت في اليمن، ولديكم وثائقُ خطيرةٌ"**. يتابعُ حول: كانت أفلامًا أصليّة، ولو حدث بها أيُّ خللٍ ستعطب، يجبُ تحويلُها إلى **"نيجاتيف"**، ومن أجل هذا، كُنّا في حاجةٍ إلى 20 ألفَ دولار، فردَّ اليمنيّون أنّ هذا المبلغَ **"بمثابةِ ميزانيّةِ وزارةٍ بأكملِها، ولن نستطيعَ توفيرَ هذا المبلغ"**.

هاتفتُ جورج حبش، وأخبرتُهُ بالأمر، وبدوره تواصلَ مع المكتب السياسيّ، وردَّ عليَّ بأنَّ الجبهةَ الشعبيَّةَ ستتكفّلُ بالأمر. وبالفعل، أخذنا الأفلامَ بالطائرة، وتمَّ تحميضُها وتنظيفُها، ثمَّ أرجعناها لليمن.

أذكر أنّنا كتبنا مقالًا ونشرناهُ في الهدف، وغسّان هو من وضَع العنوانَ **"الحياة الجديدة في سوقطرة وحكاية عن السلاطين"**.

وفي وقتٍ ما، عقدت الجبهة الشعبيّة مؤتمرًا سريًّا لها في لبنان، فكلّفني غسّان برئاسة التّحرير في مجلّة الهدف، وقال لي: **"أنت المسؤولُ أمامي عن كلّ حرفٍ يُنشرُ في الهدف، لا تُغادرِ المجلّة، ستنامُ هنا، لا أريدُ أن نتأخّرَ على الجماهير"**.

مزهريّة فيتنام!

ذات مرّةٍ في فيتنام، أعطوني كميّةً كبيرةً من الأفلام، حيث كانوا ينتجون أفلامًا عظيمةً، حتّى وقت المعارك كانوا ينتجونَ الأفلام. وبالفعل، أفلامُهم **"دوّخت الأمريكان"**، فأدركوا ما هو دورُ السّينما في الثّورة الفيتناميّة، وكوبا أيضًا؛ لأعرضَ هذه الأفلامَ، بعدَ ذلك، في المخيّمات الفلسطينيّة، وأذكرُ أنّهم أهدوني **"مزهريّةً"** كبيرةً جدًّا؛ مصنوعةً من إحدى الطائرات التي أسقطها الفيتناميّون، وكتبوا عليها أسماءَ كلّ ثوراتهم، وتواريخهم المهمّةَ بالحفر. أهدوني إيّاها، ووددتُ أنْ أهديَها لجورج حبش، فقال غسّان: إنّهُ سيُخبرُ جورج حبش بأنّهُ يريدُها لكثرةِ جمالِها، واحتفظ بها غسّان.

"... أنا أعتقدُ أنّه سيتمُّ اغتيالي!"

كنّا ذاهبينَ أنا وغسّان لتناول طعام الغداء؛ كنا يوميًّا نأكلُ في مطعم صغير موجود أسفل مقرِّ مجلّة الهدف، وكانت تملكُهُ امرأةٌ لبنانيّة، زوجُها شهيدٌ فلسطينيّ. كانتَ مجلّة الهدف في الطابق الأوّل، والمطعمُ في الدور السّفليّ، لكنْ، في ذلك اليوم، ذهبنا لمطعم آخرَ؛ لنتناول المسخّن الفلسطينيّ**"** في شارع الأوتوستراد، في الطريق قال ليَ غسّان التالي: **"قاسم.. أنا أعتقد أنه سيتم اغتيالي"**؛ كان هذا الحديث قبلَ أسبوعين من يوم استشهاده، فسألتُهُ كيف عرفتَ ذلك؟ فقال: **"مندوب إسرائيل في الأممَ المتحدة ذكرني بالاسم، وقال في كلمته بأنني أحرض ضد الدولة الإسرائيلية، وأعتقد أنها إشارة دولية لتبرير اغتيالي"**.

شعرتُ بالخوف عليه، وأشرتُ عليه بتعيين مرافقينَ لحمايته، لكنّ غسّان أجابني: كيف يمكنكَ أن تتصورَ فنّانًا أو أديبًا يمشي في الشّارع ومعه مرافقون، سيفقدُ حريتَه؟ حسنًا سأحاولُ أنْ أتّخذ بعضَ الإجراءاتِ مع نفسيَ**"**.

فجرُ الحازميِّة الحزين

عندَ ساعات الفجر؛ خابرني الموسيقارُ العراقيُّ منير بشير، وهو يقطنُ في منطقة الحازميّة، القريبة من بيتِ غسّانَ كنفاني؛ قال: **"قاسم.. حصل انفجارٌ كبيرٌ جدًا في الحازميّة، وعندما سألتَ حول ما جرى، أخبروني أنّ غسّان استشهد"**.. لم أصدّق **"معقول!"**.

ذهبتُ مُسرعًا إلى مقرِّ مجلّة الهدف، فوجدتُ بسام أبو شريف جالسًا مكانَ غسان كنفاني، جلسنا جميعًا وبكينا بُكاءً شديدًا، أُصبنا بالذهول، لا ندري ماذا سنفعل الآن؛ غسّان اسمٌ فلسطينيٌّ لامع، وشخصيّةٌ مُدهشة.

بدأ بسام أبو شريف بالحديثِ إلينا؛ قال: يجب أنْ نتماسك، هذا طريقُ الثّورة، وعليكم أنْ تتوقّعوا بأنّنا سنخسرُ أيَّ شخص عزيز، وفي أيِّ وقت.

في المساء، عندما أردتُّ العودةَ إلى المنزل، لم أدر ماذا أفعل، لقد كانِ العالمُ ساكنًا، فقدنا جزءًا من كياننا؛ استُشهد غسان، وكان غيابُهُ ضربةً مُؤلمة جدًّا، وخسارةً كبيرةً جدًّا، وتقريبًا، لبنانُ كلّها خرجت؛ لتُشيّعَه. كانت مجلّةُ الهدف عندما تصدرُ يومَ السبتِ لا يبقى أحدٌ في لبنان إلا ويشتريها ليقرأَها، فلم تكُن في البلادِ مجلّةٌ تشبهُها.

وفي الذكرى الأولى لرحيله، طلب منّي جورج حبش أنْ أكونَ عريفَ الحفل؛ فكتبتُ نصًّا أدبيًّا لهذهِ الذكرى، نُشر على الغلافِ الفنّي لمجلةِ الهدف، وعليهِ صورةُ إحدى لوحات غسّان.

إلى اللقاءِ يا صديقي.

سأحدّثُكم عن غسّان كنفاني

عبد الرزاق دحنون– كاتب سياسي/ سوريا

هيَّا افسحوا لهم مكانا؛ ليرقدوا إلى جوارِ إخوتهم،

عندئذٍ لنحيِّيهم في صمت يليقُ بالموتى!

سلامٌ عليكم في رقدتِكم، يا من قُتلتم في سبيلِ بلادِكم...

وأنتِ أيتها الحفرةُ المقدَّسة التي دَفَنتْ كلَّ أفراحي..

ويا أيُّها الخدر، خدر الفضيلةِ والنبل،

كم استودعتك من أبنائي!

أبنائي الذين لن تردَّهم إليَّ مرة أخرى.

«شكسبير»

1

برتقالُ غسان كنفاني الحزينُ أضاف حزنًا مُقيمًا متراكمًا داميًا على مرِّ السنين. نعم، هُنا وهُناك في أرض فلسطينَ أحد أصناف البرتقال الحزينَ يُسمى: «البرتقال الدموي» تُعصر لبُّهُ بقبضة يدك، فيسيلُ عصيرُهُ مضرّجًا بدمَ أهلَها. وكما ضرب هذا الصنف منَ البرتقال شروشَهُ في التربة؛ كذلك ضرب الحزنُ شروشَهُ في كل الأصقاع التي استقبلت هذا الفلسطينيَّ المُقتلَعَ اقتلاعًا من أرضه وبياراته، التي صارت ذكراها مزيدًا من الحزن، الذي ينهشُ ما تبقى من روحِهِ المتمرّدةِ الثائرة. وحتى ذلك الفلسطيني الذي تشبَّث بما تبقى من أشبارِ أرضه الصخرية القاسية عاش حزينًا في الداخل الفلسطينيّ -أرض 1948- وكان يَظنُّ أنَّ الحزن يمكن أن يكونَ صديقًا، لكنه لم يكن يتصورُ أن يكونَ وطنًا يسكنه، ويتكلمَ بلغته، ويحمل جنسيتَه. تحول حزنُهُ إلى هُويَّة، فجاء شاعرُ كوردستان «شيركوَ بيكه سه» ليقيسَ أحزانَ أهل فلسطين، فقال: جاء التاريخُ وقاسَ قامتَهُ بقامة أحزانكم، كانت أحزانُكم أطول. أما من علاجٍ لهذا الأسى الإنسانيّ المقيم؟ أم صار الحزنُ الفلسطينيُّ جبلًا يتمشّى معَهم وينتقل؟

2

يمكن أن نمرَّ سريعًا على تلك المكتبة العامرة بالتراجيديا التي كتبها غسان كنفاني عن أرضِ البرتقالِ الحزين. لقد ترك هذه الأرضَ والمشاهدَ تتلاحق أمامَ عينيه وعجلاتُ الشاحنة تنهبُ دروبَ الريف الفلسطيني المتعرجةَ نهبًا - والعصاباتُ الصهيونيةُ تنهب هي الأخرى ما تركه أهلُ فلسطينَ في ديارهم - وطلّةُ عكا العتيقة الشامخةُ على الساحلِ الفلسطيني تختفي شيئًا فشيئًا في منعرجات الطرق الصاعدة إلى رأس الناقورةَ على الحدود معَ لبنان. كان غسان كنفاني يبلغ من العمر اثني عشرَ عامًا، ينظر إلى بيارات البرتقال الحزين من مكانِ جلوسه على ظهرِ الشاحنة التي أقلّتْه معَ أهله. هلْ كان يُدرك أنها المشاهدُ الأخيرةُ التي ستبقى في الذاكرة؟ ها هي تختفي أمامَ عينيه! ولكنها تبقى حاضرةً في وجدان الولد الذي وُلدَ على عَجَل، وسيرحلُ بعد سنوات التشرّد والضياع والعملِ الصبور بعُبُوَّةٍ ناسفةٍ في بيروت على عَجَل.

3

الصراعُ على الأرض سيحملُ قيمةً رمزيّةً وجمالية في جميع ما كتبَهُ غسان كنفاني وسيتفرع عنها ثقافةُ الشتات في المكان والزمان. وها هي «أم سَعد» قد جاءَت تحمل عرقًا من دالية بدا يابسًا، مثلَ دقّات الساعة جاءتْ. هذه المرأةُ تجيءُ دائمًا، تصعدُ من قلبِ الأرض كأنّها ترتقي سُلّمًا لا نهايةَ له. فاحت في الغرفةِ رائحةُ الريف. وتقول لغسان: قطعتهَ من دالية صادفتني في الطريق، سأزرعُهُ لَكَ على الباب، وخلالَ أعوامٍ قليلة تأكل عنبًا.

واقعيًّا، فإنه ثقافةُ المكان التي تُحيلنا إلى بساطة العيش في القريةِ العربيّةِ وبيئتها العفويّة الصادقةَ الحميمةِ التي تُنتج في وجدانِ الفردَ

العودة إلى الفهرس

في ذكرى استشهاد غسان كنفاني: مازلنا نقف على أرضك الثابتة

النخوةَ، والعنفوانَ الذي يفور في شرايين صاحبِ بيارات البرتقال، فلا يستطيع الكفَّ عن المُطالبة بحقِّ العودة إلى دياره وبيارات برتقاله وإنْ كان هذا البرتقال حزينا. من هنا، نتوقف عند محور ثقافة الأرض فإن هنالك دائرةً متكاملةً تَبدأ من العلاقة بالمكان وكيف تبدو ظاهريًّا وعمليًّا، وإلى أيّ مدًى يتفاعل الكائنُ جغرافيًّا ويهندس بيئتَهُ المكانية.

4

هذه التراجيديا الفلسطينيةُ التي رافقت غسان كنفاني في كل أعماله الإبداعية، وأضافت نهايتُهُ الفاجعةُ حزنًا على البرتقال الحزين. كان صباحًا صيفيًّا داميًّا في بيروت يومَ السبتِ الثامن من تموز عامَ 1972 يزنُ سبعةَ كيلوغرامات من المتفجرات مزّقت جسدَ ذلك الغزال الذي كان يُبشر بزلزال. تقول أم سعد عن ذلك الصباح الدامي:

كنتُ إلى جانب النافذة المُطلّة على الحديقة أحمل كوبَ الحليب وبجانبي « آني » زوجة غسان، وفجأة دوّى انفجارٌ رهيب، أوقع الكوب من يدي. تحطم زجاجُ النوافذ وتناثرت شظاياه في أرجاء البيت. أسرعتُ وسحبت آني كنفاني من تحت الزجاج المتناثر دونَ أن أدريَ حينها أن الزجاجَ تداخل في جسدي كلّه. هرولت دونَ وعيٍ نحوَ الشارع. كان المشهد يُدمي القلب، فقد أحال الانفجارُ سيارةَ غسان كنفاني الصغيرةَ إلى أشلاء متناثرة. حملتُ دثارًا؛ لتغطية جسد لميس -بنت اخته فائزة- المشتعل بالنيران، ثم بحثت عن غسان فوجدته بين ألسنة النيران مفتوحَ العينين مقطوعًا من وسطه، إحدى قدميه داخل السيارة والأخرى تسلقت على شجرة زيتون قريبة، يدُهُ إلى جانب الحائط في حين لم أجد يدَهُ الثانية. بدأتُ أتفحّصُه... قلبُه كان باديًا ينبض، والوجهُ وحدَهُ بقيَ سليمًا تلوح من قسماته ابتسامةٌ حزينةٌ - يا لهذا الحزنَ الذي يُرافق الفلسطينيَّ حتي في موته! - لا أعرف كيف أتيت بكيس ورحتُ أجمع فيه أشلاءَ هذا الرجلِ الفلسطيني.

5

ما هذه التراجيديا الفلسطينيةُ يا غسان؟ غادرت عائلتك عكا وكان آلافُ العرب قد فروًا من الإرهاب الصهيوني في هجرة جماعية، يتقدّمُهم الأطفالُ والنساء، وبقي بعضٌ من الرجال؛ كي يحرسوا قراهم وبلداتهم. حمل الجميعُ معهم مفاتيحَ بيوتهم واتجهوا صوبَ لبنان حيث سكنوا قريبًا من الحدود كي يكونوا بين أوائل العائدين إلى منازلهم بعد انتهاء القتال. لقد كانت أرضُ فلسطين هاجسَ كنفاني الدائم حتى استشهاده بعيدًا عنها. كانت رحلة التهجير من أرض الوطن من أهمّ الأحداث التي أثّرت في حياته الأدبية، ورواها بعد عشر سنوات في قصة من أجمل قصصه «أرض البرتقال الحزين».

6

لقد سار إنتاجُ غسان كنفاني الأدبي جنبًا إلى جنب مع نشاطه الصحفي والسياسي، وكان قبل موته بزمن طويل يُعدُّ من أفضل الكتّاب العربِ والفلسطينيين. وكان في العادة يبني القصة أو الرواية أو المسرحيةَ في ذهنه، ثمّ يكتبها كلها في زمن قصير، مضيفا إليها تصحيحات قليلة فيما بعد. هل كان في سباقِ المسافات الطويلة مع الوقت، فقد كان يسرقُ اللحظات من سياقها اليومي، يعيش، ويحلم، ويكتب، ويحب، ويسافر، ويحاضر، ويرسم، ويُعاند مرضَ السكر، ويسقط في الشارع غائبًا عن الوعي، ويفيق على طعم حبة شوكولاتة.

السؤال الذي طرحه رفيقُنا اللبناني الجميل محمد دكروب - رحمه الله - عن غسان كنفاني هو: كيف استطاعَ هذا الرجل الفلسطينيُّ المسكونُ بكلّ ما يمتّ بصلة إلى أرض فلسطين أن يُنتجَ هذا الكمّ الوافرَ من الأدب الجميل في عمر قصير؟ لقد قتلوه حين كان لا يزال ينمو ويكبر، وكان خطرُه أكبرَ من أن يتحملوا وجوده■

الأعمالُ الأدبيّةُ للشهيدِ غسان كنفاني
وتجلّياتُها في المشهدِ السينمائي

موسى مراغة– كاتب فلسطيني/ سوريا

لأنّ للكلمة عندَهُ فعلَ الرصاصة، ولأنّ الجملةَ كانت لديه تشكّلُ فعلَ الإضاءةِ في الفكرِ والروح؛ اتّخذ طريقَ الأدبِ الروائي للنضالِ، وحملَ همومَ شعبِهِ على عاتقِهِ باحثًا في الفكرِ والأدبِ والسياسة، ناسجًا شخوصَ رواياتِه من جموعِ الشعبِ المناضلِ والمدافعِ عن قضيّتِه، وسالكًا طريقًا في مخاطبةِ الفكرِ الإنساني، فكانت له البصماتُ الواضحةُ في هذا المجال.

ولمّا رأى دهاقنةُ الاستخبارات الصهيونية الخطرَ الذي يشكّلُهُ غسانَ كنفاني في الصراعِ العربي الصهيوني، (وهو الذي قالتَ عنه رئيسةُ وزراءِ الكيانِ الصهيوني السابقة «غولدا مائيرَ» " إن غسان كنفاني يمثّلُ كتيبةً من المقاتلين ويجبُ التخلّصُ منه"). لذلك لم يتأخروا في البحث عن طريقة لإطفاء هذه الشعلة المتّقدةَ. واستطاعوا عبرَ عملائهم الوصولَ إلى عربته التي تقلُّهُ صباحَ كلِ يومٍ إلى مركزِ الإشعاع الذي أسّسَه، واتّخذ منه قاعدةً للانطلاقِ في مجلة الهدف.

وفي صباح الثامن من شهر تِموز عامَ 1972، عندَما كان يديرُ محرّكَ عربته وبرفقته ابنةُ أختهِ؛ انفجرت العبوةُ التي زرَعَها خفافيشُ الليل بالجسدين الطاهرين؛ ليلحقا بركب الشَهداء الذينَ مضوا علَى الدرب، ولَتخسرَ القضيةُ الفلسطينيةُ والأدبُ الإنساني أحدَ أعلامِهِ المضيئة.

في ذكرى استشهاده ما زال غسان كنفاني وأدبُهُ وفكَرُهُ وأطروحاتُهُ تعيشُ في قلبِ الشعبِ الفلسطيني وفكره، كذلك عَندَ كلِّ الشعوب الحرّة المناضَلة من أجلِ الحريةِ والانعتَاقِ منَ الظلمِ والاحتلال وجبروتَ الطاغوتَ. وما زالتَ أعمالُهُ الأدَبيةُ من رواياتٍ وقصص ومسرحياتٍ تتداولُها الألسنُ وتَخفقُ لهَا القلوب.

وفي هذا المقام، وفي هذه الذكرى العطرة للأديب الشهيد والسياسي والمفكّرِ والمثقفِ الثوري، سنحاولُ إلقاءَ الضوء على أعماله الأدبيّة، التي تحوّلت إلى أَفلام روائيّةَ طويلة وقصيرة على أيدي عددً من المَخرجينَ السينمائيّين.

إنّ عمليةَ تحويل العمل الأدبي، إنْ كان روايةً أو قصّة، إلَي عملَ فنيٍّ سينمائي، صعبةٌ ومحفوفةٌ بالمَخاطر؛ بسبب طبيعةِ السينما والأدب وخاصيّتهما، وأنّ التصدّيَ لهذه العمليَة يمكن أن يكونَ مصيرُهُ النجاحَ أو الفَشل، وليس كلّ عملِ روائيٍّ ناجح يكون عملًا سينمائيًّا ناجحًا أيضًا بالضَرورة. فليس كلّ أدب يصلح مادةً تُحوّل للسينما؛ لأنّ السينمًا ليستَ وسيلةَ سرد؛ هدفُها إيصالُ الأدب إلى المشاهد؛ لأنّه «المشاهد» في حالةَ السينما يختار الفرجة، وفي حالة الأدبَ، كقارئ يختار اللغة. لذلك تتبدّىَ لنا هنا الصعوبةُ في الإنجاز السينمائي المعتمدِ على الرواياتِ الأدبيةَ.

"إن إعادةَ حكي روايةٍ مرةً ثانية سيجعلها أكثرَ جمالًا ومتعة؛ لأنها ستصبح نصًّا مختلفًا، ذلك عبر اكتشاف أبعاد النصِّ الروائي، واستخدام الصورةَ والانصَياعِ لخطابِ جماليٍّ وبصريَ، سوف يطيح -َ بالضرورة - بلغة الحكيِ؛ لتتحوّلَ لغةً بصرية. وهذه تشَبه عمليةَ تشذيب الأعشاب الضارّة، كذلك تنقيّةَ النصِّ الروائي لمَصلحة عناصرَ سينمائيّة تقوم على التكثيفَ والحذف. وعلىً ضوء هذا النهج؛ فإنّ العملَ السينمائي هو كتابةُ نصٍّ آخرَ تمامًا، واعتبارُ النصّ الأصلي مجرّدُ ذريعة للنصّ البصري، ثمّ فإنّ خيانةَ النصّ الأصلي ضرورةٌ سينمائيةٌ لا مفرَّ منها". (1)

وفي نظرة سريعة نجد أنّ كثيرًا من الإنتاجات السينمائيّة العالمية نهلت من الأدب العَالمي أمثالَ روايات «تولستوي، وغورَكي، وماركيز، وبوشكين، وهمنغواي، وغيرهم» وعربيًّا.. سُجّلت الأفلامُ السينمائيةُ التي أخذت من رواياتِ الأدباءِ العرب وكتّابهم الكثيرَ من النَجاحاتِ الجماهَيرية، ونذكر هنا نجيب محفوَظ، توفيق الحكيم، عبد الرحمن الشرقاوي، طه حسين، إحسان عبد القدوس، يوسف السباعي. وفي سورية، نذكر الأدباء حنا مينه، حيدر حيدر، خيري الذهبي. ومن هنا ندلف الحديثَ عن أديبنا الشهيد غسان كنفاني، وعن علاَقته وعلاقة أدبه الروائي بالسينما؛ لنقولَ: إنّ كاتبَنا يعدُّ واحدًا من أكثر أدباءِ العربيّة من غيرِ المصريين، ممنَ اهتمَت السينما بأدبهمَ وحولت أعمالهم الروائية إلى أفلام سينمائية، وحدث ذلك في أكثرَ من بلدٍ عربيٍّ سواءً في فلسطين وسوريا ومصر والعراق وصولاً إلى السينما الإيرانية.

ويجب أن نذكر هنا أن علاقةَ الشهيد غسان كنفاني بالسينما - خاصةً السينما الفلسطينية _ أخذت مستويين اثنين، أوّلُهما: علاقتُهُ الشخصيةُ بالسينما، ودورُهُ العملي في تأسيس السينما الفلسطينية وثانيهما: علاَقةُ أدبهِ بالسينما.

فقد كان الأديبُ الكبيرُ متابعًا جيدًا للنشاطات السينمائية، وقارئًا جيدًا للنشراتَ السينمائية التي تعنى بنقد الأفلامِ السينمائيةِ وتحليلِها. وقدَ

العودة إلى الفهرس

أسهم في تأسيس قسم للسينما في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فعندما التقى صدفة في بيروت بالمخرج العراقي «قاسم حول» أفضى ذلك اللقاءُ إلى بروز عدّة أفكار للعمل على تأسيس حاضنة للسينمائيين الفلسطينيين، على شاكلة مؤسسة عامة للسينما؛ لاستقطاب جهود كثيرٍ من السينمائيين الفلسطينيين والعرب، الذين كانوا متحمسين للسينما الفلسطينية النضالية.

وبنظرة أولية سردية للسجل السينمائي الذي استقى من أعمال غسان كنفاني؛ نذكر أشهرها وهو فيلم «المخدوعون» للمخرج المصري توفيق صالح، المأخوذ عن رواية «رجال في الشمس» وفيلم «السكين» للمخرج السوري خالد حمادة، والمأخوذ عن رواية «ما تبقى لكم» والفيلم الفلسطيني «عائد إلى حيفا» المأخوذ عن الرواية التي تحمل الاسم نفسه، من إخراج العراقي «قاسم حول» والفيلم الإيراني «المتبقي» للمخرج سيف الله داد، الذي أعاد إنتاج رواية «عائد إلى حيفا» ذاتها لكن بطريقته الخاصة.

وعلى صعيد الأفلام الروائية القصيرة، انتجت مؤسسة السينما والمسرح في العراق عام 1973، فيلم «زهرة البرقوق» بتوقيع المخرج ياسين البكري، وفي عام 76 انتجت المؤسسة العامة للإذاعة والتلفزيون في العراق فيلمًا روائيًا قصيرًا بعنوان «البرتقال الحزين» مأخوذا عن قصة «أرض البرتقال الحزين» من إخراج العراقي «كوركيس عواد» ومن إنتاج المؤسسة نفسها كان فيلم «كعك على الرصيف» مأخوذا عن إحدى قصص كنفاني بتوقيع المخرج عماد بهجت.

وفي فورة الإنتاج السينمائي الفلسطيني داخل الأرض المحتلة، واستلهامًا واتكاءً على الإنتاج الأدبي الروائي والقصصي للشهيد كنفاني؛ قدّم عددٌ من المخرجين عددًا من الأفلام الوثائقية القصيرة منها: فيلم «نساءٌ في الشمس» للمخرج صبحي الزبيدي عام 1999، وقدّم المخرجُ فجر يعقوب عام 2003، فيلمَهُ «صورة شمسية» وهو فيلمٌ وثائقيٌّ قصير، مدّتُهُ 16 دقيقة، وفيلم «وما زال الكعك على الرصيف» للمخرج إسماعيل هباش عامَ 2000، وقدّم المخرج البحريني محمد إبراهيم محمد فيلمه «زهور تحترق» عامَ 2009، وهو مقتبسٌ عن قصة «كعك على الرصيف».

وفي عودة إلى التفاصيل والغوص أكثرَ في الأفلام السينمائية الروائية الطويلة، المأخوذة عن أدب غسان كنفاني ورواياته، لا نملك إلّا أن نبدأ بالحديث عن فيلم «المخدوعون» للراحل توفيق صالح. ويعدُّ الفيلم من أشهر الإنتاجات السينمائية التي أخذت عن أدب غسان كنفاني، ونال جوائز عالمية عدّة، فمن «مهرجان قرطاج» إلى «مهرجان كان السينمائي» وفوزه بجائزة لينين للسلام في مهرجان موسكو السينمائي عامَ 1973، والمدهش في أمر فيلم «المخدوعون» هي المعاناة التي واجهها المخرجُ من أجل تحقيق الفيلم، حيث رفضت المؤسسة العامة للسينما في مصر إنتاجَ الرواية سينمائيًا، دون إبداء الأسباب. وبعد سنوات يسافر توفيق صالح إلى دمشق، حيث قدّم سيناريو الفيلم إلى المؤسسة العامة للسينما في سورية لتنفيذه، وتمت الموافقة.

وحين انتهى من التصوير والعمليات الفنية؛ عُرض الفيلم على لجنة المشاهدة لإقراره، فكانت النتيجةُ صاعقةً أنّ الفيلمَ « حسب زعمها » دون المستوى. وصدرت الأوامر بحبس الفيلم في مخازن المؤسسة.

يقول المخرج توفيق صالح في إحدى مقابلاته: «ظلّ الفيلم ممنوعًا، وكان سعد الله ونوس الوحيد الذي كتب يشيد بالفيلم» في تلك الأثناء يحضر الناقدُ السينمائي المصري الشهير «سمير فريد» في زيارة إلى دمشق، حيث شاهد الفيلم وأعجب به، وطالب بعرضه إلا أن طلبه قوبل بالرفض بسبب «تدني مستواه» وشاهد الفيلم المخرج التونسي المعروف «الطاهر شريعة» الذي أذهله مستوى الفيلم، ودعا ثلاثةً من النقاد التونسيين لمشاهدة الفيلم، وقد أعجبوا به وطلبوا اشتراكَهُ في مهرجان كان السينمائي.

ولأن الأمورَ الإجرائيةَ في إرسال الفيلم أخذت وقتًا طويلًا، فكان موعدُ قبولِ الأفلام في المسابقة الرسمية قد انتهى، لذا تم إرسالُهُ إلى عروض على هامش المهرجان، وهناك أشاد به كثيرٌ من النقاد، وحصل موزّعٌ فرنسيٌّ على حق عرضه وتوزيعه، وقوبل بعاصفة من الغضب والاحتجاجات من قبل جماعاتٍ صهيونيّة وعنصريّة معادية للعرب.

وعندما عُرض في دور السينما تعرّضت تلك الدورُ إلى تهديدات بتفجيرها. والطريفُ أن إدارة مهرجانُ «كان» كانت قد بعثت بتذكرتيْ طيران إحداهما للمخرج، إلا أن مديرَ المؤسسة حينها لم يسمح له بالسفر؛ لأنه ليس موظفًا في وزارة الثقافة، فسافر مديرُ المؤسسة مع موظف آخرَ في إدارة التوزيع.

وفي عودة إلى تفاصيل حكاية فيلم «المخدوعون» الذي يرصدُ مصيرَ ثلاثة من اللاجئين الفلسطينيين جمعتهمُ النكبةُ والخيبةُ والأملُ في مستقبلٍ أفضل. وللبحث عن مصادرَ للرزق، في وقت ضاقت فيه الحالُ على الشعب الفلسطيني. وفي زمن أحداث الفيلمَ، كانت الكويت في بداية فورتها النفطية تمثلُ مصدرًا للرزق بالنسبةِ لهؤلاء الفلسطينيين، غيرَ أنّ الوصول إليها والحصول على سمة الدخول لم يكونا بالأمر اليسير في ذلك الحين، ومن هنا راجت تجارةُ تهريب العمال عبرَ الحدود العراقية. وشخصياتُ الفيلمَ الرئيسة الثلاثة «مروان، وأبو قيس، وسعد» هم من أولئك الذين وجدوا الحلَّ الأفضل للتسلّل إلى الكويت، وهو اختباؤهم داخلَ صهريج مياه فارغ، وكان سائقُ ذلك الصهريج «أبو الخيزران» هو المهرّبُ الذي تكفّل بتنفيذ ذلك الأمر مقابلَ مبالغَ مالية. خلال تلك الرحلةِ الجهنميةِ التي تجري

وسطَ طقس ملتهب في ذروة الصيف الصحراوي، يتوقفُ الصهريجُ عند نقطة الحدود الكويتية من أجل إنجاز الإجراءاتِ الرسمية؛ لدخولِ الصهريج إلى الكويت، ولكنّ الموظف الكويتي يدخل مع السائق «أبي الخيزران» في أحاديث وقصص مملّة، إضافة إلى مماطلته في إنجاز الأوراق اللازمة لعبور الحدود، في ذلك الوقت، وبسببِ الحرارة الشديدة داخل الصهريج كان الفلسطينيونَ الثلاثةُ داخلَ الخزّان يلفظون أنفاسَهم الأخيرةَ جرّاءَ اختبائهم الطويل في ذلك المكان، بعد ذلك يقوم سائقُ الصهريج بإلقاء الجثث الثلاثة عند مقلب القمامةِ ويمضي في حال سبيله.

لم يكن سيناريو الفيلم مجرّدَ عرض لذلك الحدث الدرامي ومتابعة سيْر الرحلة المشؤومة لأولئك العمالَ الثلاثة، بل تمّ عرضُ مشاهدَ تستعيدُ ذكرياتهم إبّانَ النكبةِ واللجوء، وتصويرُ شظفَ عيشهم، مع التعريج على الأوضاع العربية، السياسية والاجتماعية.

وقد عرضَ الفيلم الأحداثَ التي رافقت النكبةَ والمأساة والأحداث المرعبة التي قاساها الفلسطينيون جرّاءَ قيام الكيانِ الصهيوني على أراضيهم.

«لقد استطاع المخرجُ توفيق صالح أن يقدمَ فيلمًا ملتزمًا وواقعيًّا رغمَ الازدواجية في أسلوبه خلال عرضه للسرد الدرامي، إذ كان يستخدمَ الواقعيةَ ثم ينحو إلى استخدام الوثيقة، ومنذ بداية الفيلم يحدد لنا المخرجُ بوضوح مفتاحَ الفيلم بلقطاته الأولى للصحراءَ الشاسعة، التي تُشعرنا بالفراغ والوحشة، في حين تبدو أسفلَ الشاشةِ أبياتُ الشاعر محمود درويش «وأبي قالَ مرة، الذي ماله وطن .. ماله في الثرى ضريح .. ونهاني عن السفر". (2)

وفي نهاية الفيلم تظلُّ جملةُ «أبو الخيزران»: لماذا لم يقرعوا جدارَ الخزّان، تجلجل في فضاء الصحراء مُلقيًا اللومَ على سجناءِ الصهريج، وكأنه يلقي اللومَ أيضا على الفلسطيني في مأساته التي حصلت، مع أن الثلاثةَ قرعوا الخزّانَ بشدة إلا أن أصوات أجهزة التكييف في النّقطة الحدودية كانتَ أعلى من طرقاتهم على جدرانَ الخزّان، فلم يأبه لهم أحد، ولعل اليدَ المتشنّجةَ لأحد العمال الذين ألقوا على مكبِّ القمامةِ وهي ترسم شكلَ علامة استفهام تنبئ بالمستقبل والمصيرَ الغامضَ الذي ينتظر الفلسطيني.

يقول المخرجُ الراحل توفيق صالح في حوار صحافي عن فيلمه «المخدوعون»: طوالَ حياتي كنتُ أعتبر كلَّ فيلم جديد أصنعه، بدايةً جديدة؛ لأنني أكونُ قد تعلمت كثيرًا من تجاربي السابقة، لكنني أعتبر «المخدوعون» بدايةَ الوعي السينمائي الحقيقي بالنسبة لي، بدايةَ السيطرة على الحرفة، كان أمامي هدفان، الأول: أن تكونَ كلّ جملة في الفيلم إشارة إلى جانب من جوانب القضيّة الفلسطينيّة، والثّاني: استخدامُ أسلوبَ «الفلاش باك» التراجع الزمني، كبناءٍ أساسي للسرد. ومن أجل إنجاز هذين الهدفين معًا، كان لا بدَّ من استخدام «الفلاش باك» على نحو مختلف «خصوصًا أنّ» الماضي في سيناريو فيلم «المخدوعون» كان استمرارًا للحاضر؛ لأنّ المأساةَ مستمرةٌ. لذلك كان البناءُ الدرامي في الفيلم معقّدًا ومتشابكًا» (3).

لقد أجاد توفيق صالح في فيلمه استخدامَ لغة سينمائيّة في منتهى الحرفيّة. فقد تكاملت عندهُ عناصرُ الصورة والصوت، والأداء التمثيلي، والمؤثرات الخارجية، وأجادَ في اللقطات السينمائيَّة الواسعة التي كانت تظهرَ مع أبطاله الثلاثة التائهين في الصحراء، وهم كانوا يبدون كنقاطٍ سوداءَ في مساحات شاسعة.

وأظهرتِ اللقطاتُ القريبةُ التي كان يستخدمها «توفيق صالح» مدى المعاناة التي قاساها اللاجئون الثلاثةُ وهم يبحثون عن سبيل النجاة في صحراءَ قاحلة. وكانت حرارةُ الشمس ذلك الصيف هي أحدُ أبطاله، فقد أدّتَ دورًا دراميًّا مميزًا، وهي التي كانت تلفح الوجوهَ وتحرق بلهيبها تلك الأجساد البشريّة. ولعل حرارة الشمس هي التي حوّلتَ خزّانَ الصهريج إلى قبر محترقٍ لأولئك الثلاثة خاصة عندما حشروا داخلَ الخزّان لوقت طويل. إنّ لهيبَ الشمس كان ملموسًا عندما فتح «أبو الخيزران» فوهةَ الخزّانِ داعيًا الثلاثةَ إلى النزول فيه استعدادًا لرحلة التهريب، وظهرَ فعلُ تلك الأجواء الجهنمية التي عاشوها داخل الصهريجَ في المقطع الأوّل من الرحلة عند الحدود العراقية، فقد بانت عليهم مظاهرُ الاختناق الأولى والمعاناةُ من جرّاء دقائقَ ستةٍ أمضوها داخل الخزّان.

وقد أجاد المخرجُ في استخدام المونتاج المتوازي، وتقنيةِ «الفلاش باك» - كما أسلفنا - خاصةً في استعراض كل شخصيةٍ على حده، والأسبابِ التيَ دعت كلَّ واحد منهم للتفكير بهذه الرحلة الجهنميةً. وفي مونتاج متناغمَ دمجتَ الماضي البائس بالحاضر الذي سيودي إلى مستقبل أكثرَ بؤسًا وأشدَّ مأساوية.

ولعلّ المونتاج المتوازي برع فيه عندما كان السائقُ ينجز معاملات المرور الحدودية مع لقطات الصهريج في لهيب الصحراء وداخلَه أكوامُ الأجساد المحترقة، بينما داخل مكاتب النقطة الحدودية أصواتُ مكيّفات التبريد تهدرَ مرسلةً هواءَها الباردَ على الموظفين.

وكانت موسيقى الملحن والمؤلف العراقي الشهير «صلحي الوادي» أحَد أبطال الفيلم، فاستخدمَ آلاتِ الفيولا والتشيللو الرخيمتين، متناغمةً مع الناي الحزين في مرافقة أحداث سيناريو «المخدوعون». وكانت تلك الموسيقى تعلو وتخفت مع أحداث الفيلم. فكانت تغني مع استعراض الحياة في بيارات فلسطين قبل النكبة حيثَ كان يعمل أبو قيس، وكانت تنحو تلك الموسيقى إلى العنف والقلق والتوتر وهي ترافق أبطالَ «المخدوعون» في مصيرهم المجهول. وفي مشهد التحضير لدخول الخزّان صمتت الموسيقي، وفي ذلكَ الصمت أبلغُ تعبير، ولأنّ الصمت هو موسيقى بحدِّ ذاته، في هذه اللحظات المؤثرة المحفوفة بالمخاطر يصنع كلَ مُشاهد موسيقاه الخاصة؛ لتسيطرَ على هذا المشهد مشاعرُ بداية الرحلة التي تُوحي بمصير مجهول محفوفٍ بالمخاطر والويلات.

بعد ذلك الصمت المريب، ينطلق الصهريج بسرعة فائقة ينهب الصحراءَ من أجل الوصولَ بأسرع وقت، مع هذا المشهد تنطلقَ الموسيقى متصاعدة متوترة تزيد من قلق المشاهد وهو يشعر بمشاعر الأجساد الثلاثة المتكومة في لظى الخزّان الملتهب. والشمسُ الحارقةُ تلفح وجهَ أبي الخيزران وهو ينظر في المدى الشاسع متلهّفا الوصول إلى النقطة الحدودية التي تبدو بعيدة المنال. وفي نهاية الفيلم، حينما يُخرج أبو الخيزران الأجسادَ الثلاثة ويلقيها على مكبِّ القمامة، تاركهم لضواري الصحراء وجوارح السماء، في هذه اللحظات لا نسمعَ إلا صوتَ الريح تعوي في الصحراء... وتنطلق موسيقى صلحي الوادي في هذه اللحظات؛ لتعزف لحنَ نشيد الموت؛ لتستقرَ اللقطةُ على يد أحد الأجساد المغدورة راسمةً إشارة استفهام مريبة، مترافقة مع نقرات آلةِ القانون التي تتلاشى ببطيء إلى

العودة إلى الفهرس

الصمت... إلى النهاية.
والجدير ذكرُهُ أنّ بطولة الفيلم كانت لكلٍّ من عبد الرحمن آل رشي، محمد خير حلواني، بسام لطفي، وصلاح خلقي وغيرهم.
ونحن نسأل هل حظي الراحل غسان كنفاني بمشاهدة هذه التحفة السينمائيّة لروايته «رجال في الشمس»، هناك أنباءٌ متضاربةٌ بهذا الخصوص، قولٌ بأنه التقى بالمخرج توفيق صالح في بيروت الذي حمل إليه الفيلمَ بعد إنجازِهِ وشاهده حينها، وأقوالٌ بأنه لم يتسنَّ للشهيد كنفاني أن يرى الفيلمَ نظرًا للظروف التي رافقت إنتاجَ الفيلم وإنجازَه والسماحِ بعرضِه، وبعدهَا استشهد غسان كنفاني.
الفيلمُ الروائيُّ الثاني الذي سنتحدث عنه هو فيلم «عائد الى حيفا» من إخراجِ العراقي قاسم حول، المأخوذُ عن روايةٍ بالاسمِ نفسهِ للكاتب الشهيد.
ويعدُّ هذا الفيلمُ أوّلَ إنتاجٍ سينمائيٍّ روائيٍّ طويلٍ لجهةٍ فلسطيّنية. حيثُ قام قسمُ السّينما في الجبهةِ الشعبيةِ لتحريرِ فلسطين، الذي أشرف على تأسيسهِ الكاتبُ الشهيد بتمويل إنتاجِ هذا الفيلم، وبدأ بتصويرِ الفيلمِ بينَ السنوات 1980 – 1981، في مناطقِ شمال لبنان بين مدينة طرابلس الساحلية ومخيميْ نهر البارد والبداوي للاجئين الفلسطينيين، الذين اشتركوا كمجاميع في مشاهد ذلك الفيلم. واختيرت تلكِ المناطق للتصوير كونها تشبه إلى حدٍّ ما الأماكنَ التي جرت فيها أحداث روايةِ غسان كنفاني.
والأحداثُ بطبيعة الحال تجري في شهر نيسان عامَ 1948، في مدينةِ حيفا، وتصوّر سيدةً فلسطينيةً «صفية» تترك طفلَها الرضيعَ «خلدون» وحيدًا في المنزل، وتخرج؛ لتبحثَ عن زوجها «سعيد» وسطَ سيلٍ هائلٍ من البشرِ، كانوا يتدافعون بذُعرٍ يبغون النجاة، إثرَ قيام العصاباتِ الصّهيونيّةِ باحتلالِ مدينةِ حَيفا.
وعندمَا وجدت صفيةُ زوجَها «سعيد» في ساحة الميناء، حاولت معَهُ العودةَ إلى البيتِ لإحضار ابنها، لكنّ القذائفَ والجنودَ البريطانيّينَ قطعوا الشوارعَ ووقفوا حائلًا دونهما، فيضطران إلى النزوحِ ويُترَك الرضيعُ لمصيرٍ تَجهله العائلةُ. تمرّ الأيامُ والسنونَ، وتعود الأسرةُ بعدَ عشرين عامًا، إثرَ حربِ حزيران عامَ 1967، عندما سمحت سلطاتُ الاحتلال الصهيوني للعائلاتِ التي

هجّرت من تلك المناطق بزيارةِ بيوتها، فعادت تلك العائلةُ إلى حيفا لتَجد ابنَها «خلدون» وقد أصبح اسمُه «دوف» مجنّدًا في قوات الاحتياطِ الصهيونيّة، وقد تبنته عائلةٌ يهوديّةٌ استوطنت البيتَ بعد نزوحِ العائلة عام 1948، وتبلغ المأساةُ ذروتَها بعد أن عرف الشابُ الحقيقةَ؛ إذ أصرّ على الانحيازِ إلى والدته اليهودية التي تبنته، وفي الوقت ذاته كان الأَبُ يعارض التحاقَ ابنه الثاني بالعمل الفدائي، لكنْ بعد أن رأى حالةَ ابنه «خلدون» سابقًا «دوف» حاليًّا؛ قرّرَ الموافقة؛ ليعودَ فيجدَ ابنَهُ قد التحق بالعمل الفدائي، وتكونُ المواجهةُ لاحقًا بينَ الأخوين.
وكما أسلفنا، ليس كلُّ روايةٍ ناجحةٍ يجب بالضرورةِ أن تتحول إلى فيلمٍ سينمائيٍّ ناجح، وهذا في الحقيقةِ ما أصَابَ فيلمَنا «عائد إلى حيفا» حيث إنه «مع الأسف» لم تكن تكفي النيّاتُ الطيبةُ والحماسةُ لإنجازِ عملٍ سينمائيٍّ ناجح، فقد أصاب الوهنُ أحداثَ الفيلم وشابَه بُطْءُ الإيقاع، وكانت أحداثُ السّردِ السينمائي وحوارات الممثلين أشبه بالإلقاءِ المدرسي لحواراتٍ كانت قد حُفظت من قبلُ وحانَ أوانُ تسميعِها. خاصةً تلك الحواراتُ التي دارت بين صفية وزوجها سعيد مع السيدة اليهودية التي استوطنتِ منزلَهم. فقد كان الأداءُ باهتًا، خاصةً أن الحوارات جرت بينهم في غالب الأوقات باللغة الإنجليزيّة، وتمّ إنجازُ الصوتِ المرافقَ بطريقة الدوبلاج، وقد جاء ذلك « مع الأسف» غيرَ متقن، كذلك الحواراتُ التي كانت تجري بين أولئك المهاجرين اليهود القادمين إلى فلسطين، التي شابها الكثيرُ من عدمِ

الإتقانِ وسذاجةٌ في التِعابير، ولم تُعطِ ما كانَ يؤمّلُ منها، مثلَ حواراتِ الوالدينَ مع ابنهما خلدون.

وكانت الأدوارُ الثانوية للممثلين أيضًا ضعيفةَ المستوى، وقد لازمَها هبوطٌ في الأداءِ والتعابير، مثلَ الابن الثاني «خالد» والقائد العسكري الذي كان يُشرف على تدريبِ الشباب المِتطوعين، وحاول الفيلم أن يصوّرَ الأملَ وعلامات تشيرُ إلى المقاومة المسلحة كطريقٍ للتحريرِ والنصر، وذَلك من خلال الشابِّ «خالد» الذي كان يصرّ على والدِه بالموافقة على التحاقه بالعملِ الفدائيَ، وقد عارضَ «الوالدِ» ذَلَك بالبدَاية، لكنّه انصاعَ أخيرًا خاصةً بعد اللقاء الذي حصل مع «ابنه خلدون» حيث تأكّدَ أنّه سيظلِ «دوف» اليهودي الذي تشرّب الأخلاق والقيمَ اليهودية التي تربى عليها، والذي أفصحَ عنها «دوف» نفسه، وجاء التحذيرُ واضحًا من الوالد موجَّهًا إلى «دوف» بأنّه يومًا ما سيكون لقاءٌ دام بين «دوف» الجندي في جيش الاحتلالَ و «خالد» الفدائي الفلسطيني القادم في عمليةٍ فدائيّة.

مع العلمَ أنه تمَّ توظيفُ إمكانياتٍ فنيّة جديدة من أجل إنجاح الفيلمٍ. الذيً قام ببطولةِ أدوارِه الرئَيسيّةِ كلٌّ من الممثّلة المسرحيةَ اللبنانية حنان حاج علي، والممثل بول مطر، والسوري جمال سليمان في بدايةِ ظهوره. إضافة إلى أنه تمّت الاستعانةَ بممثلَة شهيرة من جمهورية ألمانيا الديمقراطية «كريستينا شَورن» أما الموسيقى التصويريةُ فكانت لزياد الرحباني وقدمت المؤسسةُ العامةُ للسينما في سورية خيرة فنيّيها من مدير التصوير جورج لطفي الخوري، والمونتَاج لقيسَ الزبيدي، إضافة إلى الأمورَ الفنيةِ والتقنية كافة.

إلا أن النَجاحَ المرجو لم يتحقق. وحُبس الفيلمُ في العلب، ولم يعرضْ إلا على نطاق ضيّق. وأعتقد أنه لو قُدّر لغسان كنفانَي أن يرى روايتَهُ على الشاشة السينمائيّة لم يكن سيرضى عن ذلك كثيرًا.

أما الفيلمُ الروائي الثالث والتي استمدّ مادتَهُ الرئيسة من أدبِ غسان كنفاني فهو الفيلم الإيرانيَ «المتبقي». والفيلمُ مأخوذٌ « بتصرّف» عن روايةِ كنفاني «عائد إلى حيفًا» من إخراجَ «سيف اللّه داد» وقد صُوّر في سورية، بالتعاون مع المؤسسة العامة للسينما، في بدايةِ التسعينات مِن القرنِ الماضي.

وبممثلين سوريين «سلمى المصري، جيانا عيد، جمال سليمان، علاء الدين كوكش، غسان مسعود وغيرهم».

يحاولُ الفيلمُ أن يعيدَ النظرَ بمصير الشخصيات وسيرِ الأحداثِ في روايةِ كنفاني الَأصلية، لكن دوَن أن يتقيّدَ بالأمانةِ لا في النصّ ولا في الأحداث الأصليةِ التي سردتها الروايةُ المكتوبةَ. فخلال احتلال القوات الصهيونيةِ لمدينة حيفا 1948، تَترك زَوجةُ الدكتوَر سعيدِ طفلَهاِ الرضيعَ في سريره؛ لتحاول الوصولَ إلى عيادة زوجها للاطمئنان عليه، يلتقي الوالدان في الطريقَ ويحاولان العودة معًا إلى طفلهما المتروك وحيدًا في المنزل، لكنّ الرصَاصَ الصهيوني يوقعهما قتيلين تحت شرفةِ منزلهما. يبقى الطفلُ «فرحان» بعهدَة أسرةٍ مسيحيةٍ مجاورة، لكنِّ الضابطَ الصهيوني «شيًمون» المسؤولِ عن تهجيرِ الفلسطينيين يطرد الأسرةِ المسيحيةِ بعد أن يخلّصَها الطفل ويعطيَهُ لأسرة يهوديّة قادمة من بولونيا، الأمُّ فيًها لا تنًجب، وتًتبناه الأسرةُ اليهودية، وتطلق عليه اسمَ «موشيه» ومع ذلك لم تتوقفْ محاولاتُ استعادة الطفل بل استمرت من خلالٍ جدته الَتي استطاعت أن تجدَ لها عملًا (مدَبّرَة منزل عند العائلةِ اليهودية) فاستطاعت أًن تبقى علىَ مقربة من الطفل (حفيدها)، إلا أنّ كلَّ المحاًولات باءت بالفشل. ويصل الفيلمُ إلى ذروتهَ في الجهاد الفدائي والتضحيةِ بالنفس، عندما تأخَذ الجدةُ حقيبةَ متفجرات من زوجها الصحفي الذي يتعاون معً المقاومةَ، وتضعها في قطارِ ينقلُ جنودًا صهاينة، وبعد أن يسيرً القطارُ يكتشفُ الضابط «شيمون» أمرَها، فتقفزُ مع حفيدها من القطار الذي ينفجرُ بعد لحظاَت، فتستشهدُ الجدةُ، وينجو الطفلُ ويتًعالى صراخُهُ مبّشرًا بالأملِ الفلسطيني القادم.

ورغمَ هذا الاختلاف في الأحداث بين الروايةِ الأصليةِ والفَيلم، إلا أنّ النجاحَ أصابَ هذا الفَيلم؛ نظرًا للحرفيّة التي اشتغلَ بها المخرجُ الإيراني؛ وللحبكةِ الدراميّة في صياغة السيناريو، وكانَ الأداءُ للَممثلينَ « كاَفةً» ينمّ عن خبرة ومهنيّة، فضلًا عن التصوير الرائعً وتنفيذ مشاهد المعارك والاشتباكاتَ، لما للطَاقم الإيرَاني منَ خبرةٍ في هذا المجال. ويعدُّ «المتبقي» منً أنجح وأفضلِ ما صُنع منِ أفلام إيرانيّة ناقشت موضوعًا فلسطينيًّا.. وعُرِض الفيًلمُ على نطاق واسع سواءً في إيران أو في سوريا ولبنانً ومهرجانات عالميّة عديدة.

ومن الأفلامِ الروًائيّةِ القصيرة التي أخذت أحداثَها من روايَاتِ غسان كنفاني يبرز لدينا فيلم «السكينَ» من سيناريو وإخراج المخرج السوري «خالد حمادة» عن رواية «ماتبقى لكم» والفيلمُ من إنتاج المؤسسة العامة للسينما في سوريَة عامَ 1971، ومنَ تمثيل سهير المرشدي، رفيق سبيعي، بسام لطفي، ناجي جبر. تعكس قصةُ هذا الفيلم جانبًا من مأساة الشعبِ الفلسطيني من خلال ثلاث شخَصياتَ أساسيّة «حامد، مريم، زكريا» فحامًد الشابً الحالم، تصفعه في بدايةِ حياته أزمةٌ عائليّة، ويلتقي بزكريا الرَجل السَاقط أخلاقيًّا، المتعاون في الوقت ذَاتهِ مع المحتلين، فيقررُ التخلصَ منه.

وفيلم «زهرة البرقوق» هو روائيٌّ قصيرٌ مدتُهُ 22 دقيقة من إنتاج مؤسسة السينما والمسرح في العراق، ومَن إخراجَ «ياسين البكريَ» وهو مأخوذٌ من روايةِ غسانِ كنفاني، «برقوق نيسان» يبرزُ قدرة الفلسطيني على المقاومة، ويقومُ على أساسِ الزجِّ بالشخصيّةِ المَحورية، والانتقالَ بها من المواقفَ الهامشيةِ إلى طريَقِ الانغماس في الثَورة.

أما فيلمَ «البرتقَال الحزين» أيضًا فروائيٌّ قصيرٌ مدتُهُ 20 دقيقة من إنتاجِ التلفزيون العراقي عامَ 1969، ومنَ إخراجِ «گوركيس عواد» وهو مأخوذٌ من قصّة كنفانيِ «أرض البرتقال الحزين» ويتناوَل حياة عائلة فلسطينيّة ومأساتها، هُجّرت من فلسطًين وعاشتً آلامَ الهجرةِ واللجوءِ ومعاناتهما.

وهو من إخراجَ العراقي «حسن العبيدي» الذي قدّم فيلمًا قصيرًا يحمل اسمَ «وصية أمَ سعد» عامَ 1976، ويتناول شخصيّةَ أمٍّ فلسطينيّة وموقفَها من ابنها الذي يلتحقُ بالعملً الفدائي، وهناكَ تشابهٌ إلى حدٍّ كبيرَ بين أحداث هذا الفيلم وأحداث إحدىً اللوحات التَسع التي ترسمها روَايةٌ «أمٍ سعد» للكاتبِ الشهيد، التي تعالجُ حالة عموميّةً جماعَيّة تعبّرُ عن الحالة الشعبيّة في الزمن الفلسطيني، زمنَ المقاومة الفلسطينيَّة المعاصرة، التيَ انطلقتَ بعد سنواتٍ من حياةِ البؤسِ والتشرّدِ والشّقاء.

إنّ الدافعَ وراءَ اختيارِ بعض روايات غسان كنفاني وقصصه ونَقلها للسينَما؛ لم يكن بسبب نوعَيَّة تلكَ الأعمال الأدبيّة، وإنّما بسبَبِ القَضيّةِ التي تناولتها

العودة إلى الفهرس

رواياتُه، أي فلسطين، يقول الشهيد في هذا المجال: «إنّ فلسطينَ تمثلُ العالمَ برمّته في قصصي». أما بصدد رواياته فيقولَ: « إنّ شخصيتي كروائيٍ كانتَ متطورةً أكثرَ من شخصيتي كسياسي وليس العكس».

لقد كان غسان كنفاني يطوّرُ دومًا في الشكل الروائيِ الذي ينجزهُ ويتجاوزهُ إلى شكل روائيٍّ جديدٍ، ولا يكرر نفسَه. ولعلنا نستطيع القول: إنّ أدبَ غسان كنفاني في رواياته ليس أدبًا خالصًا، إنّما أدبٌ فيه الكثيرُ من السينما، فيه سينما أكثرُ بكثيرٍ من الأفلام نفسها. «من هنا نجدُ أن أدبَهُ يدفعَ مَنْ يقتبس منه إلى السينما، ألا يغفل تلك المهمة المشوقة والمحفزة للإبداع والابتكار الموجود في أدبه. عليه ألا يكتفي في عملية الإعداد أو الاقتباس أو التحويل بالبحث فقطَ عن المعادلَ البصري الموازي للصورة الأدبيّة، بلَ عليه أن يجدَ المعادلَ السينمائي للبناءِ المونتاجي، ولمستوى البناء الزمني في سردِ الأحداث، إضافةً إلى البحثِ المناسب في رسم صورة الحدث الماضي لا كمَا حدث، بل باعتباره ذاكرةً ذاتَ فاعليةٍ في الحدث، وعليه أيضًا أن يجدَ المعادلَ السينمائي المناسبَ لتعدّد الأصوات في السرد والإيقاع عن طريقَ تلك الحَبكةِ القادرة على ربطِ الأحداثِ التي تتشكلَ منها الحكاية». (4)

وفي النهاية.. وبعدَ هذه السنوات الطويلة على استشهاده، لا يمكننا إلّا نقول: إن النتاجَ الأدبي لغسان كنفاني من رواية أو قصّة « والتي تحوّلت إلى أفلام روائيّة طويلة أو قصيرة» ما هي إلا علاماتٌ بارزةٌ في المشهد السينمائي العربي، وفي السينما النضاليّة المقاومة، وحققت تلك الأفلامُ حضورًا عربيًّا وعالميًّا، وحفرت عميقًا في ذاكرة الإنسان بمضامينها وطرحها وأسلوبها، وقدّمتْ قضيةَ شعبٍ مكافحٍ ومضحٍّ، لا يزالُ منذ أكثرَ من قرنٍ يناضلُ ويقدّمُ الشهداءَ؛ ليجدَ له مكانًا تحتَ الشمس، أسوةً بباقيّ شعوبِ هذه المعمورة، والذي يستحقُ الحياةَ بجدارة■

مصادر البحث:

(1) الاقتباس من المحكي الروائي إلى المحكي الفيلمي (حمادي كيروم)

(2) غسان في السينما: قيس الزبيدي

(3) مقابلة صحفية مع المخرج توفيق صالح

(4) سينما غسان كنفاني: بشار ابراهيم

عائد إلى حيفا:

محاكمة مبكرة للحركةِ الوطنيةِ الفلسطينية

هاني حبيب- كاتب صحفي / فلسطين

كتب غسان كنفاني الروايةَ والقصةَ والبحث، في كلِّ أعماله الأدبية، على اختلاف أشكالها، فكانت من القطع المتوسطة، وهي أكثرُ سهولة في القراءةِ والتداول، ومع ذلك كانت أكثرَ تكثيفًا وتركيزًا، وفي الغالب كانت مفعمةً بالأفكار والمواقف، لكنها تمحورت حولَ فكرة أساسية من بين مُختلف هذه الأفكار، وربما يُلاحظ القارئُ أن كلَ روايةً أو قصة تتمخض عن مَقولاتٍ من بينها مقولةٌ هي التي باتت كأنها شعارُ الروايةِ أو القصة، ويحارُ القارئُ المتابعُ لأعمال غسان، في أيِّ الأعمال الأهمُ والأفضلُ، فمن الصعب المفاضلةُ بين تلكَ الأعمال التي اتسمت بالتركيز والتقنيةِ الفنيةِ العاليةِ والرسائلِ الشائكةِ المعقدةِ الملغزة.

خارج النص

في تقديري الشخصي: أرى أن عائد إلى حيفا، أكثرُ روايات غسان التي تُلقي بالقارئ في بحرٍ من الأسئلة الشائكة، حتى الإجاباتُ تتضمن مثلَ هذه الأسئَلة التي تتسم أحيانًا بالحَيْرَة حول مغزاها ومعناها ودلالتها. كان المخرجُ المبدعُ قاسم حول، يريد أن يَخرجَ فيلمًا سينمائيًا عن رواية الأعمى والأطرش، لكنّ الجبهة الشعبية أقنعتَه بإخراج فيلم عن رواية «عائد الى حيفا» وفي تقديري أرى: أن قرارَ الجبهةِ الشعبيةِ يعودِ إلى تركيزِ العنوان، كما المضمونِ على حقِ العودة.

سياقُ الروايةِ يصل بالقارئ إلى حقيقة أن الابنَ لمن رباه وليس للأم البيولوجية التي ولدته، هذا السياق توقفت عنده العديدُ من القراءات النقدية، إلا أنني أعدُّ أن سياقات الرواية تشكل نقدًا لاذعًا للحركة الوطنيّة الفلسطينيّة التي فشلت في إنهاء الاحتلال وتحقيق حقِ العودة بعد عقدين في ذلك الوقت من اللجوء، عندماَ كتب غسان الروايةَ عامَ 1968 (عشرون عامًا ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك)، (عاجزون عاجزون) وحتمية الكفاح المسلّح لضمان استعادة الأرض والحقوق (لو كنت مكانك لحملت السلاح مَن أجل هذا) إنّها محاكمةٌ لقيادة الحركة الوطنية الفلسطينية بعد مرور عامين على انطلاق الثورة الفلسطينيّة بشكلهاَ الرسمي، وكأنّ غسان بذلك أراد أن يقول: وأخيرًا عرفنا الطريق إلى العودَة، من خلال الكفاح المسلح.

بعد أن وصل سعيدٌ إلى حيفا برفقة زوجته...ساعاتٌ قليلةٌ ويعود إلى خيمة اللجوء. صحيحٌ أنّه عاد، لكنها عودةٌ فرديّةٌ قصيرة، ذاتَ أبعاد شخصيّة في الغالب، مع أنها تطال كلَّ فلسطيني، مع ذلك، فهذه العودةُ الفاشلةُ، لم تكن العودةُ التي أرادها غسان، فالحلُّ ليس فرديًّا ولا شخصيًّا، إنّه حقٌّ طبيعيٌّ لعودةِ الشعبِ الفلسطيني إلى أرضِ أجدادهِ ووطنِه المسلوب.

عائدٌ إلى حيفا، محاكمةٌ وصرخةٌ مبكّرةٌ لا تزال حيّةً وعاليةً حتى اليوم وإلى أن تتحقق عودةُ الشعبِ الفلسطيني إلى وطنِه.. كلّ الوطن السليب■

الأدب الفلسطيني بين تحفيز المقاومة وتحديات التطبيع ومغريات الحداثة

(8)
التَّوراةُ الْعِبْرِيَّةُ الْمُصَهْيَنَةُ اصْطِنَاعُ إله ووَعْدٍ وشَعْبٍ وذَاكِرةٍ، وتسَوِيغُ سَرقاتٍ

عبد الرحمن بسيسو – شاعر وكاتب فلسطيني/ سلوفاكيا

لَم يَكُنْ للادب الفلسطينيّ المُعاصِر، بِشَتَّى أجناسه، أنْ يكْتَسبَ هُويَّتَهُ الحقيقيَّة، وأنْ يَكونَ جديرًا باسمه، بِمَعزل عنْ تركِيزه، وَفق مَنْهج جَدَليٍّ رصين، وبموضوعيَّة صَافيَة، وبطَرائق وأسَاليبَ رُؤيَويَّة وجماليَّة مُتَواشِجَة، على مُقارَبَةِ السَّرديَّة الصُّهيونِيَّة الاسْتعماريَّة الزَّائفة منْ كل مَنْظور إنسانيٍّ حضاريٍّ وتاريخيٍّ ومَعرفيٍّ وَوجْهَة، بِقصْد تَفْكيكهَا، ونقضَها، ونفي جَدارتهَا بالوُجُود، وهذا هُو ما سَنعْمَل على قراءة تجَليَاته النَّصيَّة، وتَعَرُّف كيفيَّات مُعالَجَته وما يُصَاحِبُهَا من مدلولات، وتبيُّن أمداء حُضُوره واتِّجاهَاته، في الأَدب الفلسطِيني المُعاصِر، وذلك على مدى أقْسَام قراءة تحليَلية نَقديَّة تطبيقيَّة، شرعْنَا، عبْرَ ما سبَق نَشْرُهُ في مجَلَّة «الهدف» من أقسام تمهيديَّة، في بلورة إطارِها النَّظريّ والمنهجيّ الذي يُؤسِّسُ إمكانيَّةَ اتِّسَامِها بالأصالَةِ، والعُمْق، والشُّمول.

وإنِّي لأحْسَبُ أنَّ مُقارِبَتَنَا النَّقديَّةَ الجَذْرِيَّةَ التَّمهيديَّةَ لـ"التَّوراة العبريَّة" و"السَّرديَّة الصُّهيونية"، ولا سيَّما ما تضمَّنَتهُ الحلقتان الأَخيرتان من هذه السِّلْسلة (الحلقتان: 6 و7 المنشورتين في العَددين المتِواليين: 1499/25 و1500/26 من مجلَّة «الهَدَف»)، قد مَكَّنتنا – وإنْ عبرَ تَبَصُّرات نَصّيَّة، ومُقاربَات مَنْهَجيَّة، تُغايِرُ تلْكَ التي أنْجَزَهَا، أو انتهجها، غيرُنا مِنَ المُتبَصِّرِينَ الذينَ قاربُوهُمَا من مَنظورات مُتَنَوِّعَة ووَفقَ مناهَجَ بَحث تَعودُ إلَى عَلُوم إنسانيِّة عَديدة – منْ تَعْزيز إدراك مَا قَدْ خَلُصُوا إلَيْه منْ حَقِيْقَةٍ راسِخَةٍ تَقُولُ: إنَّ هذهِ"التَّوراَة" و»تلْمُودَها» وغيرَهُ، من مُذكراتها التَّفسيرِيَّة، وتعاليمهَا، وتَأويلاتَهَا المُصَهْيَنَةَ في سياقَ صَوغ «السَّرديَّة الصُّهيونيَّة» لا تَعْدُو أنْ تَكونَ إلَّا دليلًا نَصِّيًّا عمليًّا يَتأَسَّسُ بِناؤهُ على تَسْويغ سرقَة حضارات «الأغيار» وسلبَ تواريخَهِم، وغزِو أراضيهم واحتلَالها، وذلِك انطلاقاً مِن إنكارِ وجودهِم المُحَفَّز بدوافع جَشع بَشريٍّ غرائزَيٍّ قرنتْ بادِّعَاء أنَّ كُلَّ ما قد بَنَاهُ هَؤلاء «الأَغيارُ» وصَنْعَوهُ، وأنجزوهُ، فامتلكُوهُ، ليس إلَّا حقًّا راسخا لأتْبَاع هذه «التَّوراة» المُلَفَّقَة الَّتي اختُزلت في إلهٍ مَصْنُوع، وأُسْطورتَي «أرض ميعادٍ» و"شَعبٍ مُختار"، و"ذاكِرَةٍ مُصْطَنَعة"!

إنَّهُ إذًا، وبأَقَلِّ درجَة من درجاتِ إعمَالِ العقلَ، "وَعْدٌ إلهيٌّ" مُتَخيَّلٌ وزائِفٌ بقَدْرَ ما هُو زائفٌ ومُتَخيَّلٌ الإلَهُ الَّذي اَصْطَنَعَ؛ ليَعِدَ بِه صَانعيْه الجَشْعيْنَ المُتَحَرِّقينَ لِسْلْبِ تَارَيخ الأغيار وحضاراتِهم، وكُلِّ مَا قَدْ صَنَعُوهُ، أو أنجزَوَهُ، فَأسندوهُ إلى أنفسهمْ، وملَكُوه، وذَلكَ على نَحْو يُسَوِّغُ لأَتباع هذه "التَّوراَة الأِسْطُوريَّة المُصهْيَنَة" سَلْبَ الأراضي بِكُلِ ما يَكْمُنُ في بواطنها ويَمُورُ فيها مُخْصبًا إيَّاهَا ومُتَجَلِيًّا في رِحَابهَا وفي فضَاءات سَماواتها الشّاسعَاتَ، من منجزات حضَاريَّة وموارِدَ وخيرَات، وادِّعَاء ملكَيَّتِهَا لأَنْفُسهم السَّارقَة المُسْتَلبَةَ قَبْلَ الشُّروع فَي إتْمَام سرقَتهَا واسْتَلابَهَا، وبَعْدَ إتْمامهمَا؛ لتكونَ أرضا ومُنْجزات وموارِدَ وخَيرَات خَالصَة الملكيَّة لَهُم، بأمرِ ذلك الرَّبَّ المُحَفِّز عَلى الغَزو والهَتْكِ، والفَتْكِ، والسَّرقَةِ، والاستلابِ!!!

* * *

وإنَّنا لَنَجدُ في هذه "التَّوراة" مَا يَربُو على الحَصْرِ من الأدلَّة والبراهين النَّصّيَّة الَّتي تُؤَصِّلُ الحقيقةَ الَّتي خلُصْنَا – مِثْلَ غيرِنا من القُرَّاءِ المُتَبَصِّرِيْنَ

العودة إلى الفهرس

والدَّارسينَ والنُّقاد من شتَّى الثَّقافات – إليها، فَتجْعَلُها حقيقية أبيَّةً على التَّشكيك العلْميِّ والدَّحْضِ المَنْطقيِّ. وليسَ منْ دَليل فعْلي كُليٍّ مُتشابك العَناصر والتَّجليَّات علَى هَذه الحقيقة إلَّا حرْص كُتَّاب "التَّوراة" علَى تضمينهَا سلاسل خُطواتٍ عمليَّة مدروسَة بإتْقان، ومُجرَّبَة منْ قبلهم؛ لإتمام اقتراف هَذه الجَريمةِ القُصْوَى، والبالغة الجسَامَة، من كُل منظور إنسانيٍّ ووجْهَة حضاريَّة وتاريخيَّة وقانونيَّة، وهو الأمرُ الذي جَعلَها، في ذاتها وعبرَ كُل صفحاتها، أنموذجًا تطبيقيًّا شاملا، ووافيًا، وكُلِّيًّا، لاقتراف جريمة السَّرقة الكُليَّة، وإلقاء وزر اقترافهَا علَى عاتق "إله مُتخيَّل" كانَ ذاتَ يَوم مَوهومًا، وبعيداً كُلَّ البُعْد عن التَّاريخ الحضاريِّ الإنسانيِّ الحقِّ وأزمنته، قد "وَعَدَ" أجْدادًا مُتخيَّلين مَزْعُوميْ الوُجود بامتلاك مَا كانوا قدْ "سَرقوه" ليُورِّثوه لأحْفاد صَهاينة سيَطلعونَ، بَعدَ ما يَربُو علَى ألفيْ عَام، من دياميس ذاكرة مُصْطنَعَة تقُومُ على أدْلجَة أساطير هذه "التَّوراة" وأرْخنَتها، ليُطالبوا باستعادة ميراثهم المَزْعُوم!!!

وهكذا كانَ لسَرقَة النَّصِّ الفلَسْطينيِّ الحضاريِّ التَّاريخيِّ القديم، وانتهاكُ حَقائقه، وتزويره، وإعادة كتابَته توخِّياً لامتلاكه عبْرَ اصْطنَاع ذاكرَة أسْطوريَّة تُناقضُهُ، أنْ تُجْعَلَ مُسوَّغًا إلهيًّا، فوقطبيعيًّا، يَجري توظيفُهُ من قبل الحركة الصُّهيونيَّة الاستعماريَّة وداعميهَا منَ الرَّأسماليينَ المُتوحِّشينَ لسَرقَة الأرض الفلَسْطينيَّة، وانتهاك حقائقها الحضاريَّة والتَّاريخيَّة الرَّاسخَة في شتَّى طبقاتها، وتزوير هُويَّتهَا الجَوهريَّة المُطابقَة هُويَّة الشَّعب الفلسطينيِّ، الذي أوجدَها مُذْ فَجْر الحضارة الإنسانيَّة، وذلك في الزَّمنَ البَشريِّ المُعَاصر المحْكُومة غالبُ مسارات صيرورَته التَّاريخيَّة غير الإنسانيَّة، بأيديولوجيات رأسماليَّة عُنصُريَّة تُوغل في الغيبيَّة، والتَّخليط، والجَشع، وفُقْدان العقل، والتَّوحُّش البَشري السَّاديِّ!!!

***

وللصَّهاينَة من اليَهُود، ومنْ غير اليَهُود، الزَّاعمينَ، في الزَّمن الرَّاهن، انتماءً إلى أجْداد توراتيين مُتخيَّلينَ لَم يَصْنَعْ لَهُمْ "وُجودًا مُراوغًا" في الوَهْم المُنْفلت إلَّا التَّخْييلُ الوهْميُّ المُنْفلتُ؛ فلا يَرونَ أنْفُسَهُمْ، وقَد اقتُلعَتْ منْ دواخلهم بُذورُ إنسَانيَّتهم فصُهْيِنُوا و"حُوسِلُوا". وحُقنُوا بشرائح ذاكرة أسطوريَّة مُصنَّعَة، وجُعلُوا جذْواتٍ "مَحارق" جَحيميَّة، إلَّا أحفادَ أحفاد لأحفاد مزعُومينَ هُمْ، بدورهم مُتخيَّلينَ لكونهم مَنْسُوبين، في الأصْل، إلى رأس سلالة مُتخيَّل، وإلى آباء وأبناء أباء وأحْفادٍ وأحْفادِ أحفاد مُتخَيَّلين، وإلَى إله كَانَ قَدْ قُدَّ منْ وهْمٍ وتخيُّلات، ومنْ غيْرة، وحسَد، وجَشع، وكُره، وأحْقاد، وأضغاث رَغائبَ غرائزيَّة، وأوهام أمْلَتْ علَى صانعيْه تَصْعيدَ مَكبُوتَ غرائزهم المتوحِّشة عَبْرَ تجليَة وُجودها في مكوِّناته، وفي شتَّى تجليَّات وُجُوده النَّصيِّ التَّخْييليِّ الذي فيْه، وفيْه وحسب، يَرونَ حقائقَ أنفُسهم السَّوداء؛ فلا يُبْصرونَ وُجودًا لكينونتهم المُتخيَّلة الزَّائفة التي تلْفظُهَا الأرضُ الفلسطينيَّةُ، ويأبَى الوجُودُ الحَضاريُّ الحَقُّ اعتمادَ وُجُودهَا في رحَابهَا، إلَّا في مرايا ذلك التَّجلِّي النَّصِّيِّ التَّخْييليِّ المُعْتمَة المشروخَة.

وعلى الرَّغْمِ منَ الانكشاف القديم لحقيقة زيْف التَّوراة باعتبارهَا كتابًا مُدوَّنًا يتأسَّسُ علَى "تلفيق مَسْروقات" منْ أساطير الشَّرق القديم، فإنَّ للحقيقة المُعاصرَة التي تقُول: إنَّ بعضًا من أساطيرها، لا سيَّما أسطورتي الوعد والاختيار، وأساطير الغزو والحَرب والهتْك والفتْك والتَّطهير العرْقيِّ وتوزيْع الغنائم وتسييج الأرُوض والاستيطان المَسْعُور، قد ألْبَس ثوبَ التَّاريخ؛ ليُؤدْلجَ: دينيًّا، وسياسيًّا، واستعماريًّا، وليُعاد تأويلُهُ منْ قبَل الصُّهيُونيَّة العُنْصريَّة والرأسماليَّة الغربيَّة مُنذُ ما يَربُو على قرنين منَ الزَّمان؛ ليَسْهُل إسقاطهُ علَى "فلسطينَ" المُستهْدَفة، لأسباب عديْدة باتتْ جليَّةً، بالاحتلال الاستعماريِّ الاستيطانيِّ، أنْ تدْعُوَ المرءَ الذي لا يَتخلَّى عن إعمال عَقله، إلى التِّساؤل عن السَّبب التَّاريخيِّ، أو الجيوسياسيِّ، الفعْليِّ الذي حال دونَ أجداد وآباء هؤلاء اليَهُود المُصهْينينَ الزَّاعمينَ الآنَ انتماءً إلى فلسطينَ ومَلْكيَّة موروثة، بوعْد إلهيٍّ، لَها، والمجيء إليْها للاستقرار فيها، أو حتَّى لمُجرَّد زيارتها والتَّعرُّف إليْها، لمُدد زمنيَّة، حَضاريَّة وتاريخيَّة، تجاوزت ما يَربُو على ألفيْ عام؟!

ولعلَّ لكلِّ إنسان يُعمِلُ العَقْلَ ألَّا يَتعثَّر بشيْء، أوْ يتأخَّر للَحْظة، عن إدراك الجوابِ الحاسم، والمُؤصَّل حضاريًّا وتاريخيًّا ومنطقيًّا، عنْ هذا السُّؤال الذي سيدفعُهُ جَوابُهُ عَنْهُ أنْ يَسألَ نَفسَهُ وآخرين من النَّاس، باستغراب استنكاريٍّ ودهشة تَهكميَّة: هَل ثمَّةَ شَعبٌ حقيقيٌّ منْ شُعوب العَالَم، ولو شعبٌ واحدٌ وحَسْبُ، قد احتاجَ إلى التَّسلُّح بـ"وعد إلهيٍّ" ليجْعَل من الأرض التي عَمرَها، وبنى صُروحَ حضارتهَا، وطنًا أسْمَاهُ باسْمه الوطنيِّ القوميِّ، أو ليَزْعُمَ لنَفْسه، أو لأيِّ نَفر منَ النَّاس، أو للعَالَم بأسْره، أنَّهُ هُو وحْدَهُ مالكُهَا الحقيقيُّ الذي لا يُنازعُهُ ملْكيَّتهَا أحدٌ من الأقوام قطُّ، كونُهَا "أرضًا موعُودةً" لَهُ منْ قبَل "إلَه" يَخُصُّهُ وحْدَهُ، فلا يُكلِّمُ أحدًا، ولا يُصْغي لأحَد، ولا يَعدُ أحدًا، ولا يُنْزلُ "المَنَّ والسَّلوى" على رأس أحد، ولا يَحْسُنُ في عينه أحدٌ من بَني البَشر، سواهُ كشعب إلهيٍّ مُختار، هُو وحْدَهُ "الشَّعبُ" الجديدُ بامتلاك كُل شيء في الكون، وما سواهُ منَ "الشُّعوب" لا يَعْدُون أنْ يكونوا إلَّا مَحض "مُمتلكَات" تخُصُّهم، أو مَحض "أغْيار" مُستعْبَدينَ منْ قبلهم، أو مَحضَ غُبارٍ؟!!!

***

وإذْ لنْ يَجدَ الإنسانُ المُتسائلُ جَوابًا عن سُؤاله التَّعجُّبيِّ الاستنكاريِّ هذا إلَّا النَّفيَ القاطعَ، فإنَّهُ سيشرعُ في البَحث عمَّا توخَّتْهُ الحركةُ الصُّهيونيَّةُ بإقدامها على أمر لَمْ يَحْتَجْهُ شعْبٌ حَقيْقيٌّ قطّ، وسيَسْعى إلى التَّبصُّر في الأمْر بعُمق يُمكنُهُ منْ إدراك الأسباب الحقيقيَّة الكامنَة وراءَ الحرص الحديث على صَهيَنة الاصْطناع الكلِّيِّ القديم لإلهٍ واحد، وشعب إلهيٍّ مُختار، وذاكرة أسْطوريَّة، وأسفار تكوين وخُروج، وأروض موعُودة، ومن ثمَّ وراءَ التَّوظيف الاستعماريِّ التَّوحُّشيِّ غير المسبوق في تاريخ العالم لكُلِّ تلكَ الأساطير ولا سيَّما أسطورتي الوَعْد الإلهيِّ المَزعُوم، والشَّعب المُختار!

وسيكونُ لإدراك الأسبابِ والدَّوافع الحقيقيَّة لهذا التوظيف أنْ يرتبطَ باستقصاء العقابيل الجسيمَة الَّتي ستنجُمُ عَن اعتبار الوعد الإلهيِّ الأسْطوريِّ وعْدًا حقيقيًّا مُعزِّزًا بذاكرة

لوحة قارئ الجريدة لغسان كنفاني

تُطالِبُ، عبْرَ مُعْتَنقيْهَا المأفُونينَ ومُصَدِّقيهِ المُحَوسَلينَ، بأنْ يجري تَجْسيدُهُمَا في الأُروض المَوعُودة، وذلك بإعمَال الإرهاب والعُنْف المسبوقَيْن بصَهْيَنة يَهودِ العالم، و"حوسلتهم"، وتجريدهم من دينهم، ومنْ بُذُورِ الإنسانيَّةَ الكامنَة في وُجودهم كبَشَرٍ مَنذُورينَ لإدراكِ إنسانيَّتهم، لجَعْلهمْ مَحْضَ وُحوش مُسْتَعْمِرينَ يُجْلَبُونَ مِن شتَّى أرجاء العالم لاستيطان فلسْطينَ أو أيِّ أرضٍ حُرَّة، على حِسَابِ شعب فلسطينَ الإنْسَان، أو أيِّ شعبٍ إنْسَانٍ، يَرْفُضَان، كما أرْوُضُهُمُ الحُرَّةُ، الوَعْدَ الزائفَ، والمَوعُودينَ به، المُخْتَرَعيْن ذاكِرتَهم المُصطنَعَة، ويُقاومَانِ بعَزمٍ وقائعَ تَجْسيدهَا الاصْطنَاعيِّ القَسْريِّ، ويتأبّيانِ عَلَيْهَا، بحَسمٍ قاطعٍ وإطلاقٍ لنْ يَنالَ منْهُما مُرورُ الزَّمانِ، واختلالُ الموازين!!

* * *

والحقُّ، في هذا السِّيَاق، أنَّ العقلَ الإنسانيَّ اليقظ، المكتنز بالمعرفة الحضاريَّة والتَّاريخيَّة، لنْ يَعثُرَ علَى جواب عنْ السُّؤال الأوَّل المُتعَلِّق بتفسِيرِ عدمِ وُجودِ الزَّاعمينَ انتماءً إلى فلَسْطينَ وغيرهَا من الأُروض المُسْتَهْدَفَة منَ اليَهودِ الصَّهاينَةِ المُعاصرينَ في فلَسْطينَ على مَدَى ألفيْ عام وأكثرَ، إلَّا الجوابَ الذي يَقُولُ إنَّ سببًا حائلًا دُونَ هؤلاء الزَّاعمينَ انتماءً أُسْطُوريًّا قديمًا، أو انتسابًا حديثًا زائفًا، إلى "الأُرُوض المَوعُودة" وحَضاراتهَا، من صَهاينَة العالَم ويَهوده المُصَهْيَنينَ، أو دُونَ سِواهُم مَن النَّاسِ، لَمْ يُوجَدْ على مدى مُجريات تَاريْخِ العالَم في تلك الأزمنَة، قطُّ!

ومَا لهذا الجَوابِ القاطعِ إلَّا أنْ يُؤكِّدَ حقيقَةَ أنْ لا صلَةَ حَضاريَّةً، أو تاريخيَّةً، أو قوميَّةً، لهَؤلاء الصَّهاينَة واليهود المُصَهْيَنينَ بفلسْطينَ، كمَا بسوَاهَا منَ الأُروض المَوْعُودة المُستَهْدَفة بالسَّرقَة، وأنَّ الأمرَ كلَّهُ لا يَعْدُو أنْ يكونَ إلَّا مؤامرةً رأسماليَّة استعماريَّة صهيُونيَّةً عُنْصُريَّةً كُبرى على كُلِّ هذه الأُروض وشُعُوبهَا، وفي البَدْءِ منْهَا ومنْهُم، على أرض فلَسْطينَ وعلى شعْبهَا بأسره، وضمْنه، بطَبيعة الحال، الفلَسْطيْنيُّونَ اليهودُ، والفلَسْطيْنيُّونَ المَسيحيُونَ، والفلَسْطيْنيُّونَ المُسلمُونَ، والفلسطينيُّونَ من أيِّ لونٍ، أو دِيْنٍ، أو مُعتَقَد، أو تَوجُّه فكريٍّ، أو رأيٍّ، الذين هُمْ جَميْعًا، وسَواسيَة، فلسطينيُّو الهُويَّة من حيث انتمائهم الثَّقافيّ، الحَضَاريّ، التّاريخيّ، القَوميّ، والإنسانيّ الجوهريّ، المُتأصِّل في كينُونتهم الوُجوديَّة الجَامعَة، والماثِر في أصْلابِ وجْدانهم الجَمعيِّ الكُلِّيِّ.

ومَا هَذه المُؤامرةُ الاستعماريَّةُ، إذًا، إلَّا مُؤامَرةٌ مشروطةٌ بزَمنها التَّاريخيّ، وبدوافع تبلّورهَا، وبمصَالح أطرافهَا، وهي، إلى ذلكَ، مُؤامَرةٌ ذاتُ أهدَاف وغايَات ومَقاصَدَ لاتَقْتصرُ على سَرقَةِ فلَسْطيَنَ و"هَوَدنتهَا"، أو على الأصَحِّ "صَهْيَنتهَا"، ونفْي وُجود شَعْبهَا والفَتْك به، وإنَّما تتجاوزُ كلَا الأمرينِ، لا لتَشمَلَ الهيْمَنَة المُطْلقَة عَلى الشَّرق الأوَسط وشمال أفريقيا فَحَسْبُ، بَل لتُحَقِّقَ غَايَةَ التَّحَكم الصُّهيونيِّ العُنْصُريِّ الرَّأسماليِّ الغربيِّ المُطلَق في موارد العَالم بأسره، وفي مقاديرَ قاطنيْه من البَشَرِ منْ كُلِّ الثّقافاتَ والقوميَّات والأديان! ومَا "العَولَمَةُ المُنْفلتَةُ" الجاري فَرْضُهَا، بوسَائل وتَجسُّدَات شتَّى على العالم بأسْره إلّا مسارٌ مُتَشَعِّبٌ من مسارات هَذا السَّعيِّ الرَّأسماليِّ العُنْصُريِّ المَحمُوم المُناهض للتَّعدُّديَّة الثَّقافيَّة، وللتَّنَوُّعَ الإنسانيِّ الخَلَّاق!!!

* * *

وبطبيعَة الحال، ووَفْقَ منْظُومَة المَعايير الرُّءيَويَّة والجَماليَّة الَّتي بلورتْهَا تبصُّراتنا السَّابقَة، لَم يَكُنْ للأدب الفلسطينيِّ المُعاصر، بشتَّى أجْنَاسه وأشكاله، أنْ يكْتَسبَ هُويَّته الحقيقيَّة، وأنْ يكونَ جديرًا باسمه، بمَعزل عنْ تركيزه، وَفْق مَنْهج جَدَليٍّ رصين، وبموضُوعيَّة صَافيَة، وبطرائقَ وأساليبَ وكيفيَّات تجسيدَ رُؤيَويَّة وجماليَّة مُتواشجَة، على مُقاربَةَ السَّرديَّة الصَّهيونيَّة الاستعماريَّة الزَّائفة بُغيَة تفكيكهَا، ونَقْضها، ونَفي جدارتهَا، منْ كُلِّ مَنظور إنسانيٍّ حضاريٍّ وتَاريخيٍّ ومَعرفيٍّ، بالبَقاء على قيدِ الوُجود إنْ شاءَ بَشَرُ العالمَ أنْ يُدركوا إنسانيَّتَهم. وهذا هُو مَا سنعملُ على قراءة تجليَاته النَّصيَّة في الأدبَ الفلسطيني المُعاصر، وذلك على مدى فُصُول هذه القراءة التَّحليلية النَّقْديَّة التَّطبيقيَّة التي نرجوهَا عميقَة وموسَّعة.

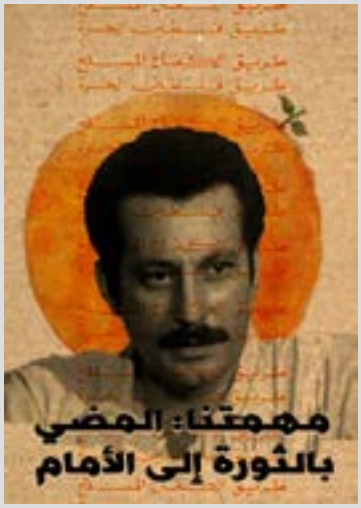

ولعلَّ في تذكير القارئات والقارئين بوَمْضَة وردتْ في روايَة إميل حبيبي: "الوقائعُ الغريبة في اختفاء سعيد أبي النَّحس المُتشائل". أنْ يَكُونَ مُفتتحًا يُومئُ إلى ما تَعِدُ هذه القراءةُ بإضَاءَته من تجليات مُقارَبَة السَّرديَّة الصُّهيونيَّة في الأدبِ الفلسطينيِّ، وهي التجليّاتُ السَّرديَّةُ التي يَبدو أنَّ النَّقدَ الأدبيَّ قَدْ أغْفلَ إضَاءَتَها، أو مرَّ بها مُرورًا عابرًا في سياقات نَقْديَّة لم تُتحْ اكتشافَها، والكشفَ عنْها، وتركيزَ أضواءِ التَّناولِ النَّقْديِّ المُعَمَّق عليها.

في لَحْظَة منَ لحظات صيرورة السَّردِ الغرائبيِّ في رواية "الوَقَائِع الغريبة في اختفاء سعيدِ أبي النَّحْسِ المُتشائل"، يلتقي "المُتَشائل" مع مُعَلِّمه القديم في مسجد الجزار بعكا، فيدورُ بينَهما حوارٌ يَردُ فيه قولُ "المعلم" عن اليهود: "حقًّا إنهم هاجموا القرى التي ذكرها القوم، وشرَّدوا أهلَها ولكن يا ولدي، إنَّ في قلوبهم رأفةً لم يحظ بها أجدادُنا من الغُزاة الذين سبقوهم ... هؤلاء ليسوا مماليك، ليسوا صليبيين، بل عائدون إلى وطنهم بعد غيبة ألفيْ سنة"(الوقائع ...، ص 3، 36)؛ فيعلق "المُتَشائل" على هذا القول بعبارة لا تُفَارِقُ دَلالَةَ التعجُّب الاستنكاريِّ، والتَّهكُّم اللَّاذع، في نفيها مُكوِّنات الأسطورة الصُّهْيُونيَّة السَّوداء الَّتي جُعِلتْ، في أزْمنَة الحداثَة وما بَعدَ الحداثَة، ذاكرةً يُرادُ لَها أنْ تَحْدُثَ: "- ما أقوى ذاكرتهم!"(الوقائع ...، ص 36).

وإذْ يكتشفُ "المُتَشائلُ". بفطرته السَّاذجة، وبالرَّغم من حُلكة الوعيِ الزَّائف التي تُعتِّم عَقلَهُ فَتُظهرُ ومَضَ فطْرَته بجلاء، أنَّ دولَةً تقوم على أعْراقٍ وأجنَاس وقوميّات مختلفة، ولا تَجمعُ القاطنين، فيهَا هُويَّةٌ ثقافيَّةٌ أصيلةٌ ومتماسكةٌ ومفتوحةٌ على الصَّيرورة والمستقبل، لا يمكنُ أنْ تعيش، يقول ساخرًا مِن هذه "الدَّولة المُصْطنَعَة"، ومُتهكمًا عليها، وكاشفًا، في الوقْت نفسه، عن شيْءٍ من مُكوِّنات شخصيَّته الْجُحَويَّة، يقول: "رحتُ أتعجَّبُ مَنْ جهلِ العامل باللُّغة العبرية حتَّى أقنعتُ نفسي بأنَّ هذه الدَّولةَ ليست بنتَ معيشة ..." (الوقَائِع ...، ص 65)■

غسان القدوة والنموذج

طلال عوكل – كاتب ومحلل سياسي / فلسطين

ضعافُ النفوسِ، والمستعجبون قليلو الخبرة، هم فقط من يسقط في مهاوي الإحباط واليأس، حيث يُقرأ المشهدُ الفلسطينيُّ في وضعيّته الرّاهنة، وفي آفاق تطوره القريبة. الحالُ الفلسطينيِّ العامَ أصبح محكومًا لشروط ومعَادلات صعبة، لا تُنتج إصلاحًا أو مصالحة، ولا تُنتج انتخابات أو توقف التدهور نحو مزيدٍ من الانقسامِ والصراع، وكل ذلك لحسابِ الاحتلال.

لم يعد الشعبُ مصدرَ السلطات، ولم تعد السلطاتُ موظفةً لصالح الشعب والقضيّة، وعليه وعليها أن يدفعا الثمنَ مقابلَ نظامٍ سياسيٍّ مهترئ لا علاقة له بالدولة، أو بالتحرر الوطني حيثُ لا يمكنُ المزجُ بينهما بكفاءةٍ واستراتيجيّةٍ تؤدي إلى إنهاءِ الاحتلال.

غسان كنفاني الأديبُ العالمي، والصحفيُّ المتميّز، والفنانُ والمعلّمُ والقائدُ السياسي؛ تبلورت قدراتُه الإبداعيّة من رحم المعاناة والتهجير، ونضجت وآتت ثمارَها في مرحلة الثورة، هذه المرحلةُ التي تشهد معاناةً هائلةً للشعبِ الفلسطيني.

بالتأكيد، تشكّلُ بيئةً خصبةً للإبداع، ولمعَ خلالها جيلٌ جديدٌ من المثقفين والأدباء والشعراء الذين يملكون من الأدوات ما لم يتوفّر لغسان وأقرانه من المبدعين الفلسطينيين المقاتلين بالقلم الحر. لا يحتاج المبدعُ للاحتضان ولا يحتاج إلى الدعم الماديِّ أو السياسي، حتى يفجّرَ طاقاته؛ لأنّ غسان نما وترعرعَ كالصبار. ولأنّه كان داعيةً ثوريّا، وضعته آلة الحرب الإسرائيليةِ على رأس أولوياتها، وإلا لكان ملأ الدنيا لو أنهَ عاش حياةً طبيعيّةً.

هذا الزمنُ ليسَ زمنَ السلاطين وكتّابِهم وشعرائهم، إنّه زمنُ المبدعين الحقيقيّين، الذين يبشرون بزمنٍ جميلٍ قادمٍ، لا بدّ أنّه قادم■

العودة إلى الفهرس

التمثيلُ الأدبيُّ للصهيونيّة،
ودورُهُ في تحقيقِ الاستيطانِ اليهوديِّ في فلسطين

د. نهلة راحيل- ناقدةٌ وأكاديميَّةٌ ومترجمة/ مصر

عكَس الأدبُ العبريُّ الحديثُ -خاصةً في مراحله الأولى- التغيّرات الاجتماعيةَ والتطوّرات الأدبيّة التي حدثت في المجتمعَات الأوروبيّة التي عاش بها اليهودُ قبلَ استيطان فلسطين، فجاءت موضوعاتُه وأنماطهُ تتماشى مع معايير الآداب الأوروبيّةِ ومفاهيمِها. وعندما انتقل مركزُ الأدب العبريّ إلى داخل فلسطين، في مرحلة الهجرات اليهوديّة، وكذلك عقبَ إقامة الدولة المزعومة، حتّمت عليه الحاجةُ التطويرَ في موضوعاته وأفكاره؛ كي تتلاءم وطبيعة الواقع الاستيطانيّ الجديد في فلسطين، وتلبّي احتياجات الفكر الصهيونيّ المهيمن، الذي يسعى إلى خلق هُويّة إسرائيليّة جديدة، تتّسم بسمات محدّدة تؤهلها لفرض الهيمنة على أصحاب الأرض، ويحاول أن يحثّ المبدعين على تحويلِ الخطاب الصهيوني-عبرَ مؤلفاتهم الإبداعيّة- من مقولات نظريّةٍ إلى واقعٍ حياتيّ، لا يكتمل إلا بقدومِ المستوطنين اليهودِ إلى أرضِ فلسطين.

من هنا، كان للأدب العبري تأثيرُهُ الملحوظُ في تجسيد الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة للجماعات اليهودية في أوروبا في القرن التاسع عشر، وثمّ، استغلالها كأحد المبررات الدعائيّة للحركة الصهيونيَة، وطرح إقامة الدولة كمخرج وحيد لما سُمّي - آنذاكَ - بالمشكلةِ اليهوديّة، فروّجت الأدبيّاتُ العبريّةُ بوضوح لمرتكزات الفكر الصهيوني، التي تمحورت حول ثلاثة عناصرَ رئيسة، أوّلها: نفيُ المنفَى، أي رفضُ الوجود اليهودي خارجَ فلسطين، وثانيها: خلقُ شخصيّةِ اليهودي الجديد، أي صنعُ نموذجِ يهودي يتّسم بسماتٍ إيجابيّة - كالقوّةِ الجسديّة والذهنية - تمكّنه من تحقيق الاستيطان، وأخيرًا: تهميشُ الآخر، أيَ استبعادُ أي أقليّة لا تتماشى طبيعتُها مع النمط الأوروبي الصهيوني، الذي تتبناه المؤسّسة الحاكمة، وعلى رأسهم بالطبع الفلسطينيين سكان الأرضِ الأصليّين.

فكان من الطبيعيّ أن يصبحَ الفلسطينيُّ العدوَ الأوّلَ الذي يجب القضاءُ عليه والعمل على إبادته؛ لتحقيق الوجود اليهودي على أرضه، فجسّد الأدباءُ الإسرائيليون - مثل سامخ يزهار وأهارون ميجيد وموشيه شامير وغيرهم- الفلسطينيَّ في شكل المناضل/العدو الذي لا يتخلّى عن أرضه، ويسعى لتحريرها، واحتلت صورةُ الفلسطيني -المتسلل- العديد من الأدبيّات العبريّة -خاصة في الفترة ما بين 1948 و1956- التي أظهرت محاولات عودة الفلسطينيين لأراضيهم وديارهم، التي احتلّها مهاجرون يهودٌ في السنوات الأولى من إقامة الدولة الإسرائيليّة المزعومة، بوصفها -هجمات- تخريبيّة تهدفُ إلى القضاء على الدولة الناشئة، وتهدّد شرعيّة الاستيطان اليهودي للأرض، ورغمَ استدعاء الشخصيّة الفلسطينيّة وتمثيلها أدبيًّا بالمرويات العبرية - آنذاك - في شكل نمطي: -العدو المخيف- أو -المتسلل المخرب-، فقد ظهرت بعضُ الأصوات الأدبيّة التي جسّدت الشكل المعقّدَ للشخصيّة الفلسطينيّة، التي وضعت المستوطنَ اليهوديَّ في اختيارٍ أخلاقيٍّ بين الالتزام الجمعي، الذي يحتّم عليه قتال -العدو- الفلسطيني لترسيخ الوجود اليهودي على الأرض، والشعورَ الإنساني، الذي يحتّم عليه التعاطفَ معه بعدَ هدم منازلهِ وتخريبِ قراه وطرده من وطنه.

في هذا السياق كانت أحداثُ نكبة عامِ 1948، وما نتج عنها من تساؤلات حول شرعيّة دولة إسرائيل - المزعومة - وتهجيرِ الفلسطينيين من أراضيهم، من أهمّ القضايا التي يجسّدُها الأدباءُ في نصوصهم الإبداعيّة العبريّة، سواءً بهدف إنكارها ومحاولات تغييبها عن الوعي الجمعي العالمي، أو بهدف إعادة تفسيرها واستيضاح عملياتَ التطهير العرقي، التي نفذتها الحركةُ الصهيونيّة؛ لتحقيق السيادة الإسرائيلية على الأرض. وقد حاولت بعضُ الأصوات الأدبيّة الترويجَ للتقاطع بين ما حدثَ للمستوطنين اليهود في أوروبا خلال أحداث النازي وما وقع للفلسطينيين أثناءَ النكبة، وهي مقارنةٌ غيرُ عادلة، تحمل ضمنًا إنكارًا للعنف الذي ارتكبه اليهودُ الناجون من النازية أثناءَ إبادة الشعب الفلسطيني في عام النكبة، ومحاولة تبرير إدارتهم الوحشية لحرب 1948 بما تعرضوا له هم أنفسُهم من أحداثِ عنفٍ في الماضي.

العودة إلى الفهرس

ولا شكّ أن احتمالَ انضمام اليهود العرب –المهاجرين للدولة في خمسينات القرن العشرين– إلى عرب فلسطين– الباقين في موطنهم– وتحالفهما معًا، كان من أكبر مصادر القلق الذي ساور النشطاءَ الصهيونيينَ عقبَ إقامة إسرائيل في ظلّ صعوبة الفصل الهوياتي/ الثقافي بينهما، ولذلك عمدت المؤسسةُ الرسميّة إلى تنفيذ سياسات الاستعباد والتغييب لكلٍّ من الفلسطينيين ويهود الشرق؛ حتى تتمكّنَ من فرض سيطرتها على الدولة، وتحقيق حلم المشروع الصهيوني الاستعماري بإقامة مجتمع قويٍّ متّحد يترابط داخله اليهودُ بذاكرة جمعية –غربية– مشتركة، ونسيج ثقافي –أوروبي– موحّد، فزخر المشهدُ الأدبي العبري بنماذجَ تحاول– زيفًا– إبرازَ نجاح الدولة الناشئة في صهر الثقافات المتعدّدة لليهود القادمين من دول مختلفة في بوتقة إسرائيليّة جديدة ومتجانسة.

وقد ارتبط المشهدُ الأدبيُّ العبري، بطبيعة الحال، بمجمل حروب الصراع العربي– الصهيوني، بَدْءًا من نكبة 1948 وما أعقبها من حروب متتالية مع العرب. وقد وجّهت نتائجُ تلك الحروب الأدباءَ الإسرائيليين –على اختلاف توجهاتهم– نحو التعامل مع التغييرات التي أحدثتها تلك الحروب، فانعكستَ في نصوصهم الأدبيّة حالةُ التشكّك في القيم، التي رسختها الصهيونيّةُ في أذهان جموع اليهود، وبدأت تظهر موضوعاتٌ تتعلّق بالنقد التفكيكي لتوجهات المجتمع الإسرائيلي وسلطته الإقصائية، وبنزعَ السحر عن الحركة الصهيونيّة التي حوّلها أصحابُها إلى يوتوبيا قوميّة عليا، فسعى الأدباءُ إلى الكشف عن الأسباب المتعدّدة التي صنعت شروطَ انتصار المشروع الصهيوني في البداية، ثم الظروف التي تسببت في انتكاسه، وتزايدت أنواعُ الأدب العبري الاستباقي الذي يستشرف كلَّ ما ينتظر المجتمعَ الإسرائيلي في المستقبل، ويقدّم رؤيةً مختلفة عن اليوتوبيات الصهيونيّة الأولى.

فبرزت ما بعد الصهيونية كتيار نقديٍّ تفكيكي رأى أن وجودَ دولة إسرائيل، لم يكن حلًا لمشاكل الجماعات اليهوديّة كلها، وبالأخصّ في ظلّ فرض الهيمنة الصهيونيّة الأوروبيّة على الأنظمة الاجتماعيّة والثقافيّة بالمجتمع، وتهميشها للآخر –اليهودي الشرقي أو العربي الفلسطيني – ومحاولات صهره المستمرة داخل ثقافة غربية مختلفة عنه، بدعوى الحفاظ على وحدة النسيج "القومي" الجمعي للدولة، وتجسّدت دعواتُ هذا التيار النقدي في نصوص أدبيّة عديدة –وبالأخصّ من إبداع يهودِ الشرق– تدحضُ النتائجَ السلبيّة للصهيونية، ليس على الفلسطينيين فحسب، بل أيضًا على يهود الشرق الذين جُرّدوا من حقّ تمثيل أنفسهم، وتعرّضوا إلى إنكار تاريخهم العربي، ووعيهم الثقافيّ، لأسباب تخصّ الصهيونيّةَ كحركة أوروبيّة استعماريّة هدفت إلى خلق هُويّة إسرائيليّة/غربية مهيمنة تقوم على تأريخ رسميّ واحد، لذلك وُضعت نفسَها فيَ موضع السيّد وحولت الفئاتِ الأخرى إلى وضعيّة التابع.

ونشأ خطابٌ أدبيٌّ مضادٌّ يتبنى مقولات ما بعد الكولونياليّة، ويقوّض الفرضيّاتِ الصهيونيّةَ الرسميّة، وما تدعمه من التراتبيّة الهرميّة للثقافات، ويعبر أدباؤه عمّا أطلقوا عليه –الاستعمار الجديد– الذي تمارسه دولةُ إسرائيل ضدَّ مواطنيها عن طريق محاولاتها المستمرّة لمحو هوياتهم الأصلية، متخفّية وراءَ مقولات تعميميّة مثل: "التقدم" و"التنوير" و"المواطنة" وغيرها من مفاهيمَ تسهم – في ظنّها – في تحديد العلاقة بين الدولة والفرد، فجاءت النصوصُ الأدبيّة العبريّة لتعبّرَ عن أن إلغاءَ الطابع "القومي" الجمعي للدولة، ودحضَ افتراضاتها المركزية، هو السبيلُ الوحيد الذي سيمكن المواطنَ من تحرير ذاته من "عنصرية" الصهيونية و"ظلم" المؤسسة الحاكمة، ثمّ، خلق شرعيّة بديلة تقوم على تقويض الأسس الأيديولوجية للدولة، خاصةً تلك التي تتعلق باليوتوبيا الصهيونيّة وبوتقة الصهر.

وفي النهاية، يمكن القولُ إنّ الإنتاجات الأدبيّةَ العبريّة قد تراوحت في الآونة الأخيرة بين اتجاهين مركزيّين، أوّلُهما: يوجّهُ جهودَهُ نحو صناعة ولاءات جديدة للمشروع الصهيوني، وتنمية قيم الشعور القومي والانتماء السياسي لدى اليهود في إسرائيل، وزرع مفاهيم تؤكد "عدالة" الحركة الصهيونية وضرورتها التاريخيّة، خاصةً وسط الشباب الإسرائيلي الذين انصرفوا مؤخرًا عن الفكر الصهيوني بشكل أو بآخر، وأما الثاني: فينشغل بإعادة تفسير الفرضيّات الكبرى التي تدور عن تاريخ اليهود في أوروبا وذاكرة أحداث النازي، والحركة الصهيونيّة، وترويجها لتحرير اليهود وإنقاذهم بنقلهم إلى فلسطين، وكذلك انشطار الهُويّة داخل المجتمع الإسرائيلي بعد فشل سياسات الصهر في خلق نسيج ثقافي/اجتماعي موحد للمهاجرين اليهود القادمين من خلفيّات ثقافيّة متعدّدة، والتحوّلات التي رافقت تعيينَ وضع اليهود القادمين من الدول العربيّة، وتحديدَ النظرة إلى الثقافة العربيّة التي يمثلونها■

حولَ السينما الفلسطينيّة

سلسلةُ مقالاتٍ سينمائيّة (3)

سينما فلسطينيّة- سينما إسرائيليّة!!

وليد عبد الرحيم- مخرجٌ وكاتبٌ فلسطيني/ سوريا

كما لحظنا في الحلقة السابقة من هذه السلسلة، لم تشكّل بداياتُ السينما العربيّة – على الرغم من ريادة الأخوين لاما – في صناعة الفيلم سينما فلسطينيّة، بل بدأت بتشكيل سينَما عربيّة، لنقل بتعبير آخرَ: كان فيلمًا بُكوريًا عربيًا، وذلك بفعل الحالة الواقعية، ولم يكن قد نضج أو ترسّخ التقسيمُ القطري بعد. ولأنّ الهم «القطري – الفلسطيني» لم يكن واضحًا في أفلام الأخوين لاما «الأعمى»، على الرغم من ولائهما الوطني – العاطفي، الذي يتجلّى بإصرارهما على عرض أفلامهما في دور العرض الفلسطينيّةِ في القدس ويافا وحيفا وغيرها، وبتسهيلاتٍ ماليّةٍ للمستثمرينَ ودورِ العرض.

لم تكن النكبةُ قد وضعتْ أوزارَها بعد، وعندما حلتْ؛ اختلفت المعاني والتقييماتُ والسّماتُ والغايات، فأضحتْ الهُويّةُ المحليّة – وهي حتى الآن كذلك – جزءًا من أولويّات الصّراع. وأكثرُ ما تجلى ذلك في صراع الثقافة والفنِّ والتاريخ، وهنا وُلدت الهُويّةُ المحلية، وولدت الثقافةُ الهُوياتيّة مع القضية تزامنًا، وبمعناها الصراعي الوطني الواعي. أما كلّ ما كان قبلَ ذلك؛ فقد كان نوعًا من المواجهة والثبات، وهو ما انعكس تلقائيًّا على السينما، كما الأدبِ والفنون والمجتمع.

ربما ينبَغي القول: إنه ليس هناك قضيّةٌ إشكاليّةٌ من حيث: الوصفُ والتصنيفُ النقديُّ لظاهرة وطنيّة وسياسيّة كتلك التي تكتنَفُ التعريفَ بالهُويّةِ الفلسطينيّةِ وتوابعها، ليس كتحديد تاريخيٍّ أو وطنيّ، بل بحسب ما آلتْ إليه مفاصل الواقع، وما تجلّي عن النكبة، حيثَ ساد في العالم جنونٌ حام لمحو اسم فلسطينَ واستبَداله بـ"إسرائيل"، وهو ما انسحب على متلقي مفردات الثقافة العالميّة، مترافقًا مع محاولةَ تغيير اسم البلاد والمدن بأسماء لا تمتّ لتاريخَها، ولدوافعَ سياسيّة كولونيالية، دُمغت المعالم بدمغة تزييف نُقشت بنشاط على الحجارة والشوارع والمطارات والمدنَ بنقشٍ عبريٍّ مفتعل، وهذا ما جعل التعريفَ بالهُويّة ملتبسًا داخلَ المناطقِ المنكوبة عام 1948، وهو ما انسحبَ بدورهِ ضرورةً على تصنيف الأدبِ والفنّ، ومن ذلك السينما ودورُها بكلِّ تأكيد.

وكما وقع الفلسطينيون المتبقون تحت حراب الاحتلال، وتحت فرض الهوية "الإسرائيلية" التي غيّبت لسنوات – في البداية – الهُويةَ الحقيقيّةَ للبلاد، واضطر المواطنون لحمل هوية – صفة ليست لهم أو منهم. وبلغة قديمة أصلُها فلسطينيّةٌ منقرضةٌ أيقظتهاَ العنصريّةُ الدينيّةُ الكولونيالية، المدعومة عالميًّا، وهو ما تمّم الهزيمة الآنية وقتها. انعكس ذلك على السينما، وصارت تُوصف بالسينما "الإسرائيلية" حتى وإن كان كل منجزوها من الفلسطينيين، فقد صار الفلسطينيون في مناطق 48 يوصفون عنوةً بـ "عرب إسرائيل"، ورضخت الغالبيةُ لذلك خوفا من التهجير والقتل والإرهاب والمجهول، وهو ما جعلَ السينما والسينمائيين الفلسطينيين في واقع ملتبس من حيث التعريفُ لفترة طويلة استمرَّ نحو ربع قرن، وتواطأ العالمُ في هذا التصنيف - التعريف، حتى كان المخرج الفلسطيني، مثلًا، يعرّف نفسَه بالعربي الفلسطيني، بينما يصرّ العالم على تصنيفه بالإسرائيلي، لكن ذلك لم يستمرَّ طَويلًا، فقد ظهرت الهُويّةُ الوطنيّة مجددًا بعد تأسيس منظمة التحرير، التي أعادت تعريفَ هذه الهُويّة، ومن ضمنها الهُويّةُ الفنيّةُ والثقافيّة والتاريخيّة.

مجددًا، ما هي السينما الفلسطينيّة؟ من هو السينمائيّ؟ وهل يتمُّ التصنيفُ بحسبِ الهُويّة التي يحملها أم الانتماء، أم الجُغرافيا؟

تلك الأسئلةُ الشائكة، لا يمكن سؤالُها إلا في بلد معيّن، ولشعب وحيد هو الشعبُ الفلسطيني، وينسحبُ ذلكَ على منجزاته المعرفيّة والثقافيّة وغيرها، فهل يَكونُ هناكَ مخرجٌ لمَجرّدِ بقائه في مناطق 48 إسرائيليًّا، وأخوه الذيَ في لبنان يسمى فلسطينيًّا؟!

في الواقع، فإنّ الفلسطينيين في البداية لم يجيبوا على هذه الأسئلة بالشجاعةَ المطلوبة، وإن كانوا قد حدَّدوا ملامحَ الشعب وسماته، والهُوية خاصةً في بنود الميثاق الوطني الذي أطلقته منظمةُ التحريرَ منتصفَ الستينات، وتبع ذلك هبَّة الكفاح المسلح.

عقبَ انطلاق الثورة المسلّحة، فعلت أفلامُها فعلَها في إعادة وصف السينما والسينمائي بالتزامن مع الوطني – الهوياتي، فأعادت – دون دراية كافيّة – وبلا برنامج وعي عميق التصنيف السينمائيّ الوطنيّ إلى أصله، وأنجزتَ أفلامًا، ودعمت سينمائيّين عربًا وفلسطينيّين، على الرغم من أن غالبيةَ الأعمال التي أنجزتَ كانت ساذجةً، وتندرجَ ضمنَ تصنيف – المجهود الحربي الثوري– مع بعض النوادرَ الناضجة المضيئة، وهي قليلة، وبغالبيّتِها وثائقيّةٌ لا روائيّة. كما

تخاطب الذات لا العالم، وكان من السهل أن تمزجَ بين الرؤيتين والنوعين، فتنتج مثلا، أفلام –ديكو دراما– أو روائيّة طويلة، وهذه الأخيرة لم تتحقّق إلا في السبعينات.

على أية حال فقد قدّمت هذه الأفلامُ صورةً حقيقيَّةً ما، والأهمُّ من ذلك أنّها قدّمت أفلامًا أعادت التعريفَ لصيغته الهُوياتية، كما دعمت صورةَ المقاتلَ إعلاميًّا، وإن كانت بتمويل بسيطٍ وتقنيّات غير متقدمة على الرغم من ظهور أفلامٍ، وسطوعِ أسماء أضحت مهمةً في تاريخ السينما الفلسطينيّة والعربيّة، لا سيمّا منذ الستينات حتى ثمانينات القرن الماضي.

قامت كل من الجبهة الشعبية وفتح وبقية الفصائل بدور وجهد في مجال الصناعة السينمائيّة، لكنَّ ذلك كانَ محكومًا بالفصائليّة، وبإظهار الدور المقاتل المسلح المباشر، ولمَ يكن ضمنَ منظومة ذكيّة –للأسف ما زال الأمرُ كذلك– ولذلك لم يرتقِ الفيلم بمستواه الفنيّ، على الرغم منَ مساهمات كثيرة من قبل سينمائيّين مهمّين من فلسطينيّين وعرب، ومنهم من العراق ولبنان وسوريا ومصر وغيرها، لكنّ انعدامَ الاهتمام بالنظريّةِ الفنيّة المختصّة لدى المؤسّسات وعدمَ الاهتمام بالتمويل الجيّد جعلَ هؤلاءَ السينمائيين ينفرون من الواقع المتخلف للرؤيةِ والواقع، إلا أن ذلك بدوره حطّم أو ساعد مع الزمن مخطط الأسرلة داخل الوطن.

.. أتت الثمانينات فأعادت الوصفَ للسينما الفلسطينيّة باعتبارها تضمّ كلّ الجغرافيا الفلسطينيّة وذلكَ إثرَ نهوض السينما في المناطق المحتلّة عامَ 1948 وانتشارها، وهو كذلك حتّى اليوم، على الرغم من إشارات تمويليّة لمؤسسات توصَف بـ"الإسرائيلية"، وهو ما تزامنَ، بل تصاعد بدوره مع فشل الصهيونيّةِ في مشروع الأسرلة برمته، لكنَ السينمائيين كانوا داخل قفص الأسرلة وتحت ضغط كبير جدًّا، أمني وسياسي، وتمَّ عزلُهم بعنايةٍ من قبل الكيانِ والأنظمة العربيّة، كي يفقدوا التواصلَ مع بقيّة أبناء شعبهم، واستخدمت الأنظمة قصّة حملهم للهُويّة الإسرائيليّة حجّةً لذلك، بل كانوا يوصفون بالخونة من قبل الأنظمة ذات الاتّصالات السريّةَ مع الكيان، وذلكَ ضمنَ مخطط تقاسمي صهيونيٍّ بامتياز. هؤلاء السينمائيون أسقطوا بجهود فرديّة وبراعة محاولةَ أسرلة السينما، على الرغم من تعاونهم مع العديد من المؤسسات والسينمائيين اليهود ممن استوطنوا فلسطين، بل وحصلوا على تمويلات عدّة من خلالهم، لكنّهم نجحوا بذكاءٍ في إعادة تعريف فحوى السينما الفلسطينيّة وهُويّتها وسكتها الطبيعيّة، وهم ما زالوا سائرين بشجاعة وحكمةٍ في هذا الاتجاهِ نحو سكة المستقبل.

من ناحيةَ أخرى، فشلت الصهيونيّةُ في خلق ظاهرة سينمائيّة "إسرائيلية" ذاتَ خصوصيَّة "قوميّة" مميّزة، على الرغم من ضخامة الاهتمام وتمويل الأفلام العبريّة، واستجلاب سينمائيينَ وفنيينَ يهود من شتى البلدان والأمم، ومن مستوطنين لأرض فلسطين يحملون "هُويّتها"، وذلك عائد إلى تفكّك الهُويّة، وهو محكومٌ بشرذمةِ الأصولِ والثقافة والتاريخ، هذه الميزاتّ التي لا يمكنُ تصنيعُها، والتي أثرت وما تزال، وبرأينا سوف تستمرّ حتى زوال الكيان عن فلسطين، على الرغم من أننا نرى أعمالا جيّدةً وبحرفيّة صناعيّة عالية، لكن لا يمكن تسميتها بسينماً "إسرائيلية"؛ فاللغةُ المنطوقة لا تكفي لصناعة هُويّة سينمائيّة، مع كل هذا الاختلاف بالملامح والأصول الثقافية، وما زال البولوني يولد بولنديًّا، والمغربي مغربيًّا وكذا الروسي والفالاشا ووو، وهنا يكمن استعصاء، بل استحالةُ صناعة هُويّة حقيقيّة، ومنها الهُويّة السينمائيّة.

من ناحية أخرى، فإنّ الفلسطيني – حتى وإنْ لم يشأ ذلك – فإنه يظهر تلقائيًّا باعتباره جزءًا من رحم الأرض والتاريخ، هكذا ببساطة فشلت الأسرلة، فالسينمائيُّ المستوطنُ اليهودي لا يمكن أن يرى شجرة الزيتون من الزاوية نفسها التي يراها صاحبُ أرضها، ولا أن يشتمَّ رائحة الزعتر كما يشتمّ عبقَها أيُّ فلسطيني. يتضمّن ذلك أننا إن تتبعنا المسيرة من خلال صفاتها المرحليّة منذ عام 1948 حتى الساعة، نجد خطا بيانيًّا تصاعديًّا يذهب نحو عمق الهُوية مبتعدًا عن التسمية المزيفة، نحو الهُويّة الحقيقيّة التي كانت تعاني طمسًا مركزًا في مناطق الاحتلال عام 1948، ثم في مناطق 1967 التي قيّدت بالحكم العسكري والاضطرابات المسلّحة، ولكن العمق الانتمائي ظلَّ ينمو تدريجيًّا من تحت

طاولةِ المونيتور، حتى عادت الأمور اليوم إلى موقعها وتسميتها الحقيقية "سينما فلسطينية" تعني وتضمُّ أماكن وجود الفلسطينيين كافةً، وتتقدمها من حيث القدرةُ الفنيّةُ العالية، الفئة التي كان يراهن عليها بالذوبان، حيث يبدو اليوم في المهرجانات السينمائيّة أبناءُ مناطق النكبة الأولى في المقدمة.

بالمقابل هناك تراجعٌ مستمرٌّ لدى ما يسمى بالسينما "الإسرائيلية" لسببين، أولهما ما ذكرناه عن مؤثرات الأصول والقوميّة والهُوية، وكذلكَ فشل أوهام وعود أرض الميعاد، ووعد الربّ واللبن والعسل ونفي وجود الآخر، ولهذا يعود العديد من المستوطنين اليوم إلى أوطانهم، ومنهم مثقفون وسينمائيّون ولدوا في فلسطين حتى، فقد سقط وهمُ المجتمع الواحد القائم على الأسطورة والأوهام، ولم يقدر على حفظه لا دينٌ ولا أسطورة، بل قوّة عسكريّةٌ تدميرية، ودعم محلي وعالمي. كما عاد الفلسطيني إلى روح ثقافته، حتى وإن لم يشأ ذلك، وعلى الرغم من طريقة أوسلو فقد نهضت ببطء أسماءٌ وأفلامٌ في مناطق الضفة وغزةً، وفي الشتات عشرات المهمين سينمائيًّا يعبرون عن استمراريّة البقاء.

قد يصنعُ السينمائيّ فيلمًا عن "سبارتاكوس" مثلا أو عن سقراط، لكنّ إنجازَهُ لا بد أن يحتويَ بيئته المحليّة، فيضفي على الصورة شيئا من رائحة ثقافته، وقد لاحظتُ أن حجمَ الكادر، بل زاوية الكاميرا والإضاءة وعشرات المناحي والتقنيّات الفنيّة، تختلف بخصائصها بحسب الثقافة والانتماء والإيديولوجيا والمكان – الوطن، هكذا يتمُّ تشكل خصوصيّةِ هُويّةٍ فنيّةٍ ما■

القدسُ.. قضيّةٌ أم قصيدة؟!

حديثٌ عن شِعْرِ الحرب..!

محمود قرني –شاعرٌ وكاتب/ مصر

- 1 -

إذا كان ثمّةَ لعنةٌ يجبُ أنْ يطلقَها الشعر، فلا بدَّ أنْ تكونَ ضدَّ الحرب. ليس بسبب تعبيراتِها الغشوم فحسب، بل لأنّها محاولةٌ خبيثةٌ لاستخدام الشّعر ضدَّ نفسه. فالشّعرُ فعلُ تحرير، والحربُ فعلُ استعمار، بعبارة أخرى: الشّعرُ هوَ الآخرُ، والحربُ استئصالٌ لهذا الآخر. إذن، فالشعرُ جوهرُ الحقيقة، والحربُ أضاليلُها. فهل كان «أدونيس» على صوابٍ عندما اتّهمَ شعرَ المقاومة بأنّه ضدُّ الشعر؛ لأنّه شعرٌ محافظٌ بطبيعتِه. ثمّ فهو يستخدمُ أدواتٍ غيرَ ثوريّةَ لصناعةِ الثّورة؟ الأمرُ – لا شكَّ – يمثّلُ استلابًا ذهنيًّا حارقًا، لاسيّما إذا كنّا أمامَ خياراتٍ ضيّقة خرجت من رَحم ثقافةٍ محافظة، كانت مضطرّةً إلي تديين صراعاتِها حتّى تُجيّشَ حولها ملايينَ البشر. هذا ما اضطرَّ الطليعيُّونَ إلى قَبُوله في السابق، وقَبُولهِ في الحاضر، وربّما في المستقبلِ أيضًا. لذلك ستتغاضى الحكوماتُ عن الصّراخ الذي تطلقُه نخبتُها في آذانِ ما يجاوزُ ملياريْ مسلم، يتمُّ تجييشُهم في وِجهِ مرويّاتِ العهدِ القديم وضلالاتِ الصهيونيّةِ وبكائِها حولَ صخرةِ الأقصى وحولَ الهيكلِ المحطّم، بحثًا عَن «قدسهم» المزعومة. وهنا فقط، ستتبدّى مقاديرُ الزّيفِ التي تنطوي عليها لعبةُ اختلاقِ التاريخ المعروفةِ في أدبيّات المحافظينَ الجدد بـ «ما بعد التاريخ»، لاسيّما عندما يوضعُ بيتٌ من الشعرِ كَتبه شاعرٌ مسلمٌ قبلَ أكثرَ من عشرةِ قرون، يدافعُ فيه عن عروبةِ مدينةِ القدسِ في مواجهة «فُقْمَة» صهيونيّة مختلقة، لم تبلغْ بعدُ فطامَها، اسمُها «إسرائيل». وهنا أيضًا سنعرفُ أنّ الحكمةَ السيّئةَ هي التي سوف تسود، فقط لأنّها حكمةُ الكبار حسبما يؤكّدُ آدم سميث. ستبدو إسرائيل تعبيرًا مبتسرًا – أي غير ناضج – ضمنَ بيت من الشّعر كتبه «ابن المجاور» عن ضياع القدس على أيدي الصليبيّين، حيث يقول متحسّرًا: أُسَعِّرُ نارَ وجْدِك كلّما خبتِ بَادّكار يَبعثُ الحسرات». مفارقةُ التّاريخ هنا أن هذا البيتَ أكبرُ من دَولةِ إسرائيلَ بأكثرَ من عشرةِ قرون.

إنّ غيابَ المناعة التاريخيّة عن البُنى الاجتماعيّة لذلكَ الكيانِ الاستئصالي يأتي علي رأسِ الأسباب التي تدفعُهُ للتعامل بعدائيّة مقزّزة مع الكتل الحضاريّة القديمة في العالم، وهي كُتَلٌ كانت – وستظلّ – تمثّلُ إشكاليّةً كبرى أمامَ تلكَ الكتلِ المستحدثةِ التى تمتلكُ المالَ والقوّة، لكنّها لا تستطيعُ أن تشتريَ لنفسها تاريخًا. وإذا كانتَ القيمةُ الحضاريّةُ للتاريخ الإنسانيّ، تعني تشكّلَ منظومةَ من القيم المعرفيّة التي تعملُ ضدَّ الهمجيّةِ والبربريّة، فإنّ ازدواجيّةَ المقولات – التي تروّجُ لها أدبيّاتُ ما بعدَ الحداثة – تبدو مفارقةً حدَّ المأساة؛ لأنّ المقولاتِ البرّاقةَ نفسَها تظلُّ حاملةً لنقائضها، حتّى لو أثارَ ذلك دهشةَ الملايينَ في عالمِنا. لذلك لا يمكن أن نقرأَ مواقفَ القوى الكبرى في العالم من قضيّةِ فلسطينَ برمّتها، وعلى رأسِها الولايّاتُ المتّحدة، إلا باعتبارها حديقةً خلفيّةً لفرضِ مشاريع الاستشراق الجديد، الذي يستكمل أجندتَهُ بتعضيد الصّراع الحضاريّ على تلك الأسسِ العقائديّة التي انحطّت وسائلُها بشكلٍ لم يشهدْ له التاريخُ مثالا. فما الذي سيفعلُهُ الشعرُ أمامَ كل هذهِ الضّلالات؟!!

- 2 -

ضمنَ الأساطير التي تطلقُها الصهيونيّةُ ضدَّ الهلع منَ التاريخ، يقولُ الجنرال «موشي دَيان»: «إنّ قصيدةً يكتبُها شاعرٌ مقاومٌ تعادل عندَهُ عشرينَ فدائيًّا». ولا يستطيعُ المرءُ أنّ يتبيّنَ موقعًا للخوف في قلب جنرال كهذا من قصيدةٍ شعريّة؛ إلا إذا كان يتعاملُ مع الشعرِ باعتباره قيمةً تعبويّةً حسبَ المصطلحَ العسكريّ. وربّما هذا ما أدّى بالدولةِ العبريّة، في النهاية، إلى أنْ تعتقلَ – تقريبًا – كلَّ شعراءِ فلسطين. فقد مُنعَ محمود درويش من قولِ الشعر وهو في المدرسةِ الابتدائيّة. كَما مُنعَ عبد الرحيم محمود بالطريقةِ ذاتها، وسُجن لأكثرَ من خمس مرّاتٍ متتالية، وقد حدث الأمرُ نفسُهُ، وإنْ بصور مختلفةٍ مع توفيق زياد، سميح القاسم، وفدوي وإبراهيم طوقان. وربّما كانت أعلى تعبيرات هذا العسف تظل مجسَّدةً في اغتيالِ الصهيونيّةِ لغَسان كنفاني، الذي عُوقبَ قلمُهُ الأعزَلُ بزخّات عدّة من الرّصاص. وما لا يدركه الجنرالُ ديان، أنّ النصَّ المقاومَ لم يكن سلاحًا فحسب، بل هو سياجٌ حولَ الهُويّةِ المجرّحةِ المهدّدةِ بالزوالِ في مواجهةَ قوّة استئصاليّة، كان قَسَمُها – ولازال – مقتطعًا من نص المزمور 137 / 5 / 6: «إنْ نسيتُكِ يا أورشليم فلتنسَني يميني».

الشاعرُ المقاومُ هنا ليسَ شرطًا أن يكونَ حكيمًا في السياسة، يكفيه أنْ انتماءاته ليست حزبيّة، وحسبما يقول «ستيَفن سبندر» «يظلُّ الشاعرُ منتميًا فقط لحزبِ الحياة. من هنا تظلُّ قضيّةُ الشاعرِ أكبرَ من مواقفه العقائديّة أو الأيديولوجيّة التي حصره فيها النقدُ، وحاول الجمهورُ استدراجَهُ إليها لتزكية نزعات تقلّصُ من قيمة قضيّته المركزيّة. ولاشكَّ أنّ أنبلَ ما فَعله الشعرُ المقاومُ في ثقافتنا عدمُ وقوعه في أخطاء أخلاقيّةَ تنبذُ اليهوديّةَ كديانة سماويّة، بلْ انصرف موقفُهُ إلى التنديد بالصهيونيّة كحركة استئصاليّةٍ من واقعِ الأدبيّاتِ والممارسة

العودة إلى الفهرس

في المقابل كان أخطر ما فعله شعرُ المقاومةِ أنه نجح في خلق أسطورةِ مكانه المستلب، لاسيما في معنى ارتباطِها بالزمن ، فالمكان الذي استحال إلى أسطورةٍ حقيقيّةٍ في أذهان العامّة، وفي أدبياتها الرفيعة، وكذلك في أدبيّاتها الشعبيّة؛ أصبح يمثّل زمنًا دائريًّا يستعيدُ نفسَهُ وفجائعَهُ مع كل محنة وكل ألم جديد . غير أن الزمن الشعري ليس هو الزمن الفيزيائي الذي يحسب بالأيام والشهور، لكنه يظلّ زمنًا ذاتيًّا، لذلك فهو في كلّ مرّة يظلّ قادرًا على استنهاض قراءة جديدة لتاريخ الألم. من هنا تتجدّد طاقةُ الحضور للشعر والشاعر مع كل حدث جديد.

وعلينا أن نتفق هنا أن التاريخ ليس امتيازًا شعريًّا إلا بقدر كونه معززًا لسلطة الهدم الكلي لكلّ سلطة غشوم، ثم إعادة بنائها من جديد وَفْقَ قوانين الجمال وليس وَفْقَ قوّة السلاح .

وسيظلّ الشرقُ كلّه مندهشًا أمامَ النفور الشديد من المفهوم التاريخيّ والأسطوريّ للمكان في المقولات المركزيّة لما بعد الحداثة، بدعوى أنّ الرموزَ المكانيّة رموزٌ محليّةٌ بطبيعتها، ثمّ تظلّ مغلقة على جماعات بشَريّة محدودة، لذلك فهي تبدو ، في هذا النظر ، ضدَّ مفهوم إنسانيّة النصّ الشعري . هذه التلفيقيّةُ لم تجد صدًى من أيّ نوع سوى في جيوب محدودة في شعريّتنا العربيّة . فارتباطُ الشعرِ تاريخيًّا بنمط ما من المعرفة يجعلُ من المكان أسطورةً خاصّة، بعكس الشعر الصهيوني المختلق الذي يعيش فيزيقيًّا ضمنَ جغرافيا، على حين تستلبه ذهنيًّا جغرافيا أخرى ، وفي هذا الاستلاب ما يفسّرُ النّزوعَ الغربيّ في الشّعر الإسرائيليّ بالجملة، عكس ما يتبدّى في النصّ العربيّ لاسيما في النصّ المقاوم .

وإذا كان الجنرال ديان قد نجح في لحظة ما بحصار الشعر المقاوم وتلفيق عشراتَ الأساطيرَ التي ادّعتها تقاريرُ الآثاريّينَ الغربيّينَ، فمن المؤكّد أنه ليس بإمكانه اختلاق مكان يسبق تاريخيًّا تلكَ الأساطير، فالمكانُ بطبيعة الحال سابقٌ على أساطيره، وهذا هو المعنى الأخطرُ الذي عزّزَهُ شعرُ المقاومة.

3

من الحكايات التي يرويها المارشال « مونتجمري » في كتابه « تاريخ الحروب » أنه عندما كان يشرحُ لمجموعة من الضبّاط أهميةَ المعرفة المنتظَمة أو الأكاديميّة بلغة عصرنا، قال له بعضُ الضبَّاط: إنّ خبرةَ الميدان كافيةٌ للتعلّم، فما كان منه إلا أنّ ساق إليهم مقولةً طريفةً من أدبيّات فردريك الأوّل يقول فيها: كان لديّ زوجٌ من البغال اشتركا معي في أكثرَ من أربعين معركةً، ومع ذلك، وبعد انتهاء كل تلك المعارك ما زالا بغلين» . والمعنى هنا، ودونَ قصد للتجريح رغمَ فداحة المثال، فإنّ شعرَنا المقاوم، الذي التصق تحديدًا بتيار الإسلام السياسيّ، لم يتعلّم من ماضيه شيئًا. بعضُهُ عن قصد وبعضُهُ عن غير قصد. وقد تبع هذا التيار، بكل أسف، كثيرٌ من شعرائنا الموهوبين، الذين ربطوا أيضًا قضيّة فلسطينَ عامّةً، والقدسَ على نحو خاص بالموقف العقائديّ. لذلك سنجدُهم يتعاملون مع الشعر باعتباره أداةً سياسيّةً، وظيفتُها صناعةُ الحشود. والأمرُ ينتهي غالبًا بأنْ تتوجّهَ هذه الحشودُ لإدانة السلطات المحليّة، دونَ أن تتوجهَ قدمٌ واحدةٌ نحو العدو، وهو ما رأيناه في أكاذيبِ تنظيمِ « الإخوان الإرهابي » الذي كان يطلقُ الآلافَ من رجاله في شوارع مصر هاتفين : « للقدس رايحين شهداء بالملايين » !! . لكنّ شيئًا من ذلك لمَ يحدث عندما توسّدوا منصّةَ الحكم.

سيظلّ هذا النوعُ من الشعر محافظًا بطبعه، منبريًّا يعتمدُ لغةً تداوليّةً غيرَ قابلة للتأويل، تقليديًّا؛ لأنه يعزّزُ نموذجًا جماليًّا مستقرًّا لا مكانَ فيه للمغامرة. لذلكَ فهو شعرٌ يموت بمرور مناسبته.

من هنا، فإنّ الرسالةَ هنا ليست موجّهةً لهؤلاء الشّعراء، لأنّهم في الحقيقة دونَها. لكنّها موجّهةٌ بالأساس إلى الشعراء الذين يؤمنون بضرورة الشعر كفعل تحرير، وهؤلاءِ – غالبا – لا يرون أنّ هناكَ شعرًا مقاومًا وشعرًا غيرَ مقاوم، إنّما يوجد شعرٌ فحسب. ولعلّ الشاعرَ محمود درويش كان يمثّل أعلى درجات الوعي بمحنة هذا « الحب القاسي » كما سماها، حيث كان مطالبًا، أمامَ الحشود، بأنْ يبدوَ استجابةً دائمةً لشهواتهم، وهذا كان يعني خضوعه لكلّ شروط الذائقة المستقرّة. لكن يظلّ درويش نموذجًا فريدًا، وغيرَ قابلٍ للتّكرار في الشعريّةِ العربيّة.

ربما هذا الوعيُّ المتقدّمُ هو الذي كان يجب أن يتنامى لدى الشعراء الجدد عبرَ طرح قضيّتهم الجماليّة، بعيدًا عن سلطة النصوص التي تحوّلت إلى نصوص بطريركيّة محافظة. وأعتقد، كما يعتقد غيري، أن هؤلاء الشعراءَ لازالوا يمثّلون جزءًا من التكوينات القوميّة التي ارتبطت بالخطابِ الوطنيّ التحرريّ، فظلّت مرتهنة لمنبريّة أفقدت الشّعرَ قدرتَهُ على التجدّد . ولعلّ جابر عصفور أصاب، بشكل ما، عندما أطلق على أمل دنقل « شاعرَ الرفض» باعتبار الرفض هنا يظلُّ واحدًا من صور المقاومة ، وهي مرحلةٌ يطلق عليها الناقدُ والشاعرُ الإنجليزي « ستيفن سبندر « مرحلةَ « الذاتيّات الكميّة « التي تكون فيها ذاتُ الشاعر اختصارًا لذوات المجموع .

ولعلّ قضيّةَ الشّاعر والجمهور كانت ضمنَ القضايا التي أثارت جدلًا واسعًا في الغرب، فترةَ ما بين الحربين، لكنّ الصّراعَ كان يبدو أكثرَ رشدًا، حيث استُبدلت قصيدةُ الرفض بمصلح أكثرَ موضوعيّةً وأكثرَ علميّةً هو «أدبُ الالتزام»، وبدلًا من اللغط حولَ مصطلحات مثل حقّ الشعر، وحقّ الجمهور، حلَّ مصطلحُ وظيفة الفنّ عمومًا، ووظيفة الشعرِ على نحو خاص. لكنّ المؤكّد أنّ دعاةَ أدب الالتزام أنفسَهم كانوا يتوجّسون خيفةً من أنْ يتحوّلَ أدبُهم إلى أدب مذهبيٍّ تحت وطأة قناعاتهم الأيديولوجيّة، لذلك حذّروا من تحوّلِ الكاتبِ الملتزِم إلى معيارٍ للحقيقةِ في إطارِ الصّراع بين المثالِ والواقع .

إنّ الاتباعيّةَ والتّكرارَ والمناخات المحافظةَ التي يذهبُ إليها شعرُ المقاومة بشكل قطيعيٍّ يبدو مؤسفًا، ويشكّكُ في دور الشعرِ جملةً، لاسيما أنه فنٌّ ليسَ أكثر. فهو لا يملكُ مدفعًا ولا رصاصةً، ولم يخضْ معركةً، كما لم يحرّر أرضًا. لذلك فإنّ تآكلَ قدرتنا على تجديد معنى الشعر ووظيفته يعني أنّنا نسلّمُ بقول «امرئ القيس»: لقد طَوَّفْتُ في الآفاقِ حتى // رَضيتُ مِنَ الغَنيمةِ بالإيابِ»■

أم سعد: تُصبّح على الشهيد غسان كنفاني

حاتم استانبولي– كاتبٌ سياسيٌّ فلسطينيٌّ

أم سعد، الشّخصيُّة المقاومةُ المتكاملة

الحوارُ الّذي دارَ بينَ غسّان كنفاني وأمِّ سعد في ثمانيةِ فصول، أظهرَ مدى علاقَةِ غسّان كَنفاني بالمخيّم، ومدى جراءةِ أمِّ سعد وإقدامِها وشجاعتِها وفلسفتِها الشّعبيّة، التي كانت تعبّرُ عن جوهرِ عدالةِ المخيّم. أمُّ سعد ناقدةٌ شعبيّةٌ إيجابيّة، قدّمت الحلولَ والرّؤى في لغةٍ شعبيّة؛ تحملُ فلسفةً واقعيّةً نقديّةً تطرحُ الواقعَ وتقدّمُ الحلول.

أمُّ سعد، روايةٌ حملت السّياسيَّ والفكريَّ والاجتماعيَّ والأيديولوجيَّ والطبقيَّ والإنسانيّ.

في الفصلِ الأوّل، تحتَ عنوانِ الهزيمة؛ أظهرَ غسان كنفاني ارتباطَ أمِّ سعدٍ بالزّمن، من خلالِ ربطِ خطواتِها الواثقةِ بدقّاتِ السّاعة التي لا تعرفُ إلا التقدّمَ إلى الأمام، وطرحِ الأسئلةِ على زوجتِه بعدَ أنْ ذكرَ أنّ أمَّ سعد غابت عشرةَ أيام منذُ أنْ بدأتِ الحربُ التي قاتلوا من أجلِها، وحين خسروا خسرت هي مرّتين. وها هي تأتي إلينا؛ ترى لماذا تجيءُ وكأنّها تريد أنْ تبصقَ في وجوهِنا؟ كيف تراها رأتِ المخيّمَ حين غادرته هذا الصّباح؟

هذه الأسئلةُ تحملُ موقفًا مركّبًا؛ موقفَ أمِّ سعد الرّافضَ للهزيمة، وآخرَ هو تحميلُ المسؤوليّةِ للفكرِ السياسيّ الذي وضعَ مسؤوليّةَ التّحرير للأنظمةِ الرسميّةِ العربيّة، وأظهرَ هذا في جملتِه (تريدُ أن تبصقَ في وجوهِنا).

أمُّ سعد قدّمت لغسانَ كنفاني عودًا (قضيبًا) جافًّا لداليةِ عنب، وقدّمته له، وشرحت له مواصفاتِ الدّالية: أنها لا تريدُ ماءً كثيرًا؛ لأنّها تأخذُ ماءَها من رطوبةِ الأرض، وتنشرُ جذورَها في الأرض؛ لتأخذَ غذاءَها؛ حتى تنبتَ عنبًا. أمُّ سعد قدّمت نقدًا للفكرِ السياسيّ الذي اعتمدَ على الأنظمةِ الرسميّةِ لتحريرِ فلسطين، وتجاهلت قوّةَ الجماهيرِ التي هي الأرضُ التي يجبُ أنْ تزرعَ فيها فكرَ التّحريرِ والعودة.

عودُ الدّاليةِ النّاشفُ الذي قدّمته في أوّلِ الرّواية، ودبّت فيه الحياةُ، واخضرَّ في نهايتِها، وحديثُها عن الزيتونِ وخصائصِه المرتبطةِ بالأرض؛ كلُّ ذلك كان درسًا نقديًّا ايجابيًّا، أرادَ فيه غسانُ كنفاني توضيحَ أنّ الحلَّ يكمنُ في العودةِ إلى الجماهيرِ وإطلاقِ طاقاتِها.

مقارنةٌ بينَ عقيدةِ المقاومةِ وعقيدةِ المساومة

أمُّ سعد طرحت بقوّةٍ مقارنةً بين عنوانِ العقيدةِ القتاليّةِ المقاومة، وعقيدةِ المساومةِ والانتهازيّةِ السياسيّةِ في محطّتين؛ عندما أظهرت العقيدةَ القتاليّةَ لابنِها سعد، والعقيدةَ المساومةَ للمختارِ الذي عرَض خدماتِه على أمِّ سعد؛ لإخراجِ سعدٍ ورفاقِه من السّجن. أمُّ سعد سخرتْ منِ المختار، وكانت متوقّعةً أنّ يرفضَ سعدٌ ورفاقُهُ وساطةَ المختار، خاصّةً أنّ إطلاق سراحِهم كان مرتبطا بتوقيعِ ورقةٍ يطلب فيها أن يكونوا أوادم، هذه الكلمةُ التي سَخرَ منها سعدٌ ورفاقُه، ورفضوا هذه المساومةَ المُذلّة، وسخروا من المختار، وقال له: (سلّم على الأهلِ يا ابني). هذا التعبيرُ الذي أغضبَ المختار، لكنّه يحملُ إشارةً إلى أنْ التبادليّةَ في الدورِ الوظيفيّ بين دورِ المختارِ المساوم، وبين دورِ سعد المقاوم. هذا العمقُ الذي شرحته أمُّ سعد لغسّان. أمُّ سعد كانت تعلمُ أنّ ابنَها سعدًا سيخرجُ من الحبس بلا وساطةِ المختار، وأشارت إلى أنّ الحبسَ له مفهومٌ أشملُ من الغرفةِ الصغيرةِ التي يجلسُ فيها سعدٌ ورفاقُه، وأشارت بوضوحٍ إلى أنّ الحبوسَ أنواعٌ؛ المخيّمُ حبسٌ، والبيتُ حبسٌ، والجريدةُ حبسٌ، والراديو حبسٌ، والباصُ حبسٌ...وأربكت غسّان عندما سألته: ها أنتَ غيرُ محبوس؛ فماذا أنتَ فاعل؟

مصطلحُ الحبسِ أو الحبوس؛ أرادَ غسّان أنْ يُظهرَ عمقَ وعيِ أمِّ سعد لانعدامِ الحريّاتِ العامّة. والمقاربةُ بينَ البيتِ والجريدةِ والباصِ والراديو هي إشارةٌ إلى المكانِ وحيّزِ النشاطِ الإنسانيّ الذي تغيبُ فيه الحريّة.

أمُّ سعد كانت مدركةً ومقتنعةً أنّ سعدًا سيخرجُ من السّجن؛ حين قالت لغسّان: إنّ سعدًا سيخرج من السجن، والسّجنِ كله. فكلمةُ «كله» تعني أنّ مرحلةً جديدةً ستنطلق: سيكونُ سعدٌ ورفاقُهُ عنوانَها الجديد.

والمدقّقُ في حوارِ الرّوايةِ بين دورِ المختارِ ودورِ عبدِ الوالي؛ يجِد أنّ العاملَ المشتركَ بينَهما في دورِهما كان في إطارِ مكانينِ وزمانينِ مختلفين، في إشارةٍ لدورِهما المتعاونِ معَ الأفندي، وإنْ اختلفَ موقعُهُ أو مكانُه أو دورُه. والرّبطُ بين الأفندي في المخيّمِ والأفندي في فلسطين؛ يريدُ غسانُ أنْ يُظهرَهما في موقعٍ واحدٍ ضدَّ سعدٍ ورفاقِه.

وتحتَ عنوانِ خيمةٍ عن خيمةٍ تفرق؛ أظهرَ غسّانُ بوضوحٍ أنّ مرحلةً جديدةً من النضالِ الوطنيّ الفلسطينيّ قد بدأت، في مقارنةٍ بين خيمةِ النكبةِ والهزيمة، وخيمةِ المقاومةِ التي انطلقت في إطارِ ردٍّ جماهيريٍّ شعبيٍّ على هزيمةِ جيوشِ الأنظمةِ الرسميّةِ التي أوكلَ إليها مهمّةَ التّحرير.

العقيدةُ المقاومةُ لأمِّ سعدٍ وابنِها سعد؛ كانت الناظمَ والمعيارَ لمرحلةِ ما بعدَ هزيمةِ حزيرانَ عامَ 1967، وبعدَ عشرينَ عامًا على جريمةِ النّكبةِ التي أشارت إليها أمُّ سعد للتحذيرِ من دورِ العملاءِ والخونة، وما كان من رفيقِ ابنِها «ليث» من رفضِ قيامِ عائلتِه بطلبِ وساطةِ عبد المولى الذي أصبح نائبًا في البرلمانِ الإسرائيلي.

أمُّ سعد أشارت إلى أنّ «ليثًا» قد أشار لسعد بأنّ يطخَّ عائلتَهُ إذا أقدمت على هذا الشيء، في تأكيدٍ واضحٍ لعدمِ المساومةِ بين عقيدةِ المقاومة، وعقيدةِ الخيانةِ والتآمر. وفي هذا السّياق، أشارت إلى دورِ عبدِ المولى في قتلِ فضل؛ فضلِ الفلاحِ الفلسطيني؛ كان قد صعدَ

العودة إلى الفهرس

إلى الجبل في ثورة الـ36، وعبد المولى كان صاحبَ أرزاقٍ وأراضي، ويبيعُ تبغَه لشركةِ فرمان، وعندما جاءت رسائلُ ملوكِ العربِ لإنهاءِ الثّورة؛ أقام عبد المولى احتفالًا جاءت إليه كلُّ القرى؛ وأثناءَ الحفل نزل فضلٌ من الجبل حافيَ القدمين، وجلس على عتبةِ بيتٍ في آخر القريّة، ولم يلتفت له أيٌّ من المحتفلين الذين كانوا يسمعون لخطاب عبد المولى وهو يتحدّث عن الثورة والانتصار .

أمُّ سعد أشارت إلى أنّها سمعت «فضلًا» يقول: (ولكوا.. أنا الذي تمزّعت قدماه، وهذا الذين تصفقوا له؟).

في إشارة من غسّانَ إلى دورِ العملاءِ والانتهازيّين الذين تربطهم مصالحُ مع الاحتلال، ودورهم المركّب المزدوج في التآمر على الثّورة، وفي إشارةٍ منه إلى التحذير من دورهم الذي لا يريد ليثا وسعدًا أنْ يعودا ويقضي عليهما، كما قضى عبد المولى على فضل، في إشارةٍ إلى الإمعان في قتل فضل الذي يرمزُ إلى روح المقاومة الفلسطينيّة، التي تصاعدت واستمرّت ضدَّ الاحتلال؛ فكانت رواياتٌ عديدةٌ عن طريقةِ موتِ فضل في المعصرة أو في حربِ الـ48 أو أثناءَ عودته إلى فلسطين.

بعدَ 20 عامًا و32 سنةً على رمزيّة قصّة عبد المولى وفضل؛ هذان الاسمانِ المرتبطان ببعضهما، بحيث لا يمكنكَ الحديث عن فضل دون الإشارة إلى عبد المولى؛ أراد غسّان كنفاني أنْ يوضّحَ العلاقة بين الثورة والثورة المضادة.

البعدُ الطبقيّ الفطريّ لأمّ سعد

أمُّ سعدٍ كانت واعيةً لدورِها، ولمصلحةِ طبقتها الاجتماعيّة بغضّ النّظر عن جنسيّتها؛ عبّرت عن ذلك عندما تخلّت عن العمل الجديد الذي كان يوفّر لها دخلًا لإعالة أسرتها وأولادها، عندما أدركت أنّ ربَّ العمل طرد المرأة اللبنانيّة الجنوبيّة التي كانت تحصل على سبع ليرات؛ لتحلّ محلّها أمُّ سعدٍ الفلسطينيّة بخمسة ليرات. هذا العملُ الذي عمل على تنفيذه الناطورُ، قصيرُ القامة، الذي كان يلاحقُ أمَّ سعد؛ لتعودَ إلى عملها؛ لكي يوفّرَ ليرتين لمالك البنايةِ التي قيمتُها آلاف الليرات، في تصوير للجشع الاستغلاليّ للفقراء، ولزرع الشقاق بين أبناءِ المخيّم وأهل الجنوب.

عندما واجهت الجنوبيّةُ أمّ سعد، وقصّت عليها قصّتها لم تتردّدْ أمّ سعدٍ عن التخلّي عن عملِها وأجرة أسبوعين للمرأة الجنوبيّة، وأشارت لها بأنْ تأخذَ راتبَ الأسبوعين، وفي هذا السياق؛ أشار غسّانَ إلى دور العاملاتِ والوسيط وربِّ العمل... عندما قالت أمُّ سعد: لو أنا والحرمةُ والناطورُ قلنا للخواجة... وصمتت.

عودةُ الفرحة والأمل لأبي سعد

أما في الفصل الأخير الذي أشار فيه غسّان إلى دور «أبو سعد» عامل الباطون الذي نفض عن نفسه غبارَ النّكبة وإحباط الهزيمة؛ عندما أعاد الفدائيون الكرامة لخيمة المخيّم، التي تحوّلت إلى خيمة مقاومة، وعندما استطاع سعدٌ أن يغلقَ مزرابَ السّماء؛ خيمةُ المخيّم أصبحت مكانًا لإعداد جيل جديد يحملُ ثقافة جديدة.

الفدائيون أعادوا الحياة من جديد في بيتِ أمّ سعد، ولأوّل مرّة وضع أبو سعد يدَهُ على كتف أمّ سعد؛ ليقول لها: انظري إلى سعيد، كيف يتدرّب على المقاومة؛ وأشار إلى ابنه بافتخار، ويقول لرجل يقفُ إلى جانبه في إشارةٍ إلى أمّ سعد: انظرْ هذه المرأة تخلّف الفدائيّين وفلسطينُ تأخذ.

أمُّ سعد شخصيّةُ المرأة الفلسطينيّةِ المتكاملة؛ أمُّ سعد مدرسةٌ تجمع السياسيَّ والاجتماعيَّ والفكريَّ؛ أمُّ سعد استبدلت حجابَها الذي صنعه لها شيخٌ وحملته 20 عامًا، ولم تتبدّل أحوالها، وعندما خلعته، ووضعت مكانَهُ رصاصةً □ كان قد تركها سعدٌ تحت المخدّة في تأكيد على رمزيّةٍ واضحة؛ لاستبدالِ ثقافة الوهم بثقافةِ الواقع المقاوم .أمُّ سعد؛ هي الأمُّ والزّوجةُ والعاملةُ والمقاومةُ التي لم يساورْها شكٌّ بأنّ سعدًا ورفاقَهُ سيغلقون المزراب، الذي كان ينهالُ على المخيّم؛ فقرًا وشقاءً ومذلّةً، ويغمرُهُ بالوحل. هذا المخيّم الذي كان مستباحًا ليلًا ونهارًا من الأفندي الذي واجهتْهُ أمُّ سعد بأنَّ ابنَها فدائيٌّ في الأغوار، وأنّه زارها وترك لها رصاصة؛ أصبحت عقدًا محمولًا على صدرها، هذا الصدرُ الذي أخفى صورة سعدٍ التي أراد أنْ يأخذها الأفندي.

غسان كنفاني؛ أبدع في طرح انبعاث فكرة المقاومة وعقيدتها، وحدّد معيارَها وناظمَها في الشخصيّة المقاومة المتكاملة لأمّ سعد. غسانَ وضع دورَ المرأة الفلسطينيّة في موقعهِ الحقيقيِّ الواقعيّ، وأشار إلى أهميّةِ دورِها، وأنّها هي المدرسة التي تنتج المقاومين الواعين لدورهم.

سعدٌ كان شخصيّةَ مقاومة مقدامة واعية لدور المختار والمثقّف الذي نقدتْهُ أمُّ سعد، وكذلك، ابنُها سعدٌ عندما أشار بعد انتهاء المعركة التي بدأت بالراديو وانتهت بالراديو، أن على غسان كنفاني أن يأتيَ إلى المخيّم الآن، في إشارةٍ إلى أنّ المخيّمَ وجماهيرَهُ هما من يستطيعان تحقيقَ عدالته.

أمُّ سعد؛ أراد منها غسّان، الذي أظهر موقفَهُ في غالب الأحيان كطرف محايد، يطرحُ الأسئلةَ على أمّ سعد ويسمعُ لها. غسّان أراد أنْ يُقدّمَ درسًا يشيرُ فيه إلى الخطأ التاريخيّ الذي ارتكبَتْهُ الحركةُ الوطنيّة في اعتمادها على النظام الرسميّ العربيّ، وإهماله دورَ الجماهير ومصلحتها في تحرير وطنها، هذا الموقفُ الذي وضعهم جميعًا في الحبس الكبير المتعدّد الأشكال، التي وعتْهُ أمُّ سعد ولم يعه السياسيّون والمثقفون؛ عندما أشارت أمُّ سعدٍ لغسّان: ها أنت ليس محبوسًا؛ فماذا أنت فاعل؟

صراعُ أمّ سعد وفضل وسعد وليث مع المختار وعبد المولى والناطور، ما زال قائمًا – ومع الأسف لم يستمع القادّةُ لأمّ سعد، ولم يقرؤا روايتها – لذلك، نرى اليومَ أنّ عبد المولى عادَ وترأس الجماهير، وأطلق خطابات الانتصار، وسرق إنجازات الشهيد سعد، والأسير ليث، وحاصر مقاومةَ أمّ سعد. والمختارُ عاد مع نواطيره يركضون ليلًا ونهارًا في مواقع الشتات، للتضليل والاستغلال لمصلحة عبد المولى، الذي أصبح عضوًا في برلمانات عديدة؛ يشرّعُ لمولاه المحتلّ الإحلالي.

أمُّ سعد مبدعةٌ مقاومةٌ شاملة.. كلُّ كلمة فيها لها معنًى؛ كيف استخدم كلمةَ القضيبُ الجاف للدلالة على عود الدالية، الذي إذا ما زُرع في الأرض عادت له فحولتُهُ، ورفضتْ القولَ: إن سعدًا الذي جرح في معركة هديتها أنّه سيذهب، بل قالت: إنّه سيعود في إشارةٍ إلى عنوانٍ أشمل يرمزُ لعودةِ المخيّم وتحقيق عدالته. أمُّ سعد ما زالت موجودةً وحيّة، لكنّ الذي غاب واستشهد هوَ محاورُها والمستمعُ إليها؛ الشهيد غسان، أما سعدٌ فما زال شاهدُهُ يقف منتصبًا منتصرًا؛ ليذكرَ أنْ المقاومةَ هي الوحيدةُ التي يمكنها أن تغلقَ المزرابَ الذي أصبح أكثرَ من واحد، وهي التي ستقصى عبدِ المولى، وتلغي دورَ المختار ونواطيرِه مهما طال الزمن؛ فمعادلةُ الصّراعِ لن تُحلَّ إلا بتحقيقِ عدالةِ المخيّم■

غسان كنفاني، ودقُ جدرانِ الوعي

جواد العقاد–شاعر وكاتب/ فلسطين

أنتجت القضيّةُ الفلسطينيّةُ العديدَ من المبدعين في الشِّعر والرواية والمسرح والغناء، ومجالات شتى، وعلى رأس هؤلاء: الأديبُ غسان كنفاني، الذي استلهم تجربتهُ الأدبية من واقعه المعاصر، وجعل من مأساة الفلسطيني ملحمةً تتوارثها الأجيال، فلا يكتبُ بقدر ما يُمارسُ الثّقافة الثوريّة التي أثّرت في أجيالٍ متعاقبةٍ؛ سواءً من النّخبةِ المثقّفةِ أو الجماهيرِ الثّائرة.

لم تكنِ أعمالُ غسان كنفاني الإبداعيةُ منغلقةً على نفسها، ولا تحاكي الواقعَ بالمعنى السّاذجَ، وإنّما كانت - وما زالت- إعادةَ صياغةٍ للواقع من خلال رؤيةٍ ثوريّةٍ مُحرِّضةٍ على التمَرّدِ والثّورةَ، وطرحٍ المزيد من التساؤلاتَ الوجوديّةِ المُقلقة، فإذاَ قرأنا روايات كَنفاني نجدِ كلَّ واحدةٍ منها درسًا فَي الثّورة قبلَ أيِّ شيءٍ. مثلًا: في روايةِ «رجالَ في الشمس» عرضَ القلقَ الوجوديّ الإنسانيّ عندَ الفلسطينيّ بعدَ تهجيره من أرضه، والسؤالُ الوجوديُّ الأهمُّ فَي الرّوَايةِ هو: «لماذا لم تدقّوا جدرانَ الخزّان ؟» فالإنسانُ يتحقّقُ وجودُهُ بموقفه. وفي روايةِ «عائد إلى حيفا» كان غسَان مولعًا بوصَفِ المكانِ والتفاصيل، حيثُ تعمّقَ في وَصف حَيفا وشوارعها ومرافقها، وهذا يرتَبطُ بالتساؤل الأَساس للروَاية: «أتعرفينَ ما هو الوطَنُ يا صفَية ؟» أيْ قلقُ الإنسانِ الفلسطينيّ الذي تمنّى أن يبقى له وطَن. وفي غالبِ أعمالهِ أثارَ غسان تساؤلاتِ الوطنِ والوجود.

كان غسان كَنفانيِ صادقًا مع نفسه وشعبه، ملتزمًا بالقيم النضاليّة الثوريّةَ والقوميّة، فالوظيفةُ الأُولى للأدَبِ عندَهُ: هيِ النقدُ والتحريض. إنّهُ ثوريٌّ يكتبُ الروايةَ وروائيٌّ يكتبُ المقال السياسيّ، فلا يُفْصَلُ بينَ رؤيةِ السياسيّ وإبداعِ الروائي. إنّ غسان بشَكل أو بآخرَ اعتمدَ على خلفيّة أيديولوجيّةً ماركسيّة في معظم كتاَباتهِ، والأهمُّ من ذلكً كلّه أنّهِ مارسَ العمَلَ السياسيَّ والحزبيَّ كماَ يُنظَّرُ له في كتاباته وأقوالهِ التي غدت عناوِينَ رئيسةً للثّورَة الفلسطينيّة، بل لكلّ حركات التّحرّر والثّورات الحقيقيّة. أصبح غسَان أيقَونةً للوعَي الثوريّ، بعبارةِ أخرى: أنتجَ مقولات استلهمها من تجَربته النضاليّة الخاصّةً، فلم يمتْ قبلَ أن يكونَ ندًّا، وأدرَك تمامًا أنَّ له شيئًا في هذا العالم، فقامَ وناضلَ واستشهدَ في سبيلِ الفكرة. ونستطيع القولَ: إن أدبَهُ استمدَّ الأهميةَ من تعبيرهِ عن معاناة الجماهير، نعم: إنّنا نعترفُ بأيديولوجيّة الأدب عندَ غسان كنفانيِ، ولكنّها ليستَ تنظَيرًا متعاليًّا ولا محاولةَ فرض المرجعيّةِ الثقافيّةِ والفكريّةِ على القارَئ، بل هيَ همُّ الشّعَبِ الفلسطينيّ ومعاناته التي عاشها بعدَ النّكبة في الداخلَ والخارج، إنّها تمامًا اليسارُ الثوريّ في أبهى تجلياته. والمتأملُ في كتابات كنفاني الأدبيّةَ؛ يعرفُ أنّه أمامَ أنموذَجٍ فريد من «الأدب المقاوم» يحرصُ علىً الوقوف دائمًا إلى جانب القضايا العادلةِ ضدَّ التخلّفِ والرجعيّةِ والاستعمار والتبعيّةِ والطبقيّةِ وغيرها، ونلمسُ ذلَك بوضوحٍ في روَاية «أم سعد».

يمثّلُ كنفاني أنموذجَ الأديب الملتزم، ويعطينا تصورًا واضحًا عَن الأدب المقاوم، الأدبِ الذي يصدرُ من إيمانَ عميقٍ بالفكرَةِ المطروحةِ في النصِّ النابضِ بالحياةِ والتمرّدِ والثّورة، الطامحَ إلى التغيير مَن خلال التأثيرِ في وعيَ الجماهير، ولا يستطيعُ أحدٌ إلغاءَ دورِ الأدبِ في هذا المضمار، وخيرُ دليلٍ على ذلكَ أنَّ مقولات غسان كنفاني وغيره من أدباءِ القضيّة الملتزمين، أصبحتَ متأصّلةً في ذاكرةَ الشّعب الفلسطيني، ومضمرةً في وعيهِ الجمعَي، تُردَّدُ في المظاهرات، وتُكتَبُ على الجدرانِ في المناسبات الوطنيّة والقوميّة، ولاَ أُبالغُ إنْ قلتُ: إنّها حرَّضَت وغيَّرت في بعضِ مراحلِ النّضالِ الفلسطينيّ لا سيّما خلالَ القرنِ الماضيَ.

والحقُّ أنّ الجيلَ الشابَ في فلسطينَ والأقطارِ العربيّةِ كافة، بحاجةٍ ملحّة إلى تعمَيم فكرَ غسان كنفانيً وغيرهَ من الرفاقَ اليسَاريين، أصحاب الرّؤيةَ الثوريّة والإيمان العميق بالقوميّةِ والقضاَيا الإنسانيَّةِ المحقّقَة، والخلاص من قوى الاستعمارَ والتجهيلِ والتخلّفَ، فالثقافةُ السائدةُ اليومَ هشّةٌ وزائفة، لا تملكُ أدنى مقومات الرقيِّ والتغيير نحوَ مستقبل أفضل، إنّها ثقافةُ القرونَ الوسطى بأقنعةٍ جديدة، لم تجلبْ لنا غيرَ مزيدٍ من الاستعمارِ والهلاكِ والخراب ■

AL-HADAF
الهدف
فلسطينية عربية وطنية ديمقراطية بهوية يسارية

الطريق إلى فلسطين

ليست بالبعيدة ولا بالقريبة

إنها بمسافة الثورة

ناجي وغسان: أن نصلب قاماتنا ولا نتعب

قال الشّهيدُ الشّاهد، ناجي العلي: إنَّ فهمَ الصّراع عندَهُ، هو أنْ نصلبَ قاماتنا كالرّماح ولا نتعب، وقد فعل، وبقيَ منتصبًا حتّى الاستشهاد. ولعلّ في سلوكهِ وحياتهِ المعنى الحقيقيّ للبسالةِ الخالصة، والإخلاصِ الباسلِ في آنٍ معًا.

كان ناجي مخلصًا لشعبِهِ وقضيّتهِ وللنّاس، الذين اختار أنْ ينحازَ إليهم، وهؤلاء كانوا الناس الذين "تحت" ليس صدفة طبعا، ولكن ابن المخيم اللاجئ لايمكنه إنكار انحيازه الطبقي والفكري والسياسي، ولم يتعبْ ناجي؛ والتّعبُ هنا، ليس بالمعنى المتعارف عليه جسديًّا أو معنويًّا، فهذهِ سمةٌ بشريّةٌ لا فرارَ منها، ولكنْ نزعمُ أنّ ما قصدَهُ ناجي، هو ذلك التّعبُ الّذي يحيل إلى الاستسلامِ والعجزِ عن المواصلة، أو العجز عن دفع الثّمن.

من جانبِهِ قال غسّان: إنّ القضيّةَ لا تنتصرُ بمدافعينَ فاشلين، وإذا ابتُليتْ أيُّ قضيّةٍ بهذا النّوع، فالأولى هو تغييرُ وتنحّية هؤلاءِ المدافعين، وليس تغييرَ القضيّة.

الأولى أنْ نغيرَ المدافعين، وكان غسّانٍ كناجي، مدافعًا باسلًا لا يعرف التّعب، أو لا يسمحُ للتّعبِ أنْ يتسلّل إليهِ، ويصرفَهُ عن المهمّةِ الأساس، التي نذرَ نفسَهُ لها.

يأتي هذا منسجِمًا تمامًا مع مقولةٍ أخرى لناجي، إذْ يقول: الطّريقُ إلى فلسطينَ ليست بالبعيدةِ ولا بالقريبة، إنّها بمسافةِ الثّورة!

كيف نفهمُ هذا الكلامَ؟ نفهمُهُ إنْ أدركنا، أنّ سرعةَ تحقيق الهدف الناجزِ مرتبطةٌ بعواملَ عدّة، أهمُّها: تحديدُ ماهيّةِ الثّورة، وماهيّةَ عناصرِها، وحواملها الاجتماعيّةِ والفكريّة، وقد أجابَ ناجي على المعضلةَ الحقّة، بأنّه لا يوجدُ طريقٌ سريعٌ وآخرُ بطيءٌ إلى فلسطين، بل يوجدُ طريقٌ صحيحٌ وآخرُ خاطئ، يوجدُ ثورة، ولا ثورة، فأين نحن من الثّورة التي قصدها ناجي؟ وأين نحن من الثورة التي اعتنقها "سعد"، البطلُ الأسطوريُّ لغسّان، الّذي قرّرَ أنْ يغلق مزاريبَ السّماء، ولا ينشغلَ بطينِ المخيّم؟!

أحمد.م. جابر